

أطلس

تاريخ العصر المملوكي



تأليف وتصميم

سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث

العبدان
Abekan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المجلد، سامي عبد الله

أطلس تاريخ العصر المملوكي / سامي عبد الله المجلد - ط ١.

الرياض، ١٤٣٣هـ

٣٢٨ ص؛ ٢٠ × ٢٨ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٥٠٣-٤٠٢-٩

١- دولة المماليك ٢- الأطلال أ. العنوان

ديوي ٩٥٣, ٠٨ رقم الإيداع: ١٤٣٣/٨٤٣٢

الطبعة الأولى

٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: **العبيكان** للنشر

الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥ ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على أبل

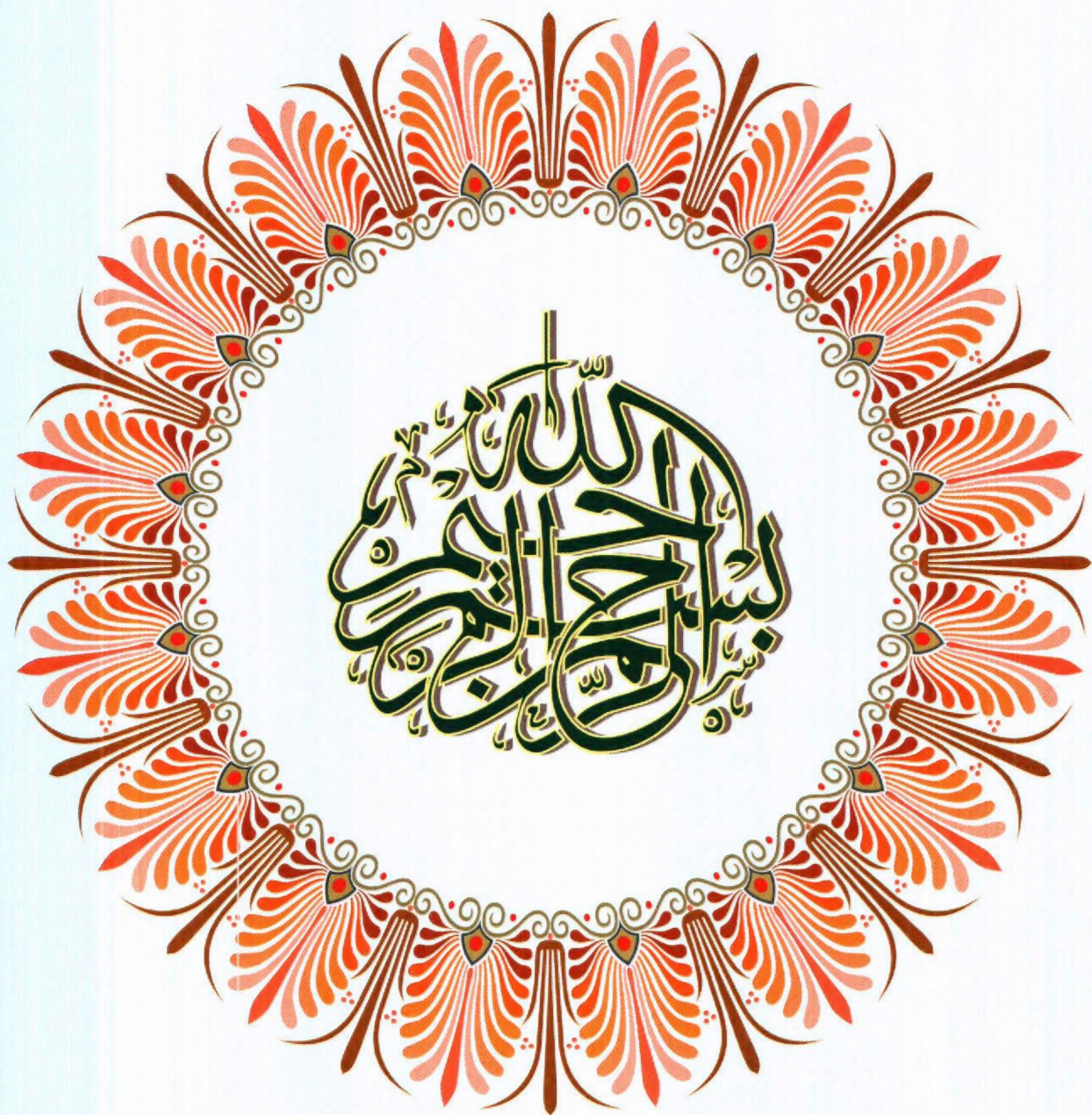
<http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store>

التوزيع: مكتبة **العبيكان**

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥



القدمة

جاء الإسلام بمبدأ المساواة والعدل بين الناس في الحقوق والواجبات بغض النظر عن اختلافهم في الجنس أو اللغة أو اللون أو الحرفة أو الغنى أو الفقر، وأقام ميزان التفاضل على أساس التقوى والعمل الصالح، وقد ورد هذا المبدأ العظيم في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣. ومن معنى الآية الكريمة ما خطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، حين قال: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى".

وظاهرة حكم الممالك في الدولة الإسلامية من الظواهر الغريبة التي ندر حدوثها في التاريخ، وهو تأكيد على إيمان المسلمين بأن ميزان التقوى في الإسلام هو الفيصل في هذا الصدد؛ ولقد كانت الأحداث التي سبقت حكم هذه الفئة من الممالك (الأرقاء البيض) حكام مصر وبلاد الشام ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ، قد مهدت لها طبقاً ووفق سنن الاجتماع البشري وقواعده، مجموعة من العوامل - انظر ص ١١ - ١٢، من هذا الأطلس - . حيث من المتعارف أن نظام الرق كان معروفاً لدى شعوب الأرض آنذاك، ومنهم العرب، وكان مصدره التقليدي الأسر في الحروب، والقرصنة والاختطاف من البلاد النائية والبدائية؛ ولا سيما في فترات المجاعة والكوارث الطبيعية.

وعندما بُعث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو النعمة المهداة، وجد نظام الرق أحد أهم دعائم الاقتصاد في المجتمع الجاهلي، فوضع الإسلام لتصفيته تشريعات متدرجة، كفيلة بتصفيته: أغلق أولاً باب الرق فيما سوى الحروب التي كانت خاضعة لقانون المعاملة بالمثل، وحرّم الاسترقاق بالاختطاف والقرصنة ومختلف أساليب التعدي، ثم كفل للأسرى - الرقيق الحربي - مجالاً واسعاً إنسانياً، يتمتعون فيه بحريتهم الدينية والفكرية والعلمية والإنتاجية، وحقوقهم البشرية زواجاً وطلاقاً وإنجاباً وكسباً، وهو ما لم توفره أمة من الأمم للأسرى على مدار التاريخ؛ كما فتح لتحريرهم من الرق أبواباً أخرى لم تفتحها لهم أمة أبداً، عتقاً بمختلف الكفارات، وعتقاً إذا اعتدي عليهم بالضرب أو اللطم، وعتقاً بالتطوع والفداء، والمن والمكاتبة. وسار التشريع الإسلامي في هذا المجال إلى أبعد الحدود، فجعل هزل العتق جداً؛ حفاظاً على كرامة الأسرى وحماية لهم من الهزل والسخرية. ولو استمرت أحوال المسلمين طبقاً لما شرعه الإسلام في هذا المجال، لصفي الرق في وقت مبكر من تاريخ الإنسانية^(١).

ولكن طبيعة الأوضاع في العصر العباسي مهدت إلى جلب هذه الفئة للدولة الإسلامية منذ عهد الخلفيتين

١ - عبد الكريم محمد مطيع الحمدوي، مقدمة كتاب «تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك» للمؤرخ نجم الدين إبراهيم بن علي الحنفي الطرسوسي.

المأمون وأخيه المعتصم، حتى أصبحت هذه الفئة هي القوة الضاربة في العهد الأيوبي، ولا سيما في عهد الملك الصالح أيوب ومن تبعه من أمراء البيت الأيوبي.

وحيثما تعرضت الأمة الإسلامية للغزو المغولي بقيادة (هولاكو)، وآل الأمر إلى السقوط المخزي لعاصمة الخلافة العباسية (بغداد) في أيديهم سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٨٠ م، ضج السهل والجبل من كثرة ما أريق من دماء المسلمين، وأشفق المؤرخون من هول ذكره، وفي كل مرة زحف - ويزحف - فيها المغول وجحافل الصليبيين، وحلفائهم الأرمن والحشاشين الباطنية؛ يعملون على قذف الرعب، واستئلال روح المقاومة من النفوس، ولم يوقف زحف المغول الأصفر إلا هتاف: "وا إسلاماه"، الذي تردد مرة في بطاح عين جالوت على أيدي المماليك الأتراك، علماً بأن الصليبيين ما زالت بقاياهم جاثمة على الساحل الشامي على الرغم من الضربات الموجعة التي أنزلها عليهم الأتابكيون الأتراك والأيوبيون الأكراد من قبل، ولكن روح التواطئ مع المغول ظل هدفاً للصليبيين ومن دار في فلحهم؛ لوأد البقية الباقية من أهل السُّنة في المنطقة - ويأبى الله إلا أن يتم نوره - فقد انتصر المماليك في عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م، فدارت الدائرة على القوات المغولية التي سحقت ووقع (كتبغا) في الأسر، ثم قتل بأمر من السلطان المملوكي قطز، وتحطمت الأسطورة التي ذاعت بأن المغول قوة لا تقهر وراية لا تكسر، وجرى بعد ذلك تطهير دمشق وحمص وحماة وحلب وباقي مدن الشام من بقايا المغول والأرمن، وعوقب النصاري الذين دفعوا الثمن غالباً بسبب تعاطفهم السابق مع المغول، وما اقترفوه من آثام ضد الأهالي المسلمين زمن الاحتلال الصليبي، حيث وقّعت كثير من الهدن مع الصليبيين في عهد السلطان بيبرس وقلاوون؛ لكن الصليبيين كانوا كثيراً ما ينقضون هذه الهدن.

وبعد أن فتح السلطان قلاوون طرابلس عزم على حصار عكا؛ لكن المنية وافته، فخلفه ابنه الأشرف خليل الذي اجتمعت له جيوش مصر وبلاد الشام سنة ٦٩٠ هـ - ١٢٩١ م، فحاصر عكا حتى فتحها، وفر الصليبيون منها، ثم واصل الأشرف خليل مهامه في تطهير ما تبقى بأيدي الصليبيين، مثل: صور وحيفا وعنتيت وصيدا وأنطرسوس، وبهذا قُضي نهائياً على الوجود الصليبي في بلاد الشام، بل إن المماليك لم يقفوا عند هذا الحد فقد واصلوا أنفسهم البطولي للذب عن ديار الإسلام والمسلمين، ففي بداية القرن الثامن الهجري (٢ رمضان ٧٠٢ هـ)، حقق الجيش المملوكي نصراً آخر مؤزراً على المغول في مرج الصفر عند قرية (شقحب) قرب دمشق، التي شارك فيها شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية - رحمه الله - فتوقف بذلك المد المغولي عند العراق وفارس. ولم يقف المماليك مع المغول عند هذا الحد بل وقفوا ضد تيمورلنك في حملاته الطائفية سنة ٨٠٢ هـ - ١٤٠٠ م، على بلاد الشام بعد أن هاجمها بذريعة وقوف أجدادهم مع معاوية بن أبي سفيان ضد جيش علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - ^(١).

وهكذا، فبالقضاء على الصليبيين وبزوال الخطر المغولي على بلاد الشام ومصر، أصبح لدولة المماليك شأن عظيم في السياسة الدولية خصوصاً في عهد سلطانها الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة. لقد أحيا حكام المماليك بعد سقوط بغداد، شخصية الخلافة العباسية اسمياً، حينما نقلوها من بغداد إلى القاهرة، وأحيوا شعائر الدين في الدولة، وأقاموا المنشآت الدينية، وشجعوا العلم والمعرفة، وأصبحت مصر وبلاد الشام في عهدهم مركزاً للتجارة العالمية، والطريق الرئيس لتجارة الشرق، وبوابة العبور إلى القارة الأوروبية، ولعل الثروة المالية التي تحققت في أيدي السلاطين المماليك خلال هذه المدة خير ما يؤكد ذلك.

وعلى الرغم من الأحداث الجسام التي وقعت في العصر المملوكي المتمثلة في الغزو المغولي، وتصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، كانت الدولة المملوكية موعودة بحدثين عظيمين آخرين: أولاً، البدايات الأولى لحركات الاستعمار الغربي تحت ذريعة ما يسمى بالكشوف الجغرافية، فبعد أن اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م لتطويق بلاد المسلمين والوصول بتجارة أوروبا إلى بلاد الهند ما أضر بالمصالح التجارية الإسلامية، ولا سيما التجارة المملوكية، فقد كان لزاماً على المماليك أن يتصدوا لهذا الغزو الصليبي الجديد، الذي تمثل في البرتغاليين الذين بنوا قلعة (يسوع) لنشر النصرانية في (مُباسا)، وبنى فاسكو دي غاما منارة عليها الصليب في مدينة (ماليندي)، وهذا يدل على أن الكشوف الجغرافية عندهم تعني محاربة المسلمين ونشر النصرانية. وواصل البرتغاليون زحفهم إلى جنوبي بلاد العرب، وتحالفوا مع الصفويين الشيعة على أبواب الخليج العربي، وقاموا بحروب صليبية جديدة حملت مجازاً اسم الاستعمار بمعنى الإعمار، وهي في واقع الأمر سلب ونهب خيرات شعوب العالم تحت تهديدات السلاح وإرغام الشعوب المهورة على اعتناق النصرانية.

ثانياً، بروز الدولة العثمانية من قوة إقليمية في بلاد الأناضول إلى قوة عالمية كبرى استطاعت فتح القسطنطينية (ذلك الأمل الذي راود كثيراً من القادة المسلمين عبر التاريخ الإسلامي للفوز بالبشارة النبوية لفتحها)، ومد هيمنتها على أجزاء كبيرة من الشرق الأوروبي لتبدأ طرق أبواب أواسط أوروبا؛ ما أثار الفزع والهلع في نفوس الأوروبيين، علماً بأن الدولة العثمانية وقفت حامية للمنطقة العربية من أطماع المستعمرين الأوروبيين حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

لقد أخذت دولة المماليك منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي تتعرض للتدهور الاقتصادي نتيجة كثرة الأوبئة والمجاعات والأزمات الاقتصادية والسياسية التي ألمت بها، وازدادت الأوضاع سوءاً بعد تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب عبر مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح، ثم كانت النهاية عندما هزم العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول السلطان المملوكي قنصوه الغوري الذي قُتل في معركة مرج دابق

سنة ٩٢٢ هـ - ١٥١٦ م، ثم زحف السلطان العثماني بقواته إلى مصر ودخلها سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م، وخوض معركة الريدانية، تلك المعركة الحاسمة ضد السلطان المملوكي طومان باي وشنقه على باب زويلة، وبعد هذا النصر العثماني الكبير، طويت صفحات التاريخ المملوكي على الأرض، وأصبح أثراً بعد عين، حيث تنازل الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله عن الخلافة للسلطان العثماني سليم الأول، وسلمه مفاتيح الحرمين الشريفين، فأصبح السلطان العثماني سليم الأول منذ ذلك اليوم خليفة للمسلمين، وصارت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت سلطنة مملوكية.

لقد جاء هذا الأطلس (أطلس تاريخ العصر المملوكي) في ثلاثة أبواب رئيسية: تناول الباب الأول الممالك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)، وتناول الباب الثاني الممالك البرجية ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م، وتناول الباب الثالث النظم والمنجزات الحضارية ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م، ثم ألحقنا هذه الأبواب بملاحق لإثبات المصادر والمراجع، وفهرس للعناوين والأبواب الخاصة بهذا الأطلس.

وأخيراً، وليس آخراً، أسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٨٦.

سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث

الأحساء / المبرز

في ٢٥ / ١١ / ١٤٣٣ هـ

samimag13@gmail.com

جوال ٠٥٠٤٩٣٤٦٩٣

الباب الأول



الممالك البحرية

٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م

أصل المماليك

المماليك في اللغة: هم العبيد أو الرقيق، وبخاصة هم الذين سُبُّوا ولم يُسب أبائهم ولا أمهاتهم. والمملوك، جمعه مماليك، وهو العبد الذي يُباع ويشترى. (العبد الذي سُبِّي أبواه يعرف بالعبد القن وليس المملوك).

ومع أن لفظ المماليك بهذا التعريف يعد عاماً على معظم الرقيق، إلا أنه اتخذ مدلولاً اصطلاحياً خاصاً في التاريخ الإسلامي، وذلك منذ أيام الخليفة العباسي المأمون، والذي حكم من سنة ١٩٨هـ إلى ٢١٨هـ، وأخيه الخليفة المعتصم الذي حكم من سنة ٢١٨هـ إلى ٢٢٧هـ. ففي مدة حكم هذين الخليفين استجلبا أعداداً ضخمة من الرقيق الأبيض عن طريق الشراء من أسواق النخاسة، واستخدموهم كفرق عسكرية خاصة، بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم^(١).

وبذلك - ومع مرور الوقت - أصبح المماليك هم الأداة العسكرية الرئيسة - وأحياناً الوحيدة - في كثير من البلاد الإسلامية. وكان أمراء الدولة الأيوبية بوجه خاص يعتمدون على المماليك، الذين يمتلكونهم في تدعيم قوتهم، ويستخدمونهم في حروبهم، لكن كانت أعدادهم محدودة إلى حد ما، إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحدثت فتنة خروج الخوارزمية من جيشه، فاضطر - رحمه الله - إلى الإكثار من المماليك، حتى يقوِّي جيشه ويعتمد عليهم، وبذلك تزايدت أعداد المماليك بشكل ملفت للنظر، وخاصة في مصر.

مستند تاريخي

(وفي أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل حضر الإفرنج، وملكوا دمياط وزحفوا إلى فارسكور، واستمر الملك الصالح يحاربهم أربعة عشر شهراً وهو مريض، وانحصر جهة الشرق، وأنشأ المدينة المعروفة بالمنصورة ومات بها سنة سبع وأربعين وستمائة، والحرب قائمة، وأخفت زوجته شجر الدر موته، ودبرت الأمور حتى حضر ابنه توران شاه من حصن كيفا، وانهزم الإفرنج وأسر ملكهم ريذا وكانوا طائفة الفرنسيين. والملك الصالح هذا هو أول من اشترى المماليك، واتخذ منهم جنداً كثيفاً، وبنى لهم قلعة الروضة، وأسكنهم بها، وسماهم البحرية، ومقدمهم الفارس أقطاي).

عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج ١، ص ٢٢، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٩٧٧ م.



مصادر المماليك: كان المصدر

الرئيس للمماليك؛ إما بالأسرفي الحروب، أو الشراء من أسواق النخاسة. ومن أكثر المناطق التي كان يجلب منها المماليك بلاد ما وراء النهر، وكانت الأعراق التي تعيش خلف هذا النهر أعراق تركية

في الأغلب، وكانت هذه المناطق مسرحاً دائماً للقتال وعدم الاستقرار، ولذلك كثر الأسرى القادمون من هذه المناطق، وكثرت أسواق الرقيق هناك، ومن أشهر مدن الرقيق في ذلك الوقت كانت "سمرقند" و"فرغانة" و"خوارزم" وغيرها؛ لذلك كان الأصل التركي هو الغالب على المماليك، وإن كان لا يمنع أن يكون هناك مماليك من أصول أرمنية، ومن أصول مغولية، كما كان هناك مماليك من أصول أوروبية، وكان هؤلاء الأوربيون يعرفون بالصقالبة، وكانوا يستقدمون من شرقي أوروبا بوجه خاص. المرجع السابق.



منمنمة لجنود مماليك

إن الأمر الذي استحدثه الملك الصالح أيوب -وتبعه بعد ذلك سلاطين دولة المماليك- أنه كان لا يأتي إلا بالمماليك الصغار في السن، أي في مرحلة الطفولة المبكرة، وكان أكثرهم من بلاد غير مسلمة، وإن كان يحدث أحياناً أن يؤسر بعض الأطفال المسلمين غير الناطقين بالعربية، فلا يعرفون، ولا يعرف أصلهم أو دينهم، فيعاملون معاملة الرقيق.

تربية المماليك^(١) : كان الملك الصالح أيوب -ومن تبعه من الأمراء- لا يتعاملون مع المماليك كرقيق؛ بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كانوا يقربونهم منهم؛ لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم؛ ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته، وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس، لا على القهر أو المادة، حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب "الأستاذ" وليس لقب "السيد".

ويشرح لنا **المقريزي** - رحمه الله - كيف كان يربي المملوك الصغير الذي يشتري، وهو ما زال في طفولته المبكرة، فيقول: "إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدفع إلى من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي، وآداب الشريعة الإسلامية، ويهتم جداً بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأ يمس الآداب الإسلامية نُبه إلى ذلك، ثم عوقب". لهذه التربية المتميزة كان أطفال المماليك ينشئون عادة وهم يعظمون أمر الدين الإسلامي جداً، وتتكون لديهم خلفية واسعة عن الفقه الإسلامي، وتظل مكانة العلم والعلماء عالية جداً عند المماليك طيلة حياتهم، وهذا ما يفسر النهضة العلمية الراقية التي حدثت في زمان المماليك، وكيف كانوا يقدرون العلماء حتى ولو خالفوهم في الرأي... ولذلك ظهر في زمان دولة المماليك الكثير من علماء المسلمين الأفاضل من أمثال **العزبن عبد السلام والنووي وابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن حجر العسقلاني وابن كثير والمقريزي وابن جماعة وابن قدامة المقدسي** رحمهم الله جميعاً، وظهر أيضاً أعداد هائلة من العلماء يصعب حصرهم.

ثم إذا وصل المملوك بعد ذلك إلى سن البلوغ جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال فيعلمونهم فنون الحرب والقتال وركوب الخيل والرمي بالسهام والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مستويات عالية جداً في المهارة القتالية، والقوة البدنية، والقدرة على تحمل المشاق والصعاب. ثم يتدربون بعد ذلك على أمور القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، وحل المشكلات العسكرية، والتصرف في الأمور الصعبة، فينشأ المملوك وهو متفوق تماماً في المجال العسكري والإداري، وذلك بالإضافة إلى حماية دينية كبيرة، وغيرة إسلامية واضحة.. وهذا كله - بلا شك - كان يثبت أقدام المماليك تماماً في أرض القتال.

١ - د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام على الشبكة العنكبوتية.

جدول سلاطين الدولة المملوكية أولاً: المماليك البحرية

م	السلطان	تاريخ الحكم
١	شجر الدر	٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م
٢	المعز عز الدين أيك	٦٤٨ - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م
٣	المنصور نور الدين علي بن أيك	٦٥٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٥٩ م
٤	المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م
٥	ركن الدين الظاهر بيبرس البندقداري	٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م
٦	السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بن بيبرس	٦٧٦ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٧ - ١٢٧٩ م
٧	العاذل بدر الدين سلامش بن بيبرس	٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م
٨	المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م
٩	الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م
١٠	الناصر ناصر الدين بن محمد بن قلاوون المرّة الأولى	٦٩٣ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م
١١	العاذل كتبغا	٦٩٤ - ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م
١٢	المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٩ م
١٣	الناصر ناصر الدين بن محمد بن قلاوون المرّة الثانية	٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٩ - ١٣٠٩ م
١٤	المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ - ١٣١٠ م
١٥	الناصر ناصر الدين بن محمد بن قلاوون المرّة الثالثة	٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣١٠ - ١٣٤٠ م
١٦	المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	٧٤١ - ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١ م
١٧	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م
١٨	الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	٧٤٢ - ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م
١٩	الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	٧٤٣ - ٧٤٦ هـ / ١٣٤٢ - ١٣٤٥ م
٢٠	الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	٧٤٦ - ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥ - ١٣٤٦ م
٢١	المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	٧٤٧ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٨ م
٢٢	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد المرّة الأولى	٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٨ - ١٣٥١ م
٢٣	الصالح صلاح الدين بن محمد بن الناصر محمد	٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤ م
٢٤	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد المرّة الثانية	٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦١ م
٢٥	المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	٧٦٢ - ٧٦٦ هـ / ١٣٦١ - ١٣٦٣ م
٢٦	الأشرف أبو المعالي شعبان بن حسين	٧٦٦ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٧ م
٢٧	المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين	٧٧٨ - ٧٨٣ هـ / ١٣٧٧ - ١٣٨١ م
٢٨	الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	٧٨٣ - ٧٨٤ هـ / ١٣٨١ - ١٣٨٢ م

معركة الريدانية وسقوط دولة المماليك	٩٢٣ هـ
معركة مرج دابق بين المماليك والعثمانيين	٩٢٢ هـ
هزيمة البرتغاليين للمماليك	٩١٥ هـ
هزيمة المغول بقيادة تيمورلنك للمماليك	٨٠٣ هـ
بداية عصر المماليك البرجية	٧٨٤ هـ
طرد الصليبيين من آخر معاقلهم ببلاد الشام	٦٩٠ هـ
هزيمة المماليك للمغول	٦٨٠ هـ
معركة البلستين (البستان)	٦٧٥ هـ
انتصار المماليك على المغول في عين جالوت	٦٥٨ هـ
قيام دولة المماليك (المماليك البحرية)	٦٤٨ هـ

قيام دولة المماليك^(١)

في عهد الدولة الطولونية اتخذ حكامها جنوداً من المماليك (الرقيق الأبيض) ، وسار على هذا النهج من بعدهم الأخشيديون والعبيديون.

وفي عهد الدولة الأيوبية استكثروا من شراء هؤلاء المماليك فاشترى منهم أعداداً كبيرة، وعنوا بتدريبهم وتنشأتهم ليكونوا عدة لهم وسنداً. وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجري (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) ازدياد نفوذ المماليك في شتى الإمارات والدول الإسلامية في الشرق الأدنى، ومن جملتها مصر.

وكان معظم جيش أسد الدين شيركوه الأيوبي، من المماليك والأمراء النورية والأسدية، وبعد وفاة شيركوه سار على خطاه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كوّن جيشاً من المماليك الأسدية وسماه (الصلاحية)، نسبة إليه، و(الناصرية) نسبة إلى لقبه، وهكذا توالى على هذا النهج من جاء بعده من السلاطين الأيوبيين، حتى أضحى بيد هؤلاء المماليك النفوذ القوي في تعيين السلاطين وعزلهم.

وكان السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل - بعد الله تعالى - في تكوين فرقة جديدة من المماليك قدر لها أن تنهض بدور خطير في التاريخ، هي **فرقة المماليك البحرية**. ويبدو أن الصالح نجم الدين أيوب أحس بفضل المماليك عليه في الوصول إلى سدة الحكم من ناحية، كما أحس بحاجة إلى قوة من المماليك ينتمي أفرادها إليه ويرتبطون بالولاء له، بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى، من ناحية أخرى^(١).

جزيرة الروضة : هي إحدى ثلاث جزر في نهر النيل بين القاهرة والجيزة، ترتبط في وقتنا المعاصر بالقاهرة بخمسة كباري، وبالجيزة بكوبريين.

وشارع الروضة هو الذي يربط كوبري الجيزة (عباس) غرباً بكوبري الملك الصالح شرقاً، ويقسم جزيرة الروضة إلى قسمين: الجزء الشمالي ويسمى "المنيل" (أو منيل الروضة). والجزء الجنوبي ويسمى "المماليك".

أما عن سبب تسمية هذه **الفرقة بالبحرية**، فمن المرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أيوب **جزيرة الروضة** في بحر النيل مركزاً لهم.



١ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٧٦ - ١٧٧.

وفي آخر حياة **الملك الصالح أيوب** هجمت **الحملة الصليبية السابعة** على مدينة دمياط، يقودها لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧هـ، فربط الصالح أيوب بالمنصورة، وهناك أصيب بمرض شديد تفاقم عليه حتى مات -رحمه الله- في ١٥ شعبان ٦٤٧هـ، وأخفت جاريته أم خليل الملقبة بـ **(شجر الدر)** خبر موته، وأظهرت أنه مريض ومنعت الناس عن زيارته، وظلت توقع على المناشير والمراسيم حتى جمعت قادة الجيش وأمراء الدولة، وأطلعتهم على الحقيقة، واتفقت معهم على الإرسال لولده الكبير الأمير **'توران شاه'** وكان بالشام وقتها، وكان جافياً لأبيه، وأبوه ينقم عليه كثيراً لسوء أفعاله، وكان غرضهم من استقدامه ضمان ولاء الجيش للبيت الأيوبي، ولعدم اختلاف الأمراء فيما بينهم، وبالفعل جاء توران شاه مسرعاً، وقاد الجيوش المصرية، وحقق انتصاراً هائلاً على الصليبيين، وقتل منهم ثلاثين ألفاً، وأسر ملكهم لويس التاسع، وتم فداء الأسرى بمبلغ عشرة ملايين فرنك.

مقتل توران شاه^(١) :

لما حقق توران شاه انتصاره الباهر على الصليبيين، استدار على زوجة أبيه وباقي قادة الجيش وكانوا جميعاً من المماليك البحرية؛ الذين قد أكثر من شرائهم الصالح أيوب، وترقوا في المناصب حتى صاروا من قادة الجيش، وكان توران شاه ينقم على أبيه هذه السياسة، ولعله هجره إلى الشام بسبب ذلك، وكان يكره هؤلاء بشدة، وخطط للتخلص منهم، وبدأ بإساءة معاملتهم خاصة كبار قادتهم، وشد في محاسبة شجر الدر عن أموال أبيه وذخائره، وهذه الأمور جعلت شجر الدر تتآمر مع قادة المماليك على قتل توران شاه قبل أن يقتلهم هو، وبالفعل هجموا عليه في قصره في ليلة ٢٨ محرم سنة ٦٤٨هـ، واعتوروه بسيفهم وتفرق دمه بينهم، ثم تنادوا فيما بينهم الأمير **عز الدين أيبك** **التركماني**، وتلقب بالملك المعز، وكان ذلك بداية دولة المماليك ونهاية دولة الأيوبيين.



الأعمدة الحجرية التي تحيط بصحن مسجد السلطان الأيوبي (توران شاه) من الداخل وتتميز بالنقش البدع.



مسجد السلطان الأيوبي (توران شاه) بحي عابدين بالقاهرة

الملكة شجر الدر (أم خليل)

(٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) ثمانون يوماً)

بمقتل توران شاه سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م، انقرضت دولة بني أيوب من أرض مصر، بعد أن حكموها نحواً من إحدى وثمانين سنة. فأصبحت السلطة في مصر والشام بعد ذلك في أيدي المماليك، فاجتمع رأيهم على تنصيب زوجة أستاذهم سلطنة على البلاد، وهي من حيث الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك؛ كما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور؛ ولذا اعتبرها المقريري أولى سلاطين المماليك في مصر، وقال: إنها "أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك".

وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على أن شجر الدر كانت « خيرة، دينة، رئيسة، عظيمة في النفوس ». بل لقد وصفها بعضهم بأنها: « كانت أحسن تدبيراً من زوجها الصالح نجم الدين أيوب ». ولكن قيام امرأة في حكم المسلمين - كان غاية في صعوبة القبول به - وقد أحست شجر الدر نفسها بالحرَج، فكانت لا توقع باسمها على المناشير، وإنما جعل توقيعها (والدة خليل). و خليل هذا ولد كانت قد أنجبته من الصالح أيوب، وتوفي في حياة أبيه. ونقش اسمها على السكة (النقود) في صيغة « المستعصمية الصالحة، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل ». أما الخطباء في المساجد فكانوا يقولون في الدعاء لها: (واحفظ اللهم الجهة الصالحة، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية، صاحبة الملك الصالح)^(١).

ولكن هذه المحاولات لم تفلح في صرف الناس عن كونها امرأة، وبدأت الأحوال تضطرب، وخاصة في بلاد الشام، وخرج أمراء الشام عن طاعتها، وتوجه بعضهم للهجوم على مصر، وطمع بقايا الأيوبيين في حكم مصر، ورأوا أنهم أحق وأولى، ووصل الملك السعيد حسن الأيوبي إلى غزة، وانقسمت الدولة، فأصبحت بلاد الشام في أيدي الأيوبيين، ومصر في أيدي شجر الدر والمماليك.

ولم يقبل الخليفة العباسي المستعصم هذا الوضع الجديد، برغم تمسح (شجر الدر) به، وتلقبها بالمستعصمية، وكتب إلى أمراء مصر: "إن كان الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجالاً! وظهرت المعارضة في صفوف المماليك أنفسهم، فقد انطلقت الألسنة باتهام (شجر الدر) بالتهاون في قتال الصليبيين، والتساهل في إطلاق ملكهم وأسراهم.

ولم تجد (شجر الدر) وسيلة للخروج من هذا المأزق سوى التنازل عن السلطنة لأحد أمراء المماليك، وأن تحتفظ بنفوذها الفعلي بالتزوج منه، ومشاركته في الحكم، فقبلت الزواج من وزيرها وأتابك العسكر عز الدين أيبك التركماني في سنة ٦٤٨ هـ بعد ثمانين يوماً من حكمها، ومنذ ذلك الحين يبدأ التاريخ الفعلي لدولة المماليك البحرية^(٢).

١ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٨٢ - ١٨٣.

٢ - د. محمد عبد الحميد الرفاعي، حكم السلطنة شجرة الدر. موقع الألوكة.



عملة شجر الدر (أم خليل)

الوجه مكتوب عليه (والدة الملك المنصور) .. أما الظهر (الإمام المستعصم - ضرب القاهرة) ..

منتدى العملات والطوابع العربي

إن أول ما قامت به (شجر الدر) بعد تسلمها السلطة أن صفت الموقف مع الصليبيين، ففاوضت لويس التاسع ملك فرنسا، وقائد الحملة الفاشلة، واتفقت معه على رحيله من مصر وتسليم دمياط، وذلك في يوم الأحد الرابع من صفر ٦٤٨ هـ الثامن من مايو ١٢٥٠ م، ونص هذا الاتفاق على الآتي:

(أن ينسحب لويس من دمياط ويردها إلى المصريين، وأن يطلق جميع أسرى المسلمين، وأن يتعهد ألا يعود لمهاجمة سواحل بلاد الإسلام مرة أخرى، كما يدفع لها ثمانمائة ألف دينار فدية لنفسه وللأسرى الصليبيين، وعوضاً عما أتلّفه في دمياط، ومقابل ذلك يتعهد المسلمون برعاية الجرحى من أسرى الصليبيين، وقيل أيضاً مقابل أن يحافظوا على بعض معدات الصليبيين التي سيضطرون لإبقائها بمصر إلى أن يتمكنوا من نقلها، وجعلت مدة الاتفاقية عشر سنوات).

وبرغم كل ذلك فقد اضطربت الأمور في مصر عامة والقاهرة خاصة، وذلك احتجاجاً وأنفة من حكم امرأة، وعمت الفوضى القاهرة، مما اضطر (شجر الدر) إلى الأمر بإغلاق أبوابها منعاً لانتشار خبر هذه الاضطرابات. وزاد من خطورة هذا الوضع انضمام علماء المسلمين إلى العامة في هذه المعارضة، وعلى رأسهم الشيخ عز الدين عبد السلام، الذي كتب كتاباً حول ما قد يبتلئ به المسلمون بولاية امرأة. كما لم يوافق الخليفة العباسي على توليها السلطة، وعيّر أهل مصر بذلك قائلاً في رده على رسالة من المماليك يطلبون فيه تأييده لحكمها: "إن كانت الرجال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجلاً". وهدأت الأمور بتولي الأتابك عز الدين أيبك السلطة - كما أسلفنا -.

السلطان عز الدين أيبك

٦٤٨ - ٦٥٥ هـ

رأى المماليك البحرية الصالحية المؤيدين لـ (شجر الدر) أنه لابد لهم من حل لهذا الموقف العصيب، وقالوا: "لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة، ولابد من إقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه".

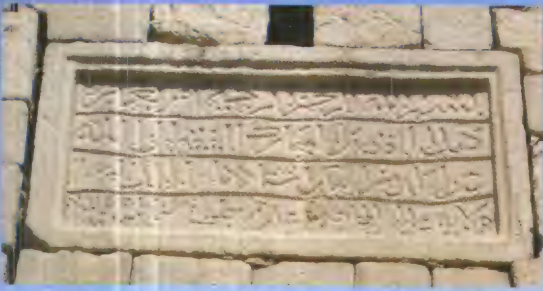
وزاد من اقتناعهم بهذا الرأي، خوفهم من خطر الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب، الذي استغل هذا الموضوع لصالحه، ورأى فيه فرصة سانحة للاستيلاء على مصر، فقام بالاستيلاء على دمشق وبعض نواحي الشام، مما أخاف المماليك فسارعوا إلى تزويجها من الأتابك عز الدين أيبك التركماني أتابك العسكر، وتنازلت له (شجر الدر) عن السلطة بعد ثمانين يوماً من حكمها. فأصبح عز الدين أيبك سلطاناً - ولو بالاسم - حيث إن (شجر الدر) كانت هي المسئولة عنه في كل أحواله ليس له معها كلام.

ولقد وقع اختيار المماليك لأيبك لهذا المنصب لاعتقادهم بضعفه مقارنة بأقطاي وبيبرس، وأنه سيكون من السهل عليهم عزله متى ما شاءوا. وقد خاب ظنهم فيه، حيث أثبت أيبك أنه ليس بالحاكم الألعية، فمُنذ بداية عهده بادر إلى اغتيال أكبر منافسيه وهو خوشداشة أقطاي الجمدار عام ٦٥٢ هـ (١٢٥٤م) وساعده في ذلك كل من قطز وبهادر وسنجر وعدد من المماليك المعزية، واضطر خشداشية أقطاي من المماليك إلى الفرار، ومنهم بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي، حيث لم يستطيعوا مغادرة القاهرة التي كانت موصدة الأبواب، إلا بحرق إحدى الأبواب التي ظلت تسمى بالباب المحروق، وتابعوا هربهم نحو الشام وتفرقوا ما بين دمشق وحلب والكرك ودولة السلاجقة الروم^(١).

وعند ذلك قام أيبك بمصادرة أموال المماليك الفارين، وتجريد من بقي منهم في مصر من سلطاتهم، ولم يفلح الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق والمنافس السابق لـ (شجر الدر) في مساعدتهم، فاضطروا للتوجه إلى المغيث عمر في الكرك. ولإبطال حجة الملوك الأيوبيين في الشام، ومطالبتهم بعرض مصر، قام أيبك بتولية الطفل الأشرف (موسى الأيوبي) السلطنة وهو في السادسة من عمره، وجعله شريكاً له في الحكم، فخطب باسمهما على المنابر وسكت العملة باسمهما.

ولما لم تتطّل حيلته هذه على الناس، التجأ أيبك إلى الاستعانة بالخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد، ونصب نفسه نائباً له على مصر، ثم أخذ في الاستعداد للتصدي للملك الناصر يوسف، الذي كان قد كاتب الملك لويس التاسع في عكا، عارضاً عليه التعاون ضد أيبك مقابل تسليمه القدس للصليبيين - وكانت تحت حكم الأيوبيين -. ولما علم أيبك بهذه المفاوضات أرسل إلى لويس التاسع مهدداً بقتل أسرى الصليبيين الذين لديه، وواعداً إياه إن رفض عرض الناصر أن يقوم بتعديل اتفاقية دمياط لإعفائه من نصف الفدية المتفق عليها، وطلب منه بدوره أن ينضم إلى جانبه، فرد عليه لويس بأنه قرر الوقوف على الحياد بينه وبين الناصر.

١- د. شفيق جاسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة، ص ٣٥.



النقش الكتابي الذي يؤرخ بإعادة بناء القلعة على يد عز الدين أيبك



قلعة الأزرق هي إحدى القلاع التاريخية الموجودة في المملكة الأردنية الهاشمية. تقع في وسط واحة الأزرق على بعد مئة كيلو متر شرقي مدينة عمان - العاصمة الأردنية - وقد شُيّدت القلعة أساساً لتكون حصناً للنبطيين أو الرومان، ثم أعاد المماليك بناءها من جديد في القرن ١٢ م.



مؤلف ومصمم الأطلس أمام الجامع وسط ساحة القلعة

بقيت قلعة الأزرق مأهولة وعامرة بالسكان إبان الفتح الإسلامي لها، وتدل على ذلك الكتابات العربية المنقوشة فوق عتبة الباب الرئيس للقلعة. وتشير الكتابة أيضاً إلى أن القائد المسلم عز الدين أيبك (رحمه الله) أعاد بناءها، وقام ببناء جامع كبير في وسط باحة القلعة خلال مدة الحروب الصليبية وفي أثناء مدة حكمه التي امتدت من عام (١٢١٣ - ١٢٣٨ م).

وتقدم الملك الناصر حتى العباسية بين مدينتي بلبيس والصالحية ٦٤٩ هـ - ١٢٥١ م فهزمه أيبك بسبب انحياز مماليكه العزيزية إلى المماليك، ولاحقه حتى الشام، واتفق أيبك مع لويس التاسع على أن يساعده ضد الناصر يوسف مقابل تسليمه القدس، ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ، حيث تدخل الخليفة العباسي بين الناصر وأيبك ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) لمنع تسليم القدس للصليبيين، حيث أرسل رسوله الشيخ نجم الدين البادورائي، فأصلح بين صاحب مصر وصاحب الشام، وأيضاً لإحساسه - أي الخليفة - ببداية الخطر المغولي الذي داهم الخلافة من الشرق. واتفق على أن تكون مصر وجنوبي فلسطين بما فيها غزة والقدس للمماليك.

ثم دب الخلاف بين أيبك وزوجته (شجر الدر)، بسبب تسلطها وشدة غيرتها عليه، فحاول أن يتزوج من ابنة بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل، نكاية بها، خصوصاً وقد شعر بتآمرها مع أنصارها من المماليك البحرية عليه وعلى مماليكه المعزية.

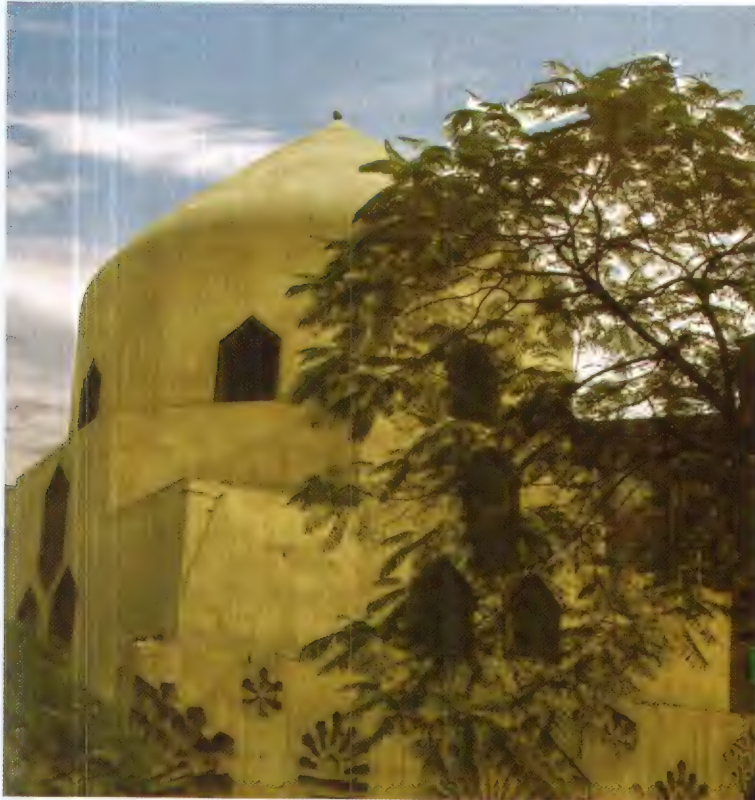
وعندما علمت (شجر الدر) بخطة هذا الزواج، ازدادت معارضتها وتآمرها مع المماليك البحرية وضوحاً وتحدياً، مما دفعه لسجن من بقي من هؤلاء المماليك في القاهرة، متحدياً بذلك (شجر الدر)، مما جعلها تقرر قتله، وتتصل سراً بالملك الناصر في دمشق تعرض عليه التعاون معها في ذلك، وأن يتزوجها ويشركها معه في السلطة مقابل تسليمه مصر، ولكن الناصر لم يتحمس لهذا العرض ظاناً أنه خدعة منها. وعلم بدر الدين لؤلؤ بأخبار هذا الاتصال بين (شجر الدر) والناصر يوسف، فقام بإعلام أيبك به، فاحتاط لنفسه من غدر (شجر الدر)، وقرر في طويته قتلها، ولم تلبث (شجر الدر) أن سبقته في تنفيذ عزمها؛ بأن تحايلت عليه، فاستدعته إلى القلعة - بعد أن كان هجرها إلى مناظر اللوق - ودست إليه خمسة من غلمانها فقتلوه في الحمام، وذلك في ٢٣ ربيع الأول ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م).

استيلاء المظفر قطز على السلطنة:

عندما علم المماليك المعزية بوفاة سيدهم في القلعة، حامت شكوكهم حول زوجته (شجر الدر)، لما كانوا يعلمونه من خصام بينها وبينه، فصعدوا إلى القلعة ليحققوا في سبب وفاته، فعلموا بالحقيقة، لذلك حاولوا قتلها، وكادوا ينجحون في ذلك لولا تدخل بعض المماليك الصالحية، الذين نقلوها على عجل إلى البرج الأحمر في القلعة حماية لها، أما المماليك المعزية: فقاموا بتعيين الطفل نور الدين علي ابن معز الدين أيبك مكان أبيه باسم الملك المنصور، وكان عمره خمس عشرة سنة، وعينوا قطز أتابكاً له، وذلك برغم معارضة المماليك الصالحية، وبرغم تعيين الأمير علم الدين سنجر الحلبي نفسه نائباً للسلطنة، فقد رفض المعزية تأييد سنجر وقاموا باعتقاله وولوا قطز هذا المنصب، وقيل: إن (شجر الدر) فور قتلها للسلطان معز الدين أيبك قد عرضت السلطنة على عدد من الأمراء، ولكنهم رفضوها خوفاً من المماليك المعزية.

وكان أول عمل قام به السلطان علي وأتابكه قطز، هو الأمر بقتل السلطانة السابقة (شجر الدر)، وذلك بتحريض من والدته، بعد أن ضعف شأن حماتها من المماليك الصالحية، فأمر بحملها إلى أمه حيث أمرت بقتلها، بأن أمرت جواريتها "فضربت **الجواري** بالقباقيب إلى أن ماتت، وألقوها عن سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها سوى سراويل وقميص. فبقيت في الخندق أياماً، ثم دفنت بعد أيام وقد نتنت، فحملت في قفة إلى تربتها قريب المشهد النفيسي".

مات عز الدين أيبك و(شجر الدر) بعد أن أسسا دولة المماليك. تلك الدولة التي سيطرت على جنوب وشرقي حوض البحر المتوسط لبضعة عقود من الزمان، قضت خلالها على القوى المغولية والصليبية التي تآزرت ضد المسلمين، وحاولت اقتلاع العالم الإسلامي من جذوره. وبعد مقتل أيبك تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم المدعو "نور الدين علي" بن أيبك، وكان في الخامسة عشر من عمره. وعينوه سلطاناً عليهم.



أنشأت هذا الضريح شجر الدر زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) لنفسها، لكي تدفن فيه بعد وفاتها.

والضريح مربع المساحة يبلغ طول ضلعه ٧ أمتار تقريباً من الداخل. يتوسط كل ضلع من أضلاع الضريح الأربعة حنية مستطيلة من الجص عرضها ٢٠٥ سم. وفي الجناح الجنوبي الشرقي يوجد محراب كبير يعلوه عقد نصف دائري.







الزحف المغولي نحو الخلافة العباسية

استأنف المغول زحفهم باتجاه مناطق غربي آسيا، بعد وفاة جنكيزخان في عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، ضمن سياسة توسعية. فقد عهد **منكوخان**، الذي تسلم الزعامة في عام ٦٤٦هـ/١٢٢٨م إلى أخيه **هولاكو** بقيادة حملة على فارس، وأوصاه بأن يبسط السيطرة المغولية على البلاد الممتدة من العراق حتى أقاصي مصر. وحدد له إطار العلاقة مع الخليفة العباسي، بحيث إذا قدم فروض الولاء والطاعة فلا يتعرض له. أما إذا عصى، فعليه أن يتخلص منه حتى لا يشكل عقبة في طريق الزحف المغولي^(١).

ومن جهته، وضع هولاكو خطة عسكرية تقضي أولاً بالقضاء على **الإسماعيلية**، ثم غزو المناطق الغربية وصولاً إلى **مصر** في مرحلة ثانية. وبعد أن حقق هدفه الأول انطلق لتحقيق هدفه الثاني.

ووفقاً للخطة التي وضعها منكو، كان على هولاكو أن يهاجم الحشيشية (الإسماعيلية النزارية) في معاقلهم البالغة نحو **خمسين قلعة** منتشرة في قومس وقهستان، أشهرها كردكوه وميمون دز و**الموت** التي اتخذوها عاصمة لهم وقاعدة للمكهم بفعل مناعتها، وكان القائد المغولي كتبغا قد استولى على بعضها، وعندما تقدمت القوات المغولية نحو القلاع انتاب **ركن الدين خور شاه زعيم الحشاشين** الفرع، وأبدى استعداداً للخضوع للمغول، وطلب منه هولاكو أن يدمر قلاعه كافة، فرفض ذلك، عندئذ قرر هذا الأخير مهاجمته، وعندما استولى المغول على معظم القلاع ولم يتبق إلا ميمون دز و**الموت** وكردكوه؛ عندها استجاب ركن الدين خور شاه لمطالب المغول وسلّم قلعة ميمون بنفسه لهولاكو^(٢).

توجه هولاكو بعد ذلك إلى قلعة الموت الحصينة وحاصرها، وطلب من ركن الدين خور شاه إقناع المحاصرين بالاستسلام، لكن قائدها رفض ذلك ثم استسلم بعد ثلاثة أيام من حصارها. ودخل المغول إلى القلعة، وحطموا ما فيها من الأسلحة والعتاد واستولوا على الكنوز والأموال، **وكان لاندحار الحشاشين صدى إيجابي في العالم الإسلامي** على الرغم مما كان يعانيه المسلمون على أيدي المغول، وما يتوقعونه منهم في المستقبل. ولعل مرد ذلك يعود إلى أن هذه الطائفة:

- قاومت في القرن السادس الهجري جهود السلاجقة في القضاء عليها^(٣).

- أرهبت الخلافة العباسية وأفزعت رجالها.

- كانت سبباً من أسباب الفساد المعنوي والتفريق في العالم الإسلامي.

فإذا كان هولاكو قد قضى على وجودها في خراسان وإيران، فإنه يكون بذلك قد أدى خدمة كبيرة لقضية النظام والحضارة، وصفه المؤرخ الجويني: بأن هذا العمل مرهماً لجراح المسلمين وتداركاً للدين من الخلل.

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، ص ٢٥١.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإلخانيين، ص ١٢٧.

٣ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإلخانيين، ص ١٢٨ - ١٢٩.



الزحف المغولي نحو القلاع الإسماعيلية في إيران سنة ٦٥٠ - ٦٥٤ هـ

الدولة الغورية	السيطرة المغولية على الدولة الخوارزمية	الخلافة العباسية في بغداد
بقايا الاحتلال الصليبي	الإمبراطورية البيزنطية	دولة الأشراف (الحسنيون) في مكة المكرمة
الإسماعيليون (الحشاشون) في إيران	مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى	
الأيوبيون آل عصفور العقيليون	سلطنة المماليك	

سقوط بغداد ونهاية الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م

كانت الأوضاع في العراق سيئة جداً. كما تعددت مراكز القوى آنذاك، واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية. واشتدت الخلافات بين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، وكان سني المذهب، وبين مؤيد الدين أبي طالب محمد بن أحمد بن العلقمي، وزير المستعصم، وكان شيعياً. مما كان لها أثرها السيئ في اضطراب الأمور وتقويض سلطة الخلافة^(١).

وتعددت خلافات أهل الحكم لتنتقل إلى العامة من سكان بغداد الذين انقسموا على أنفسهم في تناحر مذهبي، مما دفع الوزير ابن العلقمي إلى مراسلة المغول وأطمعهم في ملك بغداد.

في هذه الظروف الحرجة، طلب هولاكو من الخليفة أن يمدّه بجيش ليعاونه في القضاء على الطائفة الإسماعيلية. شاور المستعصم معاونيه، فتصحّوه بعدم الإقدام على هذا العمل، لأن هولاكو يريد بهذه الوسيلة إفراغ بغداد من المدافعين عنها حتى يسهل عليه الاستيلاء عليها عندما يهاجمها. فوافقهم على رأيهم، وامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو.

لما فرغ الزعيم المغولي من القضاء على الإسماعيلية، أرسل إلى الخليفة رسالة عتاب تتضمن تهديداً ووَعيداً لامتناعه عن تنفيذ مطالبه، وطلب منه أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه، وأن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه الدواتدار. والواقع أن هذا الاحتجاج لم يكن إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمراء البويهيين ثم للسلطين السلاجقة، وطلب منه^(٢):

- أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه.









- أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدواتدار.

ردّ الخليفة بالرفض الذي اتسم بالتهديد والوعيد، ظناً منه، أن ذلك سوف يثني هولاكو عن عزمه، ويجعله يفكر ملياً قبل أن يقدم على خطوته. ويبدو أن الخليفة العباسي أمل في تلقي المساعدة من الأمراء المسلمين إلا أنه أخطأ في تقديره. إذ إن الأيوبيين في بلاد الشام والمماليك في مصر، الذين عقد آماله عليهم، توافر عندهم من المشكلات ما منعهم من النهوض لمساعدته. ولم يتحرك الأتابكة والترك والفرس لمساندته بفعل ما استبد بهم من الخوف من المغول. أمّا سلاجقة الروم فقد خضعوا لحكم هؤلاء.

وهكذا بدا العالم الإسلامي مُفكّكاً، فلا يعقل أن يهب أمراؤه لنجدة الخليفة الذي لم يكن له سند حقيقي، حتى يستطيع أن يقف هذا الموقف المتشدد. فكان لهذا الموقف العباسي الراض أسوأ الأثر في نفس هولاكو، مما دفعه إلى الزحف باتجاه بغداد. لما اشتدّ حصار المغول على العراق، انقسم الرأي بين المداينة



الزحف المغولي نحو بغداد وإسقاط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م

الدولة الغورية		السيطرة المغولية على الدولة الخوارزمية		الخلافة العباسية في بغداد
بقايا الاحتلال الصليبي		الإمبراطورية البيزنطية		
سقوط بغداد		مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى		دولة الأشراف (الحسنيون) في مكة المكرمة
الرسوليون		سلطنة المماليك		

والتصدي للعدوان . فقد نصح **وزير الخليفة ابن العلقمي** أن يبذل الأموال والتحف والهدايا، ويرسلها إلى هولاكو مع الاعتذار إليه، وأن يجعل الخطبة والسكة باسمه، على النحو الذي كان مُتَّبَعاً أيام البويهيين والسلاجقة. أمّا مجاهد الدين أبيك الدواتدار الصغير، الذي كان يستند على قوة الجيش، ومساندة العناصر السُّنِّيَّة في بغداد، رفض رأي الوزير، وأَصَرَ على المقاومة. فعُدل الخليفة عند ذلك عن رأي الوزير وتبنى خيار المقاومة ^(١).

ولما أيقن **هولاكو** (انظر صورته في الصفحة المقابلة) أن في استطاعته السير إلى **العراق** دون أن يتعرض للمصاعب، وأن في مقدور قواته الاستيلاء على بغداد، أخذ في تنفيذ خططه الحربية التي وضعها في أثناء إقامته في **همدان**، وأصدر أوامره بأن تتحرك الجيوش المغولية باتجاه عاصمة الخلافة. ولما وصلت إليها في الثالث عشر من شهر محرم عام ٦٥٦ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢٥٨ م، ضربت حصاراً مُرَكَّزاً عليها، وأقام هولاكو معسكره في ظاهر المدينة من ناحية الشرق.

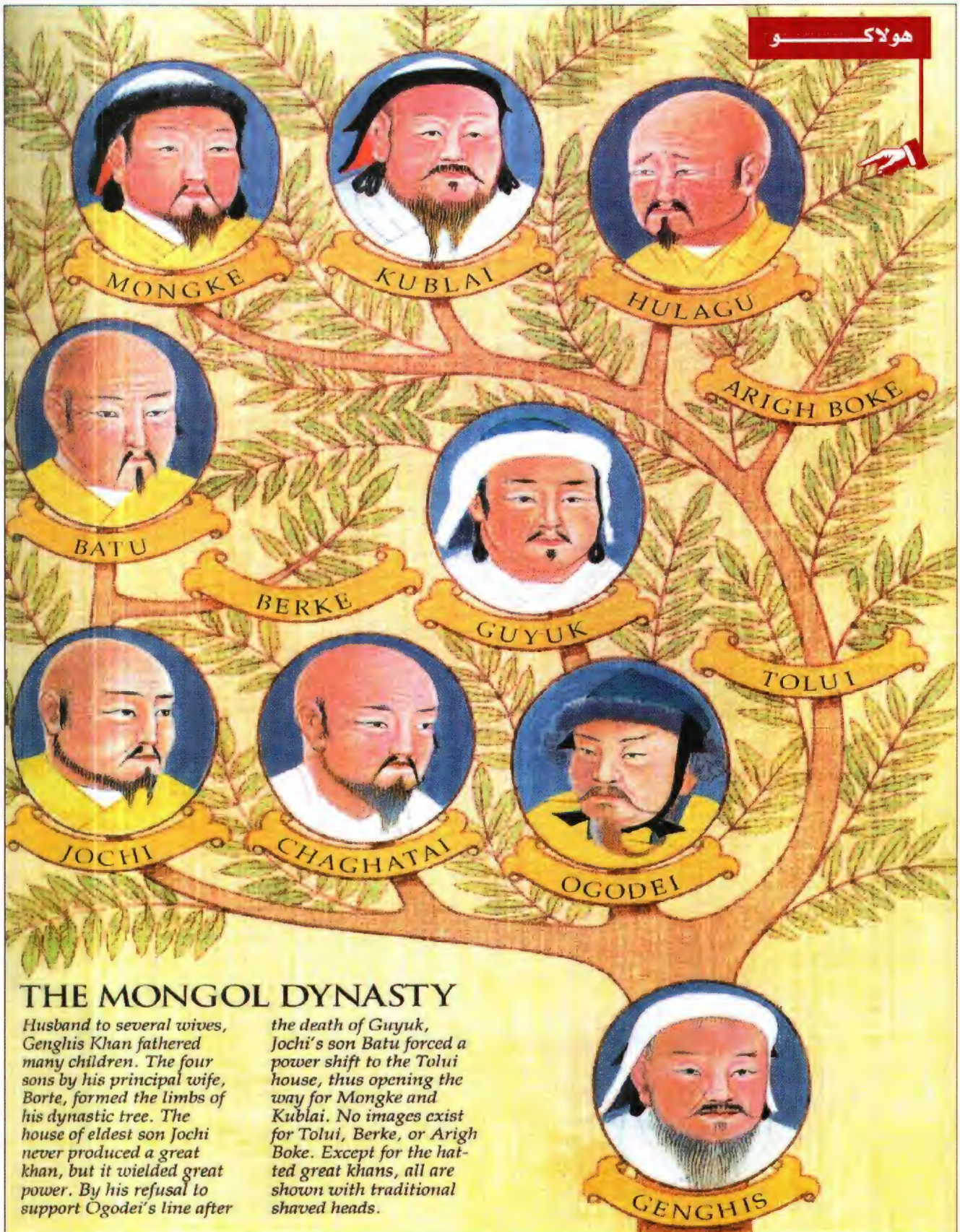
ولما رأى **الخليفة** حرج موقفه أراد أن يُهْدِي المغول ويثنيهم عن عزمهم على متابعة الهجوم، فَأَرْسَلَ إلى هولاكو الرسل والهدايا، لكن هولاكو رفض الاستجابة لهذا النداء. ونفذ خطة عسكرية، تقضي بإفراغ بغداد من مدافعيها قبل أن يقتحمها جنوده. فَأَرْسَلَ **نصير الدين الطوسي** إلى الخليفة يَأْمُرُهُ بِإِرْسَال سليمان شاه والدواتدار. فَاضْطَرَّ الخليفة إلى الاستجابة. ولما وصلا إليه، أعادهما إلى بغداد لاصطحاب أتباعهما وأصحابهما بحجة أنهم سينفون إلى الشام ومصر. فخرج معهما جند بغداد وكثير من السكان. فلما خرج هذا الجمع، أمر هولاكو بقتلهم جَمِيعاً؛ فانكشف عندئذ موقف الخليفة. ولما رأى ألا مفر من دخول المغول بغداد مال إلى التسليم.

ولم يمض على ذلك يومان حتى خدعه المغول بالوعد الكاذبة. وقد اشترك **ابن العلقمي**، في هذه المؤامرة حين أقنع الخليفة بوجوب الاستسلام، لأنه مهد طريق الصلح، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين ^(٢).

وقد ذكر المؤرخ ابن كثير: أن الوزير ابن العلقمي كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه، ثم أشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة.

وفي يوم الأحد (**الرابع من شهر صفر عام ٦٥٦ هـ / شهر شباط عام ١٢٥٨ م**) خرج الخليفة من بغداد وسلم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط، بعد أن وعده هولاكو الأمن والأمان.

هولاكو





منمنمة تبين كيفية القتل والتنكيل بالمسلمين من قبل الجيش المغولي الذي استباح بغداد عاصمة الخلافة

دخل **الجنود المغول** بكل وحشية وقسوة إلى عاصمة الخلافة العباسية « **بغداد** »، وعاثوا فيها فساداً مدة **أَرْبَعِينَ يَوْماً**، هدموا المساجد التي يرفع فيها ذكر الله تعالى، وجردوا القصور الجميلة مما فيها من التحف النادرة، وأتلفوا عدداً كثيراً من الكتب القيمة في مكتباتها التي أفرزتها العقول النيرة، حتى إنهم ملؤوا نهر دجلة بالكتب وجعلوها جسوراً لخيولهم، فتحوّلت مياه النهر الأزرق الصافي إلى اللون الأسود من اختلاطها بالمداد، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها، وقتلوا أئمة المساجد، وحملة القرآن، وطلبة العلم. وتعطلت المدارس ومناحي الحياة. وأضحت المدينة خاوية على عروشها. فتكدست الجثث في الطرقات والأزقة. ثم انتشر الوباء فحصد كثيراً ممن كتبت لهم النجاة من هذا البطش الهمجى.

وقد انتهت هذه الأحداث المؤسفة بفاجعة مؤلمة وحادثه أليمة، وهي **قتل الخليفة المستعصم وأبنيه** أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته (فاطمة وخديجة ومريم). وبسقوط بغداد ومقتل الخليفة العباسي المستعصم **انتهت دولة الخلافة العباسية** التي عمّرت أكثر من خمسة قرون.

السلطان سيف الدين قطز

٦٥٧ - ٦٥٨ هـ

من هو قطز؟

سيف الدين قطز هو واحد من أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين.. اسمه محمود بن ممدود، وهو من بيت مسلم ملكي. فهو ابن أخت جلال الدين الخوارزمي (ملك الخوارزميين المشهور)، الذي قاوم المغول مدة وانتصر عليهم ثم هُزمَ منهم، وفرَّ إلى الهند، وعند فراره إلى الهند؛ أمسك المغول بأسرته فقتلوا بعضهم واسترقُّوا بعضهم.

وكان محمود بن ممدود أحد أولئك الذين استرقَّهم المغول، وأطلقوا عليه اسماً مغولياً هو قطز، وهي كلمة تعني الكلب الشرس، ويبدو أنه كانت تبدو عليه من صفه علامات القوة والبأس، ثم باعه المغول في أسواق الرقيق في دمشق واشتراه أحد الأيوبيين، وجاء به إلى مصر، ثم انتقل من سيد إلى غيره، حتى وصل في النهاية إلى الملك المعز عز الدين أيبك، ليصبح أكبر قائده كما رأينا.

وقطر - رحمه الله - كبقية المماليك نشأ على التربية الدينية، والحمية الإسلامية، وتدريب منذ صغره على فنون الفروسية وأساليب القتال، وأنواع الإدارة، وطرق القيادة. فنشأ شاباً قتيلاً أليفاً محباً للدين، معظماً له، قوياً جلدأ صبوراً. فإذا أضفت إلى ذلك كونه ولد في بيت ملكي، وكانت طفولته طفولة الأمراء وهذا ما أعطاه ثقة كبيرة بنفسه؛ إضافة إلى أن أسرته هلكت تحت أقدام المغول، وهذا - بلا شك - جعله يفقه جيداً مأساة المغول.

م . قصة الإسلام.

أحدث موت أيبك و(شجر الدر) فراغاً ضخماً في صفوف المماليك، حتى استقر رأيهم على اختيار **علي ابن أيبك**، فأعلن سلطاناً عقب مقتل أبيه وقبل مقتل (شجر الدر) سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م، وقد لقب السلطان الجديد بالمنصور، وكان في الخامسة عشر من عمره، فأقيم الأمير سيف الدين قطز؛ أتاكاً له، ونائباً للسلطنة (وصار مدبر الدولة).

وكان أول خطر واجهه قطز هو محاولة المغيث عمر الأيوبي - صاحب الكرك - الاستيلاء على مصر في عامي ٦٥٥-٦٥٦ هـ (١٢٥٧-١٢٥٨ م) بمعاونة المماليك البحرية الفارين من مصر. ولكن قطز قضى على هاتين المحاولتين، ثم قام بعزل السلطان علي ابن معز الدين أيبك، الذي كان هذا السلطان الطفل مهتماً بمناقرة الديوك، ومناطحة الكباش، وتربية الحمام، وركوب الحمير في القلعة، ومعاشرة الأراذل والسوقة، تاركاً لأمه ومن وراءها تسيير أمور الدولة في تلك الأوقات العصيبة، وقد استمر هذا الوضع الشاذ قرابة ثلاث سنوات، على الرغم من تعاظم الأخطار وسقوط بغداد بيد المغول، وكان من أشد المتأثرين بذلك والمدركين لهذه الأخطار الأمير قطز، الذي كان يحزّ في نفسه ما كان يراه من رعونة الملك، وتحكم النسوان في مقدرات البلاد، واستبداد الأمراء، وإيثارهم مصالحهم الخاصة على مصلحة البلاد والعباد. ولاسيما أن قطز استغل ما أصاب المصريين من ارتباك إثر سماعهم ما حل ببغداد، ونوايا المغول تجاههم، ووصولهم إلى حلب. وتم له ذلك في عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٨ م)، حيث عزله ونفاه مع أمه وإخوانه.

وبدأ السلطان قطز في إعداد مصر للتصدي للخطر المغولي.

توحيد الصف لمواجهة المغول:

رأى السلطان **قطز** أطماع المماليك في الحكم، فقام بتوحيدهم خلف هدف واحد، وهو وقف زحف المغول ومواجهته، فقام بجمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر، وقال لهم في وضوح:

"إني ما قصدت (أي ما قصدت من السيطرة على الحكم) إلا أن نجتمع على قتال المغول، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم". فهدأ معظم الحضور ورضوا بذلك. كما قام قطز بتعيين أمراء من **المماليك البحرية**، برغم أنه نفسه من المماليك المعزية التي كانت على خلاف مع المماليك البحرية، فقام بإقرار فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي مكانه كقائد للجيش، حيث وجد فيه كفاءة عسكرية وقدرة قيادية عالية.

وكانت العلاقات مع إمارات الشام الأيوبية متوترة جداً، وقد فكروا أكثر من مرة في غزو مصر، ونقضوا الحلف الذي كان بين مصر والشام أيام الصالح أيوب، واستقطبوا المماليك البحرية عندهم عندما فروا من مصر، بل إن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من المغول بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر.

سعى قطز إلى الوحدة مع الشام، أو على الأقل تحييد أمراء الشام، فيخلوا بينه وبين المغول دون أن يتعاونوا مع المغول ضده. فأرسل قطز رسالة إلى الناصر يوسف الأيوبي يعرض عليه الوحدة، على أن يكون الناصر يوسف الأيوبي هو ملك مصر والشام، فإن تشكك الملك الناصر الأيوبي في نية قطز فيستطيع قطز أن يمدّه بالقوات للمساعدة في قتال المغول، كما ترك قطز للملك الناصر اختيار قائد الجيش المصري الذي يذهب لنجدته في الشام، ولكن الناصر الأيوبي رفض ذلك، فسقطت كل من حلب ودمشق في يد المغول وفر الملك الناصر الأيوبي إلى فلسطين. بعد فرار الناصر الأيوبي وجيشه انضم إلى قطز فازدادت بذلك قوة الجيش المصري.

راسل قطز بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير "المنصور" صاحب حماة، وجاء من حماة ومعه بعض جيشه للالتحاق بجيش قطز في مصر. أما المغيـث عمر صاحب الكرك، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي فقد فضلاً الحلف مع المغول والخيانة. وأما الأخير وهو الملك السعيد حسن بن عبد العزيز صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل انضم بجيشه إلى قوات المغول ليساعدهم في محاربة المسلمين.

اقترح السلطان قطز أن تفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وهذا قرار يحتاج إلى فتوى

شرعية؛ لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يدفعون سوى الزكاة، ولا يدفعها إلا القادر عليها، وبشروط الزكاة المعروفة، أما فرض الضرائب فوق الزكاة فهذا لا يكون إلا في ظروف خاصة جداً، ولا بد من وجود سند شرعي يبيح ذلك. فاستفتى قطز الشيخ **العز بن عبد السلام** فأفتى قائلاً: "إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم؛ بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا مالكم من الممتلكات والآلات، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامّة، وأما أخذ أموال العامّة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا". قبل قطز كلام الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأ بنفسه، فباع كل ما يملك، وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع، وتم تجهيز الجيش كله.

العز بن عبد السلام

هو **عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم**، الشافعي، الملقب بسلطان العلماء، له مصنفات حسان، جمع علوماً كثيرة، وأفاد الطلبة، وولي خطابة دمشق، ثم سافر إلى مصر ودرّس بها وخطب، وحكم، وأعز الله به الإسلام والمسلمين، فلقبه شيخ الإسلام **ابن دقيق العيد** -تلميذه- بسلطان العلماء، له مواقف حكيمة كثيرة في دعوته إلى الله -تعالى-، فقد أزال بإنكاره الحكيم كثيراً من المنكرات، وبأشر تبطيل بعضها بنفسه، ومن ذلك: إبطاله كثيراً من البدع المنتشرة: كصلاة الرغائب، وصلاة ليلة النصف من شعبان، وبدعة دق المنبر بالسيف، وحكمته في بيع الملوك الأرقاء وصرف ثمنهم في بيت مال المسلمين، وذوده الحكيم عن أموال المسلمين، ومن ذلك أن السلطان وعساكره -عندما دهمت المغول البلاد عقب وقعة بغداد- استشاروا الشيخ فقال: اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر، فقال السلطان: إن المال في خزانتني قليل وأنا أريد أن أقترض من التجار، فقال الشيخ عز الدين: إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلّي الحرام وضربته سكةً ونقداً، وفرقته في الجيش، ولم يقم بكفايتهم ذلك الوقت اطلب القرض، وأما قبل ذلك فلا. فأحضر السلطان والعسكر ما عندهم من ذلك وامتلأ أمره فانتصروا بإذن الله -تعالى-.

الزحف المغولي نحو ديار بكر وبلاد الشام

ذكرنا في كتابنا الموسوم (أطلس تاريخ الدولة العباسية) أن هولاكو بعد أن حقق هدفه الأول بالقضاء على طائفة الإسماعيلية، وجعلها عبرة لمن يفكرون في مقاومته، سار إلى بغداد لتحقيق هدفه الثاني - كما ذكرنا في الصفحات السابقة - وهو القضاء على الخلافة العباسية وتدمير بغداد، وتحقق له ذلك في التاسع من المحرم سنة ٦٥٦هـ / السادس عشر من يناير سنة ١٢٥٨م، حيث وصلت جيوش هولاكو إلى بغداد، وأعمل السيف في أهلها لمدة أربعين يوماً، فقتل من المسلمين عددٌ كبيرٌ، وقُتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وآل بيته، ولم ينج من بين أيديهم إلا العدد القليل.

وقضى هولاكو بذلك على **الخلافة الإسلامية** ثم تقدم نحو بلاد الشام، وفي طريقه استولى على **ميفارقين** في ديار بكر، وقتل صاحبها الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وحمل المغول رأسه على رمح قصير وطيف به لأنه رفض الاستسلام للمغول.



ميفارقين، بفتح أوله، وتشديد ثانيه ثم فاء. وبعد الألف راء، وقاف مكسورة. وياء. وثون؛ قال بعض الشعراء:

فإن يك في كيل اليمامة عسرة

فما كيل ميفارقين بأعسرا

وقال كثير

مشاهد لم يعف التتائي قديمها

وأخرى بميفارقين فموزن

وهي أشهر مدينة بديار بكر، قالوا: سميت بميا بنت لأنها أول من بناها. وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بارجين، لأنها كانت أحسن خندقها فسميت بذلك. وقيل: ما بُني منها بالحجارة فهو بناء أنوشروان بن قباد وما بُني بالاجر فهو بناء أبرويز... الحوي، معجم البلدان.

الزحف المغولي على ديار بكر

أرمينيا

احتل

هولاكو **ميفارقين** أوائل سنة ٦٥٨ هـ بمساعدة
من الكرج والأرمن، والذين ساعدوه بالقيام بمذبحة
في السكان المسلمين.

آسيا الصغرى

سلاجقة الروم

ميفارقين

ديار بكر
(آمد)

الرها

ماردين

نصيبين

حران

الأيوبيون

بلاد الشام

دمشق

المغول

همدان

العراق

بغداد



المماليك

بدأ جيش **المغول** الجزار في التحرك من قواعده في **همدان** في اتجاه الغرب، حيث اجتاز الجبال في غربي إيران، ثم دخل حدود العراق من شمالها الشرقي، ثم اجتاز مدينة **أربيل**، ووصل إلى مدينة **الموصل** الموالية له، فعبّر عندها نهر دجلة، وهو العائق المائي الأول في هذه المنطقة، وهو عائق خطير فعلاً، وكان لابد من عبور هذا النهر في منطقة آمنة تماماً، وذلك لخطورة عبور الجيش الكبير، ولم يكن هناك أفضل من هذه المنطقة الموالية تماماً له... ثم سار جيش المغول بحذاء نهر دجلة على شاطئه الغربي في أرض الجزيرة ليصل إلى مدينة "**نصيبين**" (في جنوبي تركيا اليوم)، وهي مدينة تقع جنوبي **ميفارقين** بحوالي ١٧٠ كم فقط، وبذلك اقترب من جيش ابنه أشموط، إلا أنه لم يذهب إليه لاطمئنانه لقوته. احتل هولاكو مدينة "**نصيبين**" دون مقاومة تذكر، ثم اتجه غرباً ليحتل مدن "**حران**"، ثم مدينة "**الرها**" ثم مدينة "**البيرة**"، وكل هذه المدن في جنوبي تركيا، فكان على هولاكو أن يخترق كل هذه المدن التركية لينزل على مدينة "**حلب**" من شمالها، وبذلك يطمئن لعدم وجود أي جيوب إسلامية في ظهره.

قرر **هولاكو** أن يتوجه بجيشه إلى **حلب** أولاً، على أن يبقى ابنه أشموط محاصراً لميافارقين، وفي هذه الأثناء حدث حادث أليم ومفجع، إذ سقطت مدينة ميافارقين تحت أقدام المغول بعد الحصار البشع الذي استمر عاماً ونصف عام!.. ثمانية عشر شهراً متصلة من النضال والكفاح والجهاد، وذلك دون أن تتحرك نخوة قلب أمير من الأمراء، أو ملك من الملوك؟!، ثمانية عشر شهراً والناصر والأشرف والمغيث وغيرهم من الأسماء الضخمة يراقبون الموقف ولا يتحركون!! سقطت مدينة ميافارقين الباسلة، واستبيحت حرماها تماماً. فقد جعلها **أشموط بن هولاكو** عبرة لكل بلد يقاوم المغول في هذه المنطقة، فقتل السفاح كل سكانها، وحرّق ديارها، ودمرها تدميراً، ولكنه احتفظ بالأمير الكامل محمد الأيوبي -رحمه الله- حياً ليزيد من عذابه، وذهب به إلى أبيه هولاكو وهو في حصار مدينة حلب^(١).

استشهاد الكامل محمد الأيوبي:

استجمع هولاكو كل شره في الانتقام من الأمير البطل الكامل محمد الأيوبي -رحمه الله-، فأمسك به وقيدته، ثم أخذ يقطع أطرافه وهو حي، بل إنه أجبره أن يأكل من لحمه!!.. وظل به على هذا التعذيب البشع إلى أن أذن الله للروح المجاهدة أن تصعد إلى بارئها.. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ (آل عمران: ١٦٩-١٧١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "ما من عبد يموت. له عند الله خير. يسره أن يرجع إلى الدنيا. وأن له الدنيا وما فيها. إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل مرة أخرى". حسن صحيح، أخرجه الشيخان.

١- د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام.



ميافارقين (سريانية: ميبريقط) مدينة تركية قديمة. اسمها اليوم سيلوان (تركية: Silvan). تقع، ميافارقين، في شمال شرقي ديار بكر، بين دجلة والفرات، فيها آثار إسلامية ونصرانية وفارسية، وعرفت بقتلاها النصاري من الفرس. وهي تعتمد على الزراعة، وبها صناعات محلية يدوية تقليدية.



الزحف المغولي نحو حلب ودمشق

ذكرنا -على الخارطة الماضية- كيف اتجهت القوات المغولية نحو **حلب** قادمة من مدينة ميفارقين في ديار بكر، وكيف كانت ردود أفعال السلطان الناصر يوسف تجاه هذا الحدث المفجع!

وفي واقع الأمر أنه بعد أن وصل هولاكو إلى حلب وحاصرها، أرسل يطلب من **الحلبيين** تسليم **المدينة والقلعة** (انظر قلعة حلب المنيعية في الصفحة المقابلة) ليبقى فيهما جيشه. ويتوجه هو في سبيله، وكان رسوله إليهم أرزن الروم، فلم يجب الملك المعظم توران شاه، عم الناصر يوسف إلى ذلك، وقال له: ليس لكم عندنا إلا السيف.

وهاجم **هولاكو** المدينة الكبيرة التي كان دأبها الصمود في وجه المغول، وذلك من نواح عدة، وأعمل السيف في المسلمين، ودام القتال والسلب والنهب من نهار الأحد التاسع من صفر إلى الجمعة رابع عشر منه سنة ٦٥٨ هـ.

أما الأسرى فقد كانوا "زيادة على مائة ألف من النساء والأطفال" وقد بيع معظم أولئك الأسرى في أسواق الرقيق في مملكة أرمينية الصغرى وفي المدن الصليبية بالشام. ولم يتعرض المغول لكنيسة اليعاقبة في حلب في حين حرص **هيثوم الأول** ملك أرمينية الصغرى على إحراق جامع حلب نفسه. وما إن سقطت حلب في يد المغول حتى أسرع كثير من الحكام المسلمين المتخاذلين إلى الاستسلام له، والدخول في طاعته، فأتى إليه صاحب **حمص** الأشرف موسى بن إبراهيم شيركوه الأيوبي، وقدم له خضوعه، فأقره على ملك حمص؛ وحضر أيضاً شخصيات كبيرة من **حماة** ومعهم مفاتيح المدينة، وطلبوا الأمان من هولاكو لأهلها؛ فأعطاهم الأمان، وأرسل إلى حماة رجلاً أعجمياً يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليد ويسمى بـ "خسرو شاه"، وكان صاحب حماة الملك المنصور بن المظفر وقتذاك بدمشق، فرحل مع عياله إلى مصر^(١).

وهنا يتأكد، أن غزو المغول لبلاد الشام اتخذ طابع الحملة الصليبية، ولا أدل على ذلك مما تؤكد بعض المراجع المعاصرة من أن الخطة الخاصة بغزو بلاد الشام اشترك في وضعها الملك **هيثوم الأول** ملك أرمينية الصغرى، وقد طلب هولاكو من هيثوم مقابلته عند مدينة الرها، حتى يذهب معه إلى **بيت المقدس**، ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للنصارى.

أما الملك الناصر يوسف الأيوبي ملك دمشق وحلب، فقد بعث يستغيث بصاحب الكرك، الملك المغيث عمر فلم يغثه، وطلب نجدة من مصر فلم ينجده أحد، فهجر دمشق إلى غزة ليعبر الحدود إلى مصر، إلا أنه عاد وغير رأيه، وعرج على الأردن، فوقع في يد القائد المغولي **كتبغا** الذي أرسله إلى هولاكو^(٢).

١ - د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، دولة المماليك، ص ٣٦ - ٣٩.

٢ - د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، المرجع نفسه، ص ٣٩.



وفي تلك الأثناء أوفد **الدمشقيون** بعض أعيانهم إلى **هولاكوفي حلب**، **حيث سلموه** **مفاتيح مدينتهم**، فتسلمها **وعين نائباً عنه عليها**، وهو القاضي ابن محيي الدين الزنكي، ولكن **قلعة دمشق رفضت التسليم**، فأسرع القائد كتبها إليها وحاصرها مدة أربعين يوماً، حتى استسلمت الحامية وسلمت القلعة^(١).

وقد ساعد في محاصرة **قلعة دمشق** أمير إنطاكية وطرابلس، الذي أقام قداساً في إحدى كنائس دمشق، بينما كان جنوده يدخلون المساجد ويدنسونها.

وتابع المغول اغتصابهم لمدن الشام الإسلامية، فاستولوا على سائرها، حتى وصلوا إلى غزة دون مقاومة تذكر، واستقرت شحنتهم (معسكراتهم) بهذه البلاد، بحيث أصبحوا خلا مدة وجيزة يتمتعون بالسيطرة على ديار بكر، وديار ربيعة، والشام بأسرها؛ فضلاً عن بغداد ومدن العراق. وفي خضم هذه الحروب استدعى هولاكو إلى قفقاسيا، فترك سورية بعد أن عين كتباً نائباً عنه فيها، وكان هذا **نصرانياً نسطورياً**، على أمل أن يستميل بواسطته بارونات عكا الصليبية إليه. وهكذا يمكننا القول: إنه بسقوط المدن الثلاثة الكبرى (بغداد وحلب ودمشق)، تراءى كأن الإسلام في غربي آسيا حان أجله.

ففي دمشق وسائر الجهات في غربي آسيا، لم يكن للتوسع المغولي من معنى سوى انتعاش النصارى المحليين، وإن كان كتباً على المعتقد النسطوري النصراني، ولم يخف عواطفه ومشاعره تجاههم؛ فأضحى المسلمون في داخل سورية ولأول مرة منذ القرن السابع الهجري يعتبرون أقلية - برغم كثرتهم - مغلوبة على أمرها، فأخذوا يتحرقون للانتقام^(٢).

النساطرة: طائفة من النصارى ينتسبون إلى نسطور (٣٨٠-٤٥١م) بطريرك القسطنطينية المولود في قيصرية (مدينة في آسيا الصغرى). انتخب بطريركاً للقسطنطينية سنة ٤٢٨م. قطنوا كردستان بين الموصل و أرمينية إلى أن تبدد شملهم بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩٤٤م. ازدهرت عندهم الحياة الرهبانية، فأوفدوا المنصرين إلى آسيا الشرقية في القرن ٦م، ونشروها في إيران والهند والصين، انضم قسم منهم إلى المذهب الكاثوليكي في القرن ١٦م وهم الكلدان.

١ - د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، دولة المماليك، ص ٣٩ - ٤٠.

٢ - د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، المرجع نفسه، ص ٤٠.



تبلغ مساحة قلعة دمشق حوالي ٣٢١٧٦ م^٢. وقد كان لها أربعة أبواب وحالياً ثلاثة، شكلها مستطيل غير منتظم بأضلاع ليست مستقيمة. وعدد أبراجها ١٢ برجاً كان فيها عدد من القصور والمنازل والحوانيت، ومسجد أبي الدرداء - رضي الله عنه - ودار رضوان والطازمة، ودار المسرة، ومخازن، وطاحون للحبوب، وقد سكن القلعة في عصور مختلفة السلاطين والملوك والأمراء والولاة إضافة للفقهاء والعلماء والوزراء.



في ربيع الأول عام ٦٥٨ هـ/ آذار ١٢٦٠م، قضى **المغول** بقيادة هولاكو على الدولة الأيوبية في دمشق، فنهبوها وأحرقوها وقتلوا الكثير من سكانها، ودخلوا قلعتها التي استعصت عليهم بعد ٤٠ يوماً من حصارها.

معركة عين جالوت

٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م

عين جالوت

قال ياقوت: عَيْنُ الجالوت: اسم أعجمي لا ينصرف: وهي بلدة لطيفة بين بيسان و نابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولوا عليها مدة، ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب في سنة ١٠٥٧٩ هـ . معجم البلدان.

وتقع عين جالوت عند أسفل سفح جبل القليلة من سلسلة جبال فقوعة من الجهة الشمالية الغربية في مرج بيسان من أرض فلسطين المحتلة، وسلسلة جبال فقوعة تضم خمسة جبال: جبل المزار، جبل القليلة، جبل الشيخ بركان، جبل الشيخ عجمي، جبل أم غنمه. وهي سلسلة على شكل هلال من الغرب إلى الجنوب. وفي حوض الهلال تقع قرية فقوعة . أما مرج بيسان حيث وقعت أحداث المعركة الحاسمة فيها، فيبدأ من الغرب عند موقع قرية زرعين المهجرة وبين جبل الدحي، ويمتد شرقاً بين جبال فقوعة جنوباً وهضبة مراح الغزلان شمالاً لينتهي بمدينة بيسان عند طرف غور الأردن وهي المنطقة الوحيدة المفتوحة على طول الغور من الشمال إلى الجنوب، لذا أطلق عليها العرب اسم لسان الأرض .

الجدير بالذكر أنني ذكرت بيسان في معرض الحديث عن معركة فحل بيسان بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الفاروق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه . كما وينسب إليها العالم واحد مهندسي قبة الصخرة رجاء بن حيوة والذي أشار على الخليفة سليمان بن عبد الملك بتعيين الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم أجمعين.

في منتصف عام ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) بعث **هولاكو** من الشام برسله يحملون رسالته المشهورة إلى سلطان مصر المملوكي (سيف الدين قطز).

بعث هولاكو بهذه الرسالة في هذه الظروف السياسية والنفسية الحرجة، ومن خلال وهج السيوف التي تقطر دماً وأصداء المعارك التي أثار نفعها سيل لا أول له ولا آخر من خيول الغزاة.

لقد كان الطاغية يعرف جيداً خلفية الرعب والانهازم التي رسمتها العقود الأخيرة على مدى خارطة عالم الإسلام وفي أعماق نفوس أبنائه، فعرف كيف ينتقي كلماتها، قال: (من ملك الملوك شرقاً وغرباً، الخان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم **الملك المظفر قطز** وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها ومن الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلطاننا على من حل به غضبه، فلکم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب. فأی أرض تأویکم؟ وأی طریق تتجیکم؟ وأی بلاد تحمیکم؟ فما لکم من سیوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناصر، فخیولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسیوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤکم علينا لا یسمع، فمن طلب حربنا ندم، ومن

أمننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلکم ما لنا وعليکم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم. فلا تهلکوا نفوسکم بأيديکم، فقد حذر من أنذر، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرب الحرب نارها، وترمي نحوکم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادکم منکم خالية، فقد أنصفناکم إذ راسلناکم، وأيقظناکم إذ حذرناکم، فما بقي لنا مقصد سواکم) ^(١).

قرأ **سيف الدين قطز رسالة التحدي**، واستدعى أمراءه ليعرض الأمر عليهم، أيد الأمراء قتال المغول كافة. وكان على قطز أن يتخذ قراره، وقد اتخذ فعلاً، فقتل الرسل وعلق رؤوسهم على باب زويلة أياماً، ورفع سيف الدين قطز رأسه متحدياً بمواجهة الطاغية، وأصدر أوامر بالتجهز للقتال جهاداً في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢).

اتجه السلطان قطز على رأس جيش كثير العدد إلى بلاد الشام في أوائل رمضان سنة ٦٥٨ هـ، وكانت الخطة التي رسمها هي أن يقابل المغول في أرض الشام، وألا ينتظر قدومهم إلى مصر، وكان يهدف من وراء ذلك إلى أمرين ^(٣):

الأول: انتهاز فرصة البدء بالقتال التي كان المغول يحرصون على انتهازها أولاً؛ لضعفوا الروح المعنوي في نفوس أعدائهم.

الثاني: لقاء المغول خارج أرض مصر حتى لا تكون ميداناً للحروب وعرضة للتدمير والتخريب. وقد أرسل السلطان أمام قواته طليعة من الفرسان بقيادة **ركن الدين بيبرس** وعند بلدة الصالحية. انضمت الكتائب الشامية التي كانت قد جاءت إلى مصر فارة من وجه المغول إلى الجيوش المصرية.

وصلت طلائع الجيوش المصرية إلى غزة وأرغمت المغول على التخلي عنها ودخلها الأمير بيبرس على رأس فرسانه، ولم يكن المغول يتوقعون أن يصل المصريون إليهم بهذه السرعة، فلما رأوا الجحافل الإسلامية قد ملأت السهول والأودية، اضطروا إلى إخلاء جنوبي الشام، وأشار بعض ضباطهم على قائدهم **كتبغا** نويان بطلب النجدة من السلطان **هولاكو**، ولكنه اغتر بقوته وخذع بانتصاراته السابقة ولم يعمل بمشورتهم.

سارت الجيوش الإسلامية من **غزة** متجهة إلى الشمال، ومحاذية ساحل البحر الأبيض المتوسط، ومرت بيافا وقيسارية إلى جبل الكرمل جنوبي حيفا، وعند قرية (عين جالوت) الواقعة بين بيسان ونابلس دارت المعركة الفاصلة بين الجيش الإسلامي وجيش المغول في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ.

١ - ٢، د. عماد الدين خليل، مجلة الأمة، العدد التاسع، رمضان ١٤٠١ هـ.

٢ - ٣، د. جاد محمد رمضان، كيف نجا المسلمون من عاصفة المغول والتتار المدمرة؟ مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٦، ص ١٥٠ وما بعدها.

بدأت المعركة بهجوم عنيف من المغول فتراجعت ميسرة الجيش الإسلامي، وإذا ببدء يدوي في ساحة المعركة (وإسلاماه وإسلاماه وإسلاماه) فاتجهت الأنظار إلى مصدر الصوت؛ فإذا المنادي هو **السلطان نفسه**، فالتهب حماس الجيش، وعادت الميسرة إلى مكانها الأول، وحمل الجيش الإسلامي حملة صادقة على جيش المغول، حتى هزمهم هزيمة ساحقة، ومزقهم شراً ممزق، وخرّ قائدهم كتبغا صريعاً في الميدان، واعتصمت طائفة منهم بالتل المجاور لمكان الموقعة، فأحدثت بهم العساكر المسلمة، وصابروهم على القتال حتى قتلوا معظمهم، وفرّ الباقون لا يلوون على شيء، وقتل الأهالي الموتورون من المغول من وقع في أيديهم من هؤلاء الفارين.

وبعد انتهاء الموقعة اتجه السلطان قطز إلى دمشق، فقبول بحفاوة بالغة من أهلها، لأنه صدّ هذه الموجة العاتية التي اجتاحت بلادهم، وأنزلت بهم صنوف البلاء، وقد أمر السلطان بشنق الذين تعاونوا مع المغول وعين حاكماً على دمشق من قبله.

أما **بيبرس** فإنه تعقب المنهزمين من المغول، حتى كاد أن يلحق بهم على مقربة من مدينة حلب، ولكنهم أطلقوا من كان في أيديهم من الأسرى، وتركوا أولادهم وأسرعوا خفافاً حتى لا يلحق بهم، فتخطف الناس أولادهم ودانت حلب بالطاعة لسلطان مصر^(١).

نتيجة الموقعة :

لو قدر للمغول أن ينتصروا في موقعة (عين جالوت) لانسابوا في مصر كالسيل الجارف، ولامتدت موجتهم إلى السودان وبلاد المغرب، وعبرت إلى الأندلس، واجتاحت أوروبا، وقضت على الحضارة الإسلامية والمسيحية على السواء؛ لذلك تعد هذه الموقعة من أهم المواقع الفاصلة في التاريخ؛ لأنها أنقذت العالم الإسلامي من شر مستطير، وأطفأت هذه الصاعقة المهلكة، التي كادت أن تقضي على حضارة العالم ومدنيته^(٢).

إنها **الوحدة** نفسها التي سهر عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود على إقامتها، وجاء الناصر صلاح الدين من بعدهما، لكي يبني عليها انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين الغزاة ويحرر القدس، وهما هي معركة عين جالوت؛ تشد الأصرة مرة أخرى، وتمنح المسلمين الأرضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم ودفعهم إلى إحدى اثنتين:

الإذعان لكلمة الإسلام، أو العودة من حيث جاؤوا، لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت السلاجقة من قبل، **فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة** أن تعوض عالم الإسلام عما فقد هناك^(٣).

١ - ٢، د. جاد محمد رمضان، كيف نجا المسلمون من عاصفة المغول والتتار المدفرة؟ مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٦، ص ١٥٠ وما بعدها.

٢ - ٣، د. عماد الدين خليل، مجلة الأمة، العدد التاسع، رمضان ١٤٠١ هـ.

موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ

مكان المعركة



بقايا الصليبيين

البحر الشامي (بحر الروم - البحر المتوسط)

أقسم المظفر **قطز** لقادة الصليبيين في مملكة (أورشليم بعلكا) أنه متى تبعه منهم فارس، أو راجل؛ يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى المغول!

انطلق السلطان قطز مواصلاً سيره من أرض مصر مروراً بالساحل الفلسطيني، ومضى شمالاً لتهديد مواصلات كتبغا إذا حدث وتقدم إلى فلسطين.

بادر قطز على الفور بالانعطاف بقواته باتجاه الجنوب الشرقي بعد أن حذر الصليبيين في عكا من الغدر بهم، ثم اجتاز الناصرة حيث وصل في الرابع عشر من رمضان (المصادف الثاني من أيلول عام ١٢٦٠م) إلى عين جالوت.

بلاد الشام

فلسطين

كان كتبغا في **بعلبك**، فتجهز على الفور للمسير إلى وادي نهر الأردن بعد أن تجاوز بحر طبرية، غير أن منعه اشتعال ثورة المسلمين في دمشق ضد السلطة المغولية وأنصارها من النصاري المحليين، حيث حطمت دورهم وكناشهم، واشتدت الحاجة إلى العساكر المغولية لإعادة الأمن إلى نصابه. عبر كتبغا **نهر الأردن** وتوجه صوب الجليل الشرقي، صوب أرض عين جالوت، وفي صبيحة اليوم اللاحق قدم الجيش المغولي تعززه كتائب **كرجية وأرمينية**، دون أن يعلم أن جيش المماليك أضحى قريباً منه.



٤٥ ٣٠ ١٥ ٠ كم

مصر

مخطط موقع عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ



قوات الفريقين في موقع عين جالوت

عندما **اصطدم المعسكران** اضطرب جناح عسكر السلطان، وانتقض طرف منه؛ فألقى الملك المظفر قطز عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: **(وا..إسلاماه!)** وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره..

مرّ العسكر في إثر المغول إلى قرب بيسان، فرجع المغول والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة سمعه معظم المعسكر، وهو يقول: **(واإسلاماه!)** ثلاث مرات: يا الله انصر عبدك قطز على التتار (المغول)! فلما انكسر المغول الكسرة الثانية نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى، ثم ركب؛ فأقبل العساكر، وقد امتلأت أيديهم بالمغانم!

كتب السلطان إلى دمشق يبشر الناس بفتح الله وخذلانه المغول، وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق. فلما ورد الكتاب سرّ الناس به سروراً كثيراً، ولما بلغ **هولاكو** عسكره وقتل نائبه كتبغا، عظم عليه فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك.



سهل معركة عين جالوت بالقرب من بيسان الفلسطينية

بعد **معركة عين جالوت** قام ولاية المغول في الشام بالهرب، فدخل **قطز دمشق** في ٢٧ رمضان ٦٥٨ هـ، وبدأ في إعادة الأمن إلى نصابه في جميع المدن الشامية، وتعيين ولاية لها. واستأمن الأشرف صاحب حمص، وكان مع المغول وقد جعله هولاكو خان نائباً له على الشام كله، فأمنه الملك المظفر، ورد إليه حمص، وكذلك رد حماة إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها. وأطلق سلمية للأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا بن مانع أمير العرب، واتبع الأمير **بيبرس البندقداري** وجماعة من الشجعان المغول يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان. فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم، ويفكّون الأسارى من أيديهم.

وكان قطز قد أرسل بيبرس البندقداري ليطرد المغول عن حلب ويتسلمها ووعدته بنيابته، فلما طردهم عنها وأخرجهم منها استتاب قطز عليها غيره وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل. وكان ذلك سبب الوحشة التي وقعت بينه وبين بيبرس، واقتضت قتل الملك المظفر قطز سرياً.

كانت النتيجة النهائية لهذه المعركة هي **توحيد (بلاد الشام ومصر) تحت حكم سلطان المماليك** على مدى ما يزيد عن نحو مئتين وسبعين سنة، حتى قام العثمانيون بالسيطرة على أراضيهم في عهد سليم الأول سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م.

وفي واقع الحال؛ فإن المؤرخين يعدون هذه المعركة ونتائجها بداية النهاية **للإمبراطورية المغولية** إذ لم يهزموا في معركة قط قبلها. كان بركة خان زعيم **القبيلة الذهبية** في روسيا وابن عم هولاكو خان؛ قد أعلن إسلامه أيام الغزو المغولي لبلاد المسلمين، وكان قد تأثر كثيراً لسقوط الدولة العباسية (دولة الخلافة الإسلامية) على يد ابن عمه، وكان يتحين الفرصة للانتقام من هولاكو خان. فقام بيركي أو بركة خان - بعد أن تحالف مع السلطان المملوكي الظاهر بيبرس - بتجهيز جيوشه واتجه جنوباً نحو هولاكو الذي عاد من بلاد الشام، وهُزم هولاكو هزائم كبيرة من قبل جيوش بيركي ولم يتمكن من مقاومته. تذكر بعض المصادر أن هولاكو لم يستطع إرسال كامل جيشه للشام للانتقام من هزيمة جيشه بعين جالوت بسبب بركة خان، فقد أرسل جيشاً إلى بلاد الشام ليستعيد بها بقيادة ابنه "يشموط" إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل، حيث كان قد أقام حفلاً وكان في حالة ثمالة فانتهر جند بيبرس هذه الفرصة فانقضوا على معسكرهم وأفتوهم عن كاملهم، وتركوا بعضهم لينقلوا خبر الهزيمة إلى هولاكو ومعهم رأس ابنه، فما كان من هولاكو إلا أن قتل بقية الناجين من المذبحة.

بعد هذا النصر العظيم، دانت أغلب المناطق الشمالية من الإمبراطورية المغولية لبركة خان، واستمرت سلالته وهي القبيلة الذهبية في حكم روسيا وأواسط آسيا لمدة تزيد عن القرنين من الزمن. أما سلالة هولاكو وهي الخانات فقد حكمت لمدة ٩١ سنة حتى سقطت سنة ١٣٥١ م.

بعد هذا الفتح العظيم عاد المماليك إلى مصر، وقتل الظاهر بيبرس أميره سيف الدين قطز، وربما كان للخلاف السابق بين المماليك البحرية الذين منهم بيبرس والمماليك المعزية الذين منهم قطز، وقد اضطر المماليك البحرية للعودة إلى مصر بعد أن فرّوا منها عندما لم يجدوا لهم مقاما في الشام لهجوم المغول، فكان لابد من الاتفاق لحماية دار الإسلام، فلما أصبحت ديار الإسلام في أمان من هجوم المغول عاد الخلاف وظهر من جديد، وقتل قائد جناح المماليك البحرية أمير المماليك المعزية، وربما كان سبب هذا القتل ما بقي في نفس بيبرس من قطز، عندما رفض إعطائه ولاية حلب، - كما ذكرنا في الصفحة السابقة - وهو يريد أن يتابع المغول ويستعيد للمسلمين أرضهم، وعلى كل فقد قُتل الأمير سيف الدين قطز، واتفق أمراء المماليك على تعيين الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر.

وقد كان الملك المظفر سيف الدين قطز قد استناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، فلما قتل قطز نادى سنجر بنفسه سلطاناً، وتلقب بالملك المجاهد، وأخذ شعار السلطنة بعد مقتل قطز بشهر واحد، وطلب من الملك الأشرف موسى الأيوبي، والملك المنصور صاحب حماة الأيوبي أيضاً، والأمير الظاهر بيبرس حملة إلى دمشق حملت سنجر إلى القاهرة مقيداً بالأغلال ولم يمض على سلطنته المحلية أكثر من شهر.

وخلال هذه المدة قام **رجل شيعي يدعى الكوراني** يدعول نفسه، ويرغب في عودة النفوذ العبيدي مرة أخرى، أو الشيعة كما يسميها، واستطاع الظاهر بيبرس القضاء عليه بسرعة ^(١).

مستند تاريخي

(السلطان الشهيد الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي. كَانَ أَنْبَلَ مَمَالِيكَ الْمَعَزِ، ثُمَّ صَارَ نَائِبَ السُّلْطَانَةِ لَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ. وَكَانَ فَارِسًا شَجَاعًا، سَائِسًا، دِينًا، مُحِبًّا إِلَى الرَّعِيَّةِ. هَزَمَ التَّتَارَ (المغول)، وَظَهَرَ الشَّامَ مِنْهُمْ يَوْمَ عَيْنِ جَالُوتَ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَتَلَ الْفَارِسَ أَقْطَايَ فَقَتَلَ بِهِ، وَيَسْلَمُ لَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ جِهَادَهُ وَيُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ أُخْتِ خُوَارِزْمِ شَاهِ جَلَالِ الدِّينِ، وَإِنَّهُ حَرَّ وَأَسَمُهُ مَحْمُودُ بْنُ مَهْدُودٍ. وَيَذْكُرُ عَنْهُ أَنَّهُ يَوْمَ عَيْنِ جَالُوتَ لَمَّا أَنْ رَأَى انْكِشَافًا فِي الْمُسْلِمِينَ رَمَى عَلَى رَأْسِهِ الْخُوْذَةَ وَحَمَلَ، وَنَزَلَ النُّصْرَ. وَكَانَ شَابًا أَشَقَرَّ، وَأَفْرَ اللَّحْيَةِ، تَامَ الشَّكْلُ، وَثَبَّ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأَمْرَاءِ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى مِصْرَ بَيْنَ الْغُرَابِيِّ وَالصَّالِحِيَّةِ، فَقَتَلَ فِي سَادِسَ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ وَلَمْ يَكْمَلْ سَنَةً فِي السُّلْطَانَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ).

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، الطبعة الرابعة والثلاثون، ج ١٦، ص ٤٤٧.

السلطان الظاهر بيبرس

٦٥٨ - ٦٧٦ هـ

هو **الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالح النجمي** لقب بأبي الفتوح. سلطان مصر والشام، ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي، بدأ مملوكاً يباع في أسواق بغداد والشام، وانتهى به الأمر كأحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط. لقبه الملك الصالح أيوب في دمشق بـ "ركن الدين"، وبعد وصوله للحكم لقب نفسه بالملك الظاهر. ولد بيبرس سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢١ م.

ويرجع أصل ركن الدين بيبرس إلى أتراك ما وراء النهر؛ وبالتحديد **قيرغيزستان**، حيث أخذ وهو طفل صغير وترى تربية إسلامية وجهادية، كما كان هو الحال مع طبقة المماليك، واشتراه السلطان الصالح نجم الدين أيوب، ثم انتقل بعد ذلك إلى الأمير فارس الدين أقطاي، وارتقى في سلم الجندية حتى صار من كبار قادة المماليك، وأبدى قوة وشجاعة وبسالة نادرة في كل المعارك التي اشترك فيها ضد الصليبيين في أثناء الحملة الصليبية السابعة على دمياط سنة ٦٤٧ هـ، ولما تولى عز الدين أيبك حكم مصر بعد زواجه من (شجر الدر) لم يكن على وفاق معه، فذهب إلى الشام والتحق بخدمة أمرائها من بني أيوب، وظل بها حتى آل الأمر إلى سيف الدين قطز، وهجم المغول على دمشق وأخذوها فاستدعاه قطز وطلب منه قيادة فيلق بالجيش المصري المقاتل للمغول، وبعد الانتصار الكبير في **عين جالوت** عهد **قطز لبيبرس** بمهمة مطاردة فلول المغول المنهزمين، ومنعهم من التجمع مرة أخرى، فأدى المهمة بنجاح كبير.

بعد مقتل قطز في ظروف مريبة؛ لم يجد قادة المماليك خيراً من ركن الدين بيبرس ليولوه هذه المهمة الشاقة، وفي هذه الظروف الدقيقة تولى الحكم في آخر سنة ٦٥٨ هـ، وكانت هذه الولاية من رحمة الله عز وجل بالمسلمين، إذ تمر الأمة الإسلامية بحقبة عصيبة من حياتها؛ فقد كان بيبرس فارسها المنتظر وقائدها الهمام، حيث تجلت أهم أعماله خلال هذه المرحلة:

إعادة الخلافة الإسلامية: فعندما احتل المغول بغداد زين لهم الوزير الشؤم ابن العلقمي الباطني قتل الخليفة المستعصم العباسي، لتسقط بقتله الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ، وظل العالم الإسلامي بلا خلافة ولا خليفة طيلة ثلاث سنوات، حتى تولى بيبرس حكم الديار المصرية والشامية، وعمل على إعادة الخلافة العباسية مرة أخرى، فبحث عن رجل من نسل العباس فوجد الأمير **أبا القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر العباسي** وكان معتقلاً في بغداد، وهو أخو أمير المؤمنين **المستنصر** باني المدرسة المستنصرية الشهيرة، فاستقدمه إلى مصر ودعا الناس لبيعته، فبايعه الناس في يوم عظيم مهيب، ذكرّ الناس بأمجادهم السابقة وأفراحهم الماضية؛ إذ سرت روح الوحدة الإسلامية من جديد بين أفراد الأمة.

جدول الخلفاء العباسيين في مصر

م	الخليفة ولقبه	تاريخ الحكم
١	أبو القاسم أحمد بن محمد الظاهر (المستنصر بالله)	٦٦٠ - ٦٦٩ هـ ١٢٦١ م
٢	أبو العباس أحمد بن الحسن (الحاكم بأمر الله الأول)	٦٦٠ - ٧٠١ هـ
٣	أبو الربيع سليمان بن أحمد (المستكفي بالله)	٧٠١ - ٧٣٦ هـ
٤	أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أحمد (الواثق بالله الأول)	٧٣٦ - ٧٤٢ هـ
٥	أبو العباس أحمد بن سليمان (الحاكم بأمر الله الثاني)	٧٤٢ - ٧٥٣ هـ
٦	أبو الفتح أبو بكر بن سليمان (المعتضد بالله الأول)	٧٥٣ - ٧٦٣ هـ
٧	أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوكل على الله الأول) ١	٧٦٣ - ٧٧٩ هـ
٨	أبو يحيى زكريا المستعصم بالله (المستعصم بالله) ١	٧٧٩ - ٧٧٩ هـ
٩	أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوكل على الله الأول) ٢	٧٧٩ - ٧٨٥ هـ
١٠	أبو حفص عمر بن إبراهيم (الواثق بالله الثاني)	٧٨٥ - ٧٨٨ هـ
١١	أبو يحيى زكريا المستعصم بالله (المستعصم بالله) ٢	٧٨٨ - ٧٩١ هـ
١٢	أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوكل على الله الأول) ٣	٧٩١ - ٨٠٨ هـ
١٣	أبو الفضل العباس بن محمد (المستعين بالله)	٨٠٨ - ٨١٦ هـ
١٤	أبو الفتح داود بن محمد (المعتضد بالله الثاني)	٨١٦ - ٨٤٥ هـ
١٥	أبو الربيع سليمان بن محمد (المستكفي بالله الثاني)	٨٤٥ - ٨٥٤ هـ
١٦	أبو البقاء حمزة بن محمد (القائم بأمر الله)	٨٥٤ - ٨٥٩ هـ
١٧	أبو المحاسن يوسف بن محمد (المستجد بالله)	٨٥٩ - ٨٨٤ هـ
١٨	أبو العز عبد العزيز بن يعقوب (المتوكل على الله الثاني)	٨٨٤ - ٩٠٣ هـ
١٩	أبو الصبر يعقوب بن عبد العزيز (المستمسك بالله) ١	٩٠٣ - ٩١٤ هـ
٢٠	محمد بن يعقوب بن عبد العزيز (المتوكل على الله الثالث) ١	٩١٤ - ٩٢٢ هـ
٢١	أبو الصبر يعقوب بن عبد العزيز (المستمسك بالله) ٢	٩٢٢ - ٩٢٣ هـ
٢٢	محمد بن يعقوب بن عبد العزيز (المتوكل على الله الثالث) ٢	٩٢٣ - ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م

تنازل الخليفة العباسي المتوكل على الله محمد بن يعقوب في هذا العام للسلطان العثماني سليم الأول بالخلافة

سلطنة المايك

MS. 0. 70



كنيسة القديس بطرس في المدينة القديمة بأنطاكية التركية

قال ياقوت: (ولم تزل إنطاكية قسبة العواصم من الثغور الشامية وهي من أعيان البلاد وأمهااتها موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير، وقال ابن بطلان في رسالة كتبها إلى بغداد إلى أبي الحسين هلال بن المحسن الصابي في سنة نيف وأربعين وأربعمائة، قال فيها: وخرجنا من حلب طالبين إنطاكية وبينهما يوم وليلة فوجدنا المسافة التي بين حلب وإنطاكية عامرة لا خراب فيها أصلاً، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون، قراها متصلة ورياضها مزهرة ومياها منفجرة، يقطعها المسافر في بال رخي وأمن وسكون، وإنطاكية بلد عظيم، ذو سور وقسيل، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً، يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس يُنفذون من القسطنطينية من حضرة الملك يضمنون حراسة البلد سنة ويستبدل بهم في السنة الثانية، وشكل البلد كنصف دائرة، قُطرها يتصل بجبل والسور يصعد مع الجبل إلى ثلثة فتم دائرة، وفي رأس الجبل داخل السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة، وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلع عليها إلا في الساعة الثانية، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب، وفي وسطها بيعة القُسيان، وكانت دار قُسيان الملك الذي أحيى ولده بطرس رئيس الحواريين، وهو هيكَل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون، وعليه كنيسة على أساطين وكان يدور الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة ومتعلمو النحو واللغة على أحد أبواب هذه الكنيسة فتجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة، وهو من عجائب الدنيا وفي أعلاه خمس طبقات، في الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة، تخر منها المياه وعلة ذلك: أن الماء ينزل عليها من الجبل المطل على المدينة، وهناك من الكنائس ما لا يحُد، كلها معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزَع ...). معجم البلدان - ج ١ - ص ١٨٠.

السلطان بيبرس ومواجهة الدولة الإيلخانية (مغول فارس)

كان للهزيمة القاصمة التي نالت المغول في عين جالوت؛ أشد الأثر في نفوس قادة المغول خاصة هولاكو الذي أصر على معاودة الكرة مرة بعد أخرى، لذا سعى بيبرس إلى توسيع شقة الخلاف بين خانات المغول لإضعافهم وصرفهم عن بلاده، وهنا برز ذكاء بيبرس الفذ عندما استطاع استمالة أحد كبار قادة المغول (التتار) وهو بركة خان - ذكرنا شيئاً عنه في الصفحات السابقة - وهو ابن عم هولاكو زعيم القبيلة الذهبية في شرقي آسيا الصغرى والقفقاس على دخول الإسلام، ووطد صداقته معه، وأغراه بقتال هولاكو وأبناء عمومته من خانات إيران. وقد أصبح **بركة خان** مسلماً صادقاً مخلصاً، فأخذ بيبرس في مراسلته واستمالته لجهاد وقاتل هولاكو، وأفهمه ذلك في رسائل متبادلة حتى اقتنع بركة خان بذلك، وأصبح من أكبر أنصار الإسلام والمسلمين، وأخذ في التنسيق مع المسلمين وبيبرس ضد هولاكو الأرعن، واستطاع أن يستميل كثيراً من المغول بالشام لدخول الإسلام، وأغدق عليهم الهدايا والعطايا فدخلوا في دين الله أفواجاً.

ولما هلك الطاغية **هولاكو** وتولى من بعده ابنه **أبغا**، وكان أشد من أبيه عداوة للإسلام والمسلمين سعى لتجديد التوسع المغولي بالشام، الذي أصبح من أملاك الدولة المملوكية، وكتب إلى بيبرس يتهدده قائلاً: «أنت صعلوك حقير، فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟ واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني، فاعمل لنفسك على مصالحتي».

فجاء رد **الملك بيبرس** في منتهى العزة، فرد يقول: وأعلموه أنني من ورائه المطالبة، ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض، وبالفعل كان الظاهر بيبرس من أشجع أمراء المسلمين في حرب المغول وأنشطهم، وكان لا يسمح لهم بالتجمع، بل يسارع بالانقضاض كالأسد الضاري كما حدث سنة ٦٧١هـ، عندما وصلت لمسامع بيبرس أن طائفة كبيرة من جنود المغول تجمعت عند نهر الفرات، أسرع بجيشه وخاض بنفسه وجيشه نهر الفرات، وانقض على المغول فمزقهم تمزيقاً. ثم كانت معركته الشهيرة مع المغول سنة ٦٧٥هـ والمشهورة بموقعة **'البلستين'** (وقد سميت البستان بعد ذلك)، وتقع في شرقي قيصرية في آسيا الصغرى بين جبال طوروس والقسم الأعلى من نهر جيحان، وهي من مدن الثغور. وكان مع جيش المغول فرقة كبيرة من الروم، وهذا يوضح مدى العلاقة بين أعداء الإسلام فيما بينهم على اختلاف راياتهم، وكانت معركة رهيبة استشهد فيها الكثير من أبطال المسلمين وقادتهم، وصبر المسلمون صبراً بليغاً حتى أنزل الله - عز وجل - عليهم نصره، وكسروا المغول كسرة قريبة من يوم عين جالوت.



لقاء المماليك بالقوات المغولية - السلجوقية المشتركة في معركة البليستين (البستان) سنة ٦٧٥ هـ ١٢٧٥ م

الدولة الغورية

بقايا الاحتلال الصليبي

مملكة البليستين (البستان) سنة ٦٧٥ هـ

الرسوليون

ممالك المغول (التتار)

الإمبراطورية البيزنطية

مملكة أرمينيا الصغرى والكبرى

سلطنة المماليك

تبعية سلاجقة الروم للمغول

دولة الأشراف (الحسينيون) في

مكة المكرمة

كان **الظاهر بيبرس** قائداً استراتيجياً فذاً موفقاً في حروبه، مواظباً على الجهاد، لم يمض عام من أعوام حكمه إلا وخرج فيه لقتال، أتقن فنون القتال وفن الحرب (التكتيك)، واستعمال أسلحة عصره، كما أتقن فن المناورة والخداع والتمويه والمفاجأة في الحرب، وكانت له عناية بالاستطلاع وكشف أحوال الأعداء، وكان متيقظاً مطلعاً على أحوال أمرائه وأعيان دولته، يبث عيونه في كل مكان، ويراقب قصاده، ويستقصي الأخبار من مصادرها. وكان مقداماً يباشر الحرب بنفسه، يتقدم العسكر ويركب في الطليعة لا يبالى من يلاقي، وكان إذا نازل حصناً عاينه بنفسه، وكشف عيوبه، ورتب عسكره بما يناسب ذلك، فإذا أحدث النقبابون فيه نقباً كان أول من يلج فيه، وكان يعمل بيديه فيساعد في حفر الخنادق ونقل الحجارة وجر حبال المجانيق ويرصد رميها، ويرمي بنفسه ويصنع نشابه بيده. وكان إلى جانب ذلك خفيف الركاب جم النشاط، لا يكاد يستقر في موضع، يركب الهجن وخيل البريد لكشف الأمور والنظر في أحوال البلاد، ثم يقفل راجعاً من دون أن يعلم به إلا الخاصة. وكان جليل القدر مهيب الجانب، يخافه الأمراء ويخشاه الأعداء. عني بتنظيم الجيش وجدد في وظائف أصحاب المراتب، وكان تعداد جيشه إذا اجتمع ثلاثين ألف فارس، أما عسكره الخاص فكان اثني عشر ألفاً؛ ثلثهم في مصر، وثلثهم في دمشق، والثلث الثالث في حلب، فإذا خرج للغزو خرج معه جيش من أربعة آلاف يسمونه جيش الزحف، فإن احتاج أردفه بأربعة آلاف أخرى، فإن اشتد به الأمر استدعى إليه الثلث الثالث. وكان يحرص على أن تكون قواته في حالة جاهزية كاملة، فما إن ترد إليه الأخبار بحركة محتملة للعدو حتى يأمر العسكر بالخروج، فلا يبيت فارس منهم في بيته، وإذا تحرك للغزو فلا يعرف أحد هدفه، ويناور بقواته بعد أن يقسمها أطلاباً، فيوجه كل طلب إلى ناحية، ثم يرسل إليهم أوامره فيلتقي الجميع على الهدف. كذلك كانت له عناية بالأسطول وبناء السفن في دور الصناعة، ويهتم بحماية الثغور البحرية وتحسين شروط الملاحة فيها.

أعاد بيبرس تنظيم البريد في سائر أنحاء البلاد، وخصص للبريدية محطات ونفقات، فكانت الأخبار تصل إليه من أطراف حلب وأطراف النوبة في بضعة أيام، ويخرج البريد من دمشق فيصل القاهرة في أربعة أيام.

وكان بيبرس إلى جانب ذلك محباً للعدل، غيوراً على الإسلام، مناصراً للشرع لا يخالف فتياً، وهو أول من جعل لكل مذهب قاضياً مستقلاً؛ فصار عدد القضاة أربعة، كما كان كريماً ينفق على العسكر ويفرق الغنائم بينهم، حتى يرغبهم في القتال، مع ميله إلى جمع المال ومصادرة أرباب الأموال من أجل الجهاد. وكان مغرمًا بالصيد ماهراً في الرمي، محباً للعمارة، جدد الكثير من العماثر في مصر والشام، ولا سيما القلاع والحصون التي خربها المغول أو حررت من الفرنجة، وشيد قرية في مصر سماها «الظاهرية» وقصراً في دمشق عرف بالقصر الأبلق، وأقام نصباً تذكاريًا لمعركة عين جالوت في موقعها، كما شيد

كثيراً من المساجد والمدارس والحمامات والقيساريات والاصطبلات والجسور والقناطر والقنوات ، وأدخل على نظام الحكم في المملكة أموراً ووظائف كثيرة لم يسبقه إليها أحد. وكان شعاره (رنكه) راية عليها **صورة أسد** رابض إشارة إلى فروسيته وبأسه. وقد حيكت حول بيبرس روايات وقصص كثيرة، أضفت عليه صفات أسطورية، وصورته بطلاً من أبطال القصص الشعبي، وهي ما تزال متداولة إلى اليوم في عدة مجلدات تحت عنوان «سيرة الملك الظاهر». محمد سعيد الجلاد، موسوعة المعرفة. ص ٦٦٩.



تعد عملات السلطان "الظاهر بيبرس" من أجمل عملات العصر المملوكي لدقة نقوشها وجمالها، ولتميزها بوجود صورة الأسد عليها، كما هو واضح في **العملتين**، وكذلك نقش الأسد - وهو شعاره - على بعض أبواب الأسوار في سلطنته كما في الصورة في الأسفل.



صورة لأسدين شعار بيبرس وبينهما آيات قرآنية بجسر بمدينة اللد - فلسطين

جامع السلطان الظاهر بيبرس ٦٦٥-٦٦٧ هجرية = ١٢٦٧-١٢٦٩ م. لم تكن شواغل الظاهر بيبرس الحربية لتعوقه عن الاهتمام بالعمارة والإنشاء، فترك الكثير من المنشآت الدينية والمدنية كان من أهمها **جامعه العظيم** الواقع بميدان الظاهر بالقاهرة، الذي شرع في إنشائه سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٧ م وأتمه سنة ٦٦٧ هـ ١٢٦٩ م. ويعد هذا الجامع؛ من أكبر جوامع القاهرة، حيث تبلغ مساحته ١٠٣ في ١٠٦ م، وأبقى الزمن على كثير من تفاصيله الزخرفية؛ سواء الجصية منها أو المحفورة في الحجر. وتعطينا هذه البقايا فكرة صحيحة عما كان عليه الجامع عند إنشائه من روعة وجلال. وتخطيطه على نسق غيره من الجوامع المتقدمة، يتألف الجامع من صحن مكشوف، يحيط به أروقة أربعة؛ أكبرها رواق القبلة كانت عقودها محمولة على أعمدة رخامية فيما عدا المشرفة منها على الصحن، فقد كانت محمولة على أكتاف بنائية مستطيلة القطاع، كذلك صف العقود الثالث من شرق كانت عقودها محمولة على أكتاف بنائية أيضاً. أما عقود القبة التي كانت تقع أمام المحراب فإنها مرتكزة على أكتاف مربعة بأركانها أعمدة مستديرة. وكانت هذه القبة كبيرة مرتفعة على عكس نظائرها في الجوامع السابقة فإنها كانت صغيرة متواضعة. أما واجهات الجامع الأربع فمبنية من الحجر فتحت بأعلاها شبابيك معقودة وتوجت بشرفات مسننة، وامتازت بأبراجها المقامة بأركان الجامع الأربعة وبمداخلها الثلاثة البارزة عن سمت وجهاتها. ويقع أكبر هذه المداخل وأهمها في منتصف الواجهة الغربية قبالة المحراب. وقد حلّ هذا المدخل كما حلّ المدخلان الآخران الواقعان بالوجهتين البحرية والقبلية؛ بمختلف الزخارف والحليات، فمن صفوف معقودة بمخوصات إلى أخرى تنتهي بمقرنصات ذات محاريب مخوصة، إلى غير ذلك من الوحدات الزخرفية الجميلة، اقتبس أغلبها من زخارف وجهات الجامع الأحمر وجامع الصالح طلائع ومدخل المدرسة الصالحية. وكانت المنارة تقع في منتصف الواجهة الغربية أعلى المدخل الغربي، ويبقى رواق القبلة مخصصاً لإقامة الشعائر الدينية. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر العربية.

كما اهتم بيبرس بتجديد الجامع الأزهر، فأعاد للأزهر رونقه، فشن عليه حملات من الترميم والتجميل، حتى عاد له جماله ومكانته مرة أخرى، وأعاد خطبة الجمعة والدراسة إليه بعد أن هجر طويلاً، ونصب أربعة قضاة شرعيين، واحداً من كل مذهب من مذاهب السنة الأربعة بعد أن كان القضاء مقتصرًا على قاضي قضاة شافعي. وفي خارج مصر قام بعدد من الإصلاحات في الحرم النبوي بالمدينة النبوية، وقام بتجديد مسجد إبراهيم عليه السلام في الخليل، وزار بيت المقدس يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م، فقام بتجديد ماتهدم من قبة الصخرة، وجدد قبة السلسلة وزخرفها، ورتب برسم مصالح المسجد في كل سنة خمسة آلاف درهم. وأنشأ بها خاناً للسبيل نقل بابه من دهليز كان للسلطين المصريين بالقاهرة. وقد زار بيت المقدس في شعبان سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م وأجرى عليها ترميمات إضافية. وعمل على إقامة دار للعدل للفصل في القضايا والنظر في المظالم.



Mass entrance

الدخول الموعود

جامع السلطان الظاهر بيبرس THE MOSQUE OF SULTAN AL-ZAHIR BAYBARS

صورة قديمة لجامع السلطان الظاهر بيبرس



صور منتقاة لجامع السلطان الظاهر بيبرس ٦٦٥-٦٦٧ هجرية = ١٢٦٧-١٢٦٩ م، وهو في مراحل الترميم بالتعاون بين الجهات الدينية الرسمية في جمهورية مصر والبعثة الكازاخستانية. بعدسة الأخ أحمد عزت



السلطان قلاوون الألفي

٦٧٨ - ٦٨٩ هـ

هو قلاوون الألفي العلاني الصالحي النجمي أبو المعالي وأبو الفتوح السلطان الملك المنصور، أحد المماليك البحرية، اشتراه الأمير علاء الدين «آق سنقر» بألف دينار وهو مبلغ ضخم يدل على أهمية صاحبه وما يتمتع به من مواهب، فعُرف بالألفي، وبعد موت سيده انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأصبح لقبه الألفي العلاني الصالحي النجمي أبا الناصر محمد. يعود أصل قلاوون إلى منطقة القبجاق الواقعة شمالي البحر الأسود، وهو السابع بين الملوك الأتراك الذين حكموا مصر، والرابع ممن سُمّاه الرق. وعلى الرغم من أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة للسلطة إلا أن أسرة قلاوون شذت عن القاعدة واحتفظت بمنصب السلطنة لأكثر من قرن من الزمن، مما يعدّ حدثاً متميزاً بين المماليك، وهذا يدلّ على أهمية ما قدمته هذه الأسرة من جهة، وعلى الالتفاف الشعبي حولها من جهة ثانية، وقد مثّلت هذه الحقبة عصر ازدهار في دولة المماليك^(١).

أخذ نجم الأمير قلاوون يرتقي بسرعة في أثناء الأحداث التي رافقت قيام سلطنة المماليك، فقد أصبح أحد زعماء البحرية البارزين. وقد غادر مصر إثر مقتل زعيم المماليك البحرية أقطاي في عهد أيبك، وعاد إليها زمن بيبرس في أثناء تصديّه للمغول، وقد اعتمد عليه بيبرس في كثير من أعماله الحربية والسلمية. تقرب إليه بيبرس بالمصاهرة، فزوج ابنه الملك السعيد بركة من ابنة قلاوون غازية خاتون، ولكن هذه المصاهرة لم تنه أحلام قلاوون بالسلطة وطموحاته وهو يرى أنه الأكفأ، وقبوله بسلطنة أحد زملائه لا يعني بالضرورة القبول بسلطة ولده، ومع ذلك فقد اختار الطريق الدبلوماسي للوصول إلى السلطة وبطريقة مدروسة، وتدرجياً لما كان يتمتع به من ذكاء وبعد نظر، ولم يحاول مساعدة صهره الملك السعيد عندما حاصره أمراء المماليك، وإنما نصحه بالتنحي عن السلطة، وقبل أن يكون أتابكاً للسلطان الجديد الأمير بدر الدين «سلامش» ابن السلطان بيبرس^(٢).

وفي هذه الحقبة مهدّ لنفسه الطريق للوصول إلى السلطة فعزل كثيراً من مماليك بيبرس ومن الولاة الذين عينهم، وأحلّ محلهم مماليك موالين له، وتقرب من زملائه وأحسن إليهم، وتخلص من بعض منافسيه بإبعادهم عن مصر مثل: الأمير شمس الدين سنقر فقد عينه نائباً للسلطنة في الشام. واستقر رأي زعماء المماليك على خلع سلامش وتولية سيف الدين قلاوون منصب السلطنة سنة ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٩ م. وُصف قلاوون بأنبل الصفات، فإلى جانب صفاته الشخصية كحسن الصورة واكتمال الرجولة، فقد كان تام الشكل مستدير اللحية، عليه هبة الملك، ويتميز بالحشمة والسكينة والوقار. وفوق ذلك كان حليماً

عظيماً في سفك الدماء كارهاً للأذى مهيباً وشجاعاً.

تقرب قلاوون من العامة بطيب أعماله، وأقام عدداً من المنشآت العمرانية، منها مدرسة، وبیمارستان رتبّه على منوال بيمارستان نور الدين محمود في دمشق. لم يسلم قلاوون من المؤامرات والفتن الداخلية، فقد خرج عليه شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطنة بالشام، وأعلن نفسه ملكاً باسم الملك الكامل، ولكنه لم يلق التأييد من الشاميين، ودخل في سلسلة من الصراعات مع السلطان قلاوون انتهت بخسارته، ومع ذلك عفا عنه المنصور، وعينه حاكماً على إقليم إنطاكية، ونتيجة لمواقف المماليك الظاهرية منه؛ أنشأ عصبية خاصة به من المماليك الذين اشتراهم ورباهم تربية خاصة في أبراج القلعة، ولذلك عرفوا **بالمماليك البرجية**، واعتمد عليهم كثيراً لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية. وعلى الصعيد الخارجي، فقد تصدّى لجيش المغول بقيادة **أبغا بن هولاكو**، وخاض ضدهم معركة فاصلة في ضواحي **حمص**، انتهت بهزيمة المغول وانتصار المماليك نصراً كبيراً^(١).

واغتتم فرصة ضعف الصليبيين وما يسببه وجودهم من خطر، فأنزل بهم ضربة قاصمة؛ إذ استولى على **حصن المرقب وجبله واللاذقية**، وحاصر **طرابلس وفتحها**، وتهاياً لحصار عكا، ولكن المنية حالت دون ذلك فقد وافاه الأجل فجأة، ودفن في تربة بين القصرين لتنتقل السلطة بعده إلى ولده الأشرف خليل.

مستند تاريخي

(السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي وأبو الفتح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي النجمي، السابع من ملوك الترك بالديار المصرية، والرابع ممن مسه الرق. ملك الديار المصرية بعد خلع الملك السعيد، وصار مدبر مملكة الملك العادل بدر الدين سلامش إلى أن خلع سلامش، وتسلطن الملك المنصور قلاوون هذا من بعده في حادي عشرين، وقيل عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، وجلس على سرير الملك بأبهة السلطنة وشعار الملك وتم أمره. ولما استقل بالمملكة أمسك جماعة كثيرة من المماليك والأمراء الظاهرية وغيرهم، واستعمل مماليكه على البلاد والقلاع، فلم يبلع ريقه حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب دمشق، فإنه لما وصل إليه البريد إلى دمشق بسلطنة المنصور قلاوون في يوم الأحد سادس عشرين رجب، وعلى يده نسخة يمين التحليف للأمراء والجند وأرباب الدولة وأعيان الناس، فأحضروا إلى دار السعادة بدمشق وحلفوا إلا الأمير سنقر الأشقر نائب الشام، فإنه لم يحلف ولا رضي بما جرى من خلع سلامش وسلطنة قلاوون، فلم يلتفت أهل دمشق إلى كلامه. وخطب بجامع دمشق للملك **المنصور قلاوون** وجوامع الشام بأسرها خلا مواضع يسيرة توقفوا، ثم خطبوا بعد ذلك).

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢٦ / ١.

كان من الطبيعي أن يركز المماليك جهودهم للاستيلاء على **عكا**، منذ بدأ الظاهر بيبرس نشاطه العسكري في بلاد الشام. فسقوطها سيؤدي بالضرورة إلى تهوي المناطق الصليبية الواقعة في دائرة نفوذها، **ولا سيما الشريط الساحلي بين بيروت وصور**. وقد أسفرت العمليات العسكرية عن عقد السلطان اتفاقية **هدنة مع أسياذ عكا** عام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م، مدتها عشر سنوات.

أما المنصور **قلاوون**، فقد سعى حثيثاً لمنع التقارب بين **الصليبيين والمغول**، وهذا ما يعلل تعهده بضمنان سلامة أملاك أسياذ عكا من أي اعتداء، كي يتفرغ لجهة غزوات المغول لبلاد الشام. فأعاد السلطان للصليبيين بعض الأراضي التي سبق أن استولى عليها، ومنه ضمانات **للتصاري القاصدين من بلاد عكا زيارة كنيسة الناصرة**. وتشير بعض نصوص هدنة عكا إلى حالة القلق التي كانت تراود السلطان قلاوون من شيوع أخبار **مشاريع التحالف بين الصليبيين والمغول**، وهي مشاريع عمل اللاتين على تحقيقها جدياً، لضمان سلامة مستعمراتهم في فلسطين. لذا حرص السلطان على تضمين الهدنة نصاً يلزم أسياذ عكا بإنذاره بعزمهم على فسخ الهدنة قبل شهرين على الأقل من قدوم صليبية جديدة إلى الشرق. أما إذا علم أحد الطرفين بحركة المغول، أو أي شعوب أخرى آتية من سهوب آسيا باتجاه الشام، فيتوجب عليه أن يخطر الطرف الآخر بذلك كي يتدبر أمره، ويستعد لمواجهة الخطر الداهم. ولأن خطر المغول يستهدف **المسلمين** أساساً، فقد تعهد أسياذ عكا بتوفير الحماية لهؤلاء إذا ما أرغموا على الانهزام أمام المغول إلى بلاد مملكته^(١).

لقد كانت الحالة التي سادت بلاد الشام على أهبة الاستعداد من تكرار هجمات المغول، وترقب المماليك الدائم **لحركة المدد الأوروبية إلى الشرق**، فضلاً عن التنافس الحاد بين أمراء اللاتين أنفسهم، قد دفع المماليك والصليبيين إلى **تجديد الهدن**، فإن ثمة عاملاً كان له أهمية أبعد مدى في الزمان أفسد كل جهد ممكن ذلك بأن المماليك المطعون في مشروعيتهم من أنصار الأيوبيه ومن بقايا الدولة العبيدية في مصر والشام، وجدوا في **إحياء خلافة بني العباس في القاهرة**، بعد سقوطها في بغداد على يد المغول عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م، فرصة لإضفاء صفة الشرعية الدينية على حكمهم، ورأوا في **متابعة حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول ما يعزز مكانتهم لدى المسلمين كافة**، ويجعل سلاطين المماليك في مرتبة أعلى من حكام البلاد الإسلامية الآخرين؛ باعتبارهم حماة الإسلام والخلافة الإسلامية، لذا لم يكن بوسع المماليك أن يرضوا باستمرار وجود دولة أجنبية دخيلة على بلاد المسلمين، بالرغم من "علاقات حسن الجوار" التي ضمنها اتفاقيات الهدن، ولو إلى حين^(٢).

١ - ٢، د. أحمد حطيط، تاريخ لبنان الوسيط، دراسة في مرحلة الصراع المملوكي - الصليبي.

تصفية التجمعات الصليبية في بلاد الشام في عهد قلاوون



واصل المماليك جهادهم ضد الصليبيين في عهد السلطان "المنصور قلاوون"، الذي تولى السلطنة في سنة (٦٧٨هـ = ١٢٧٩م)، فاستولى على "حصن المرقب" سنة (٦٨٤هـ = ١٢٨٥م)، واسترد "اللاذقية" سنة (٦٨٦هـ = ١٢٨٧م)، وفتح "طرابلس" بعد حصار دام شهرين في (٦٨٨هـ = ١٢٨٩م) ثم تلتها "بيروت" و"جبلة"، ولم يبق للصليبيين في الشام سوى "عكا" و"صيدا" و"عتليت" وبعض المدن الصغيرة، وتجهز لفتح "عكا"، غير أن المنية كانت أسبق من إنجاز أمله؛ فتوفي في (ذي القعدة ٦٨٩هـ = نوفمبر ١٢٩٠م).

لقد اندرجت اتفاقيات الهدن المعقودة مع الصليبيين في سياق إستراتيجية عمادها إقامة الأحلاف واستفراد الأعداء، أرسى قواعدها السلطان المظفر قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ / ١٢٥٩-١٢٦٠م)، حين نجح عشية معركة عين جالوت (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م)، في عقد اتفاقية مع بارونات عكا قضت بالتمسك الحياد من الصراع المملوكي-المغولي، والسماح لجيشه باجتياز أراضي عكا، وهو في طريقه إلى ساحة المعركة. وتابع سلاطين المماليك سياسة سلفهم قطز، ونقضوا عهودهم مع الصليبيين حينما يشتمون منهم رائحة الغدر والخيانة، في أثناء مجيء تعزيزات صليبية ضد المسلمين!



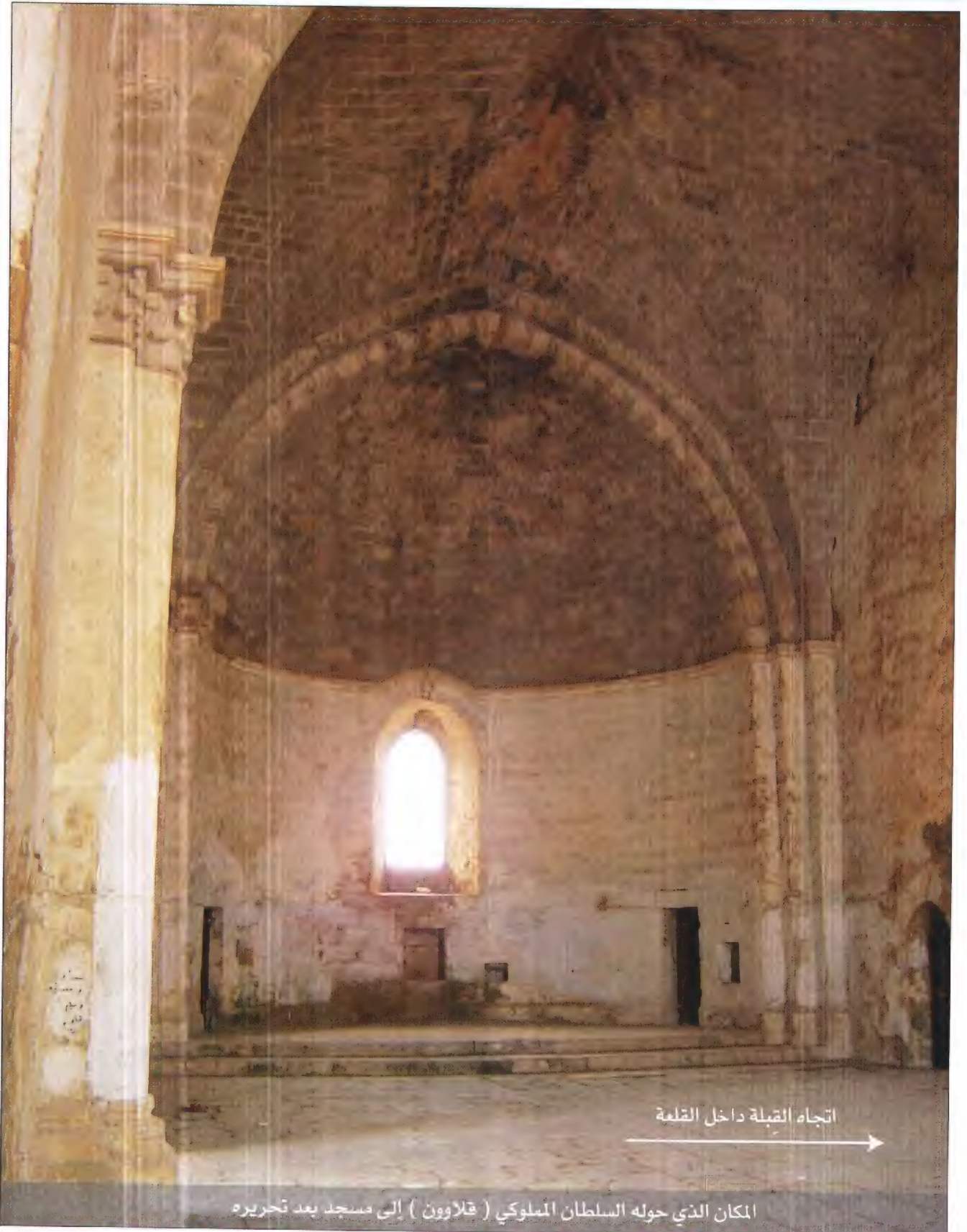
المؤلف أمام واجهة القلعة (حصن المرقب) الذي استعاده السلطان قلاوون من أيدي الصليبيين

قلعة (حصن) المرقب: حصن يقع على بعد ٥ كم جنوب شرقي بانياس (محافظة طرطوس). بناها العرب عام ١٠٦٢م. احتلها الصليبيون عام ١١١٧م، وأصبحت من أهم مواقعهم الحصينة في المنطقة. استعادها السلطان قلاوون في العام ١٢٨٥م، بعد قتال عنيف وحصار استمر ٣٨ يوماً، وتم جلاء حامية القلعة إلى إمارة عكا. كانت هزيمة الصليبيين في المرقب إيذاناً بانتهاء وجودهم في الشرق.

أمر قلاوون بتحصين القلعة وترك فيها فرقة من المماليك البحرية. يحيط بالقلعة سوران، داخلي وخارجي، يحتوي الأخير على ١٤ برجاً دفاعياً، لعل أهمها البرج الجنوبي، وهو برج ضخّم تزيّنه أحجار بيضاء نقش عليها تاريخ فتح القلعة على يد قلاوون. من أجزاء القلعة المهمة أيضاً قاعة الفرسان والقاعة الكبيرة وكنيسة تعود للقرن الثاني عشر.



قلعة (حصن المرقب) من الداخل



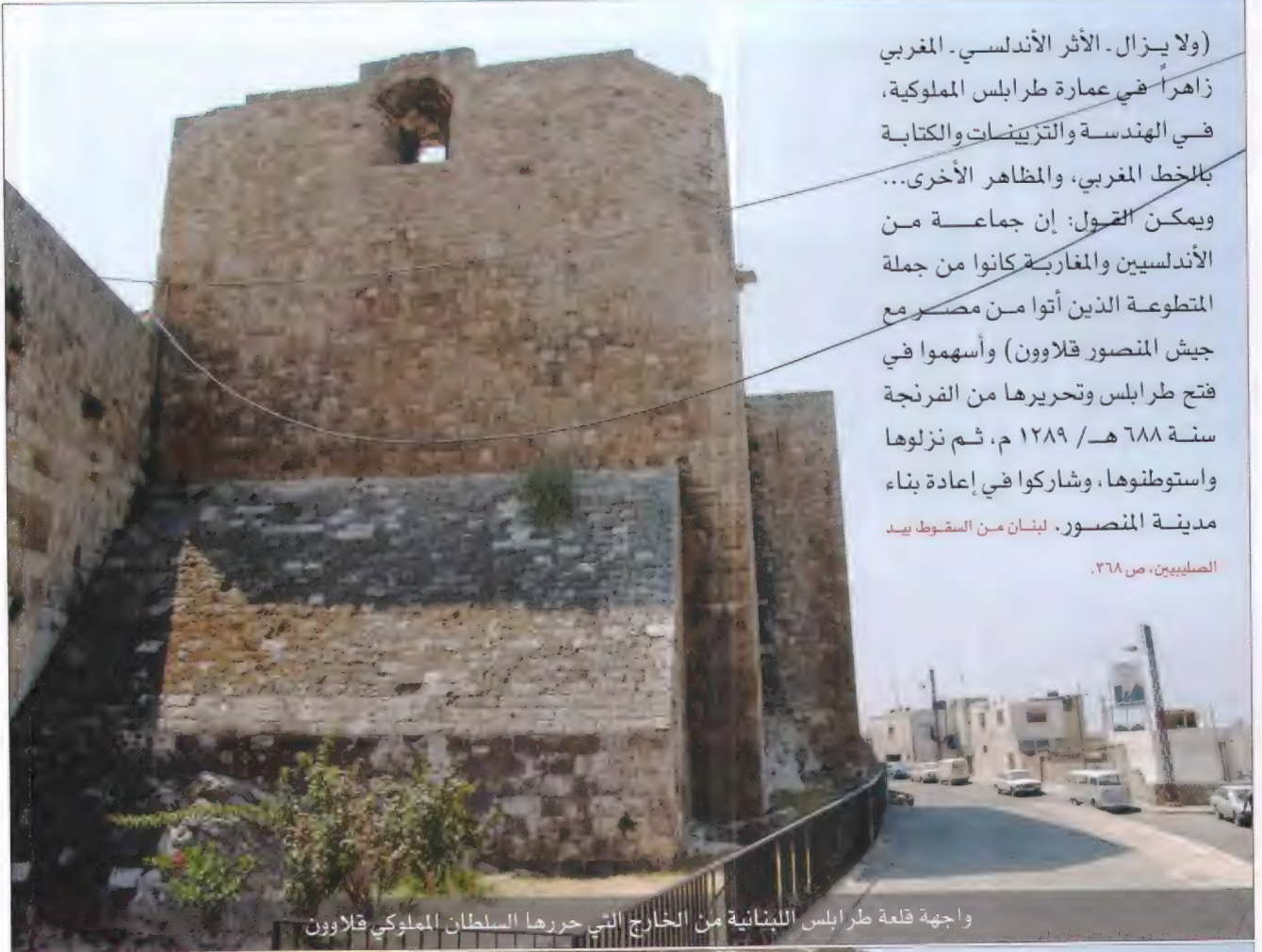
اتجاه القبلة داخل القلعة



المكان الذي حوله السلطان المملوكي (قلاوون) إلى مسجد بعد تحريره

(ولا يزال - الأثر الأندلسي - المغربي زاهراً في عمارة طرابلس المملوكية، في الهندسة والتزيينات والكتابة بالخط المغربي، والمظاهر الأخرى... ويمكن القول: إن جماعة من الأندلسيين والمغاربية كانوا من جملة المتطوعة الذين أتوا من مصر مع جيش المنصور قلاوون) وأسهموا في فتح طرابلس وتحريرها من الفرنجة سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م، ثم نزلوها واستوطنوها، وشاركوا في إعادة بناء مدينة المنصور. لبنان من السقوط بيد

الصليبيين، ص ٢٦٨.

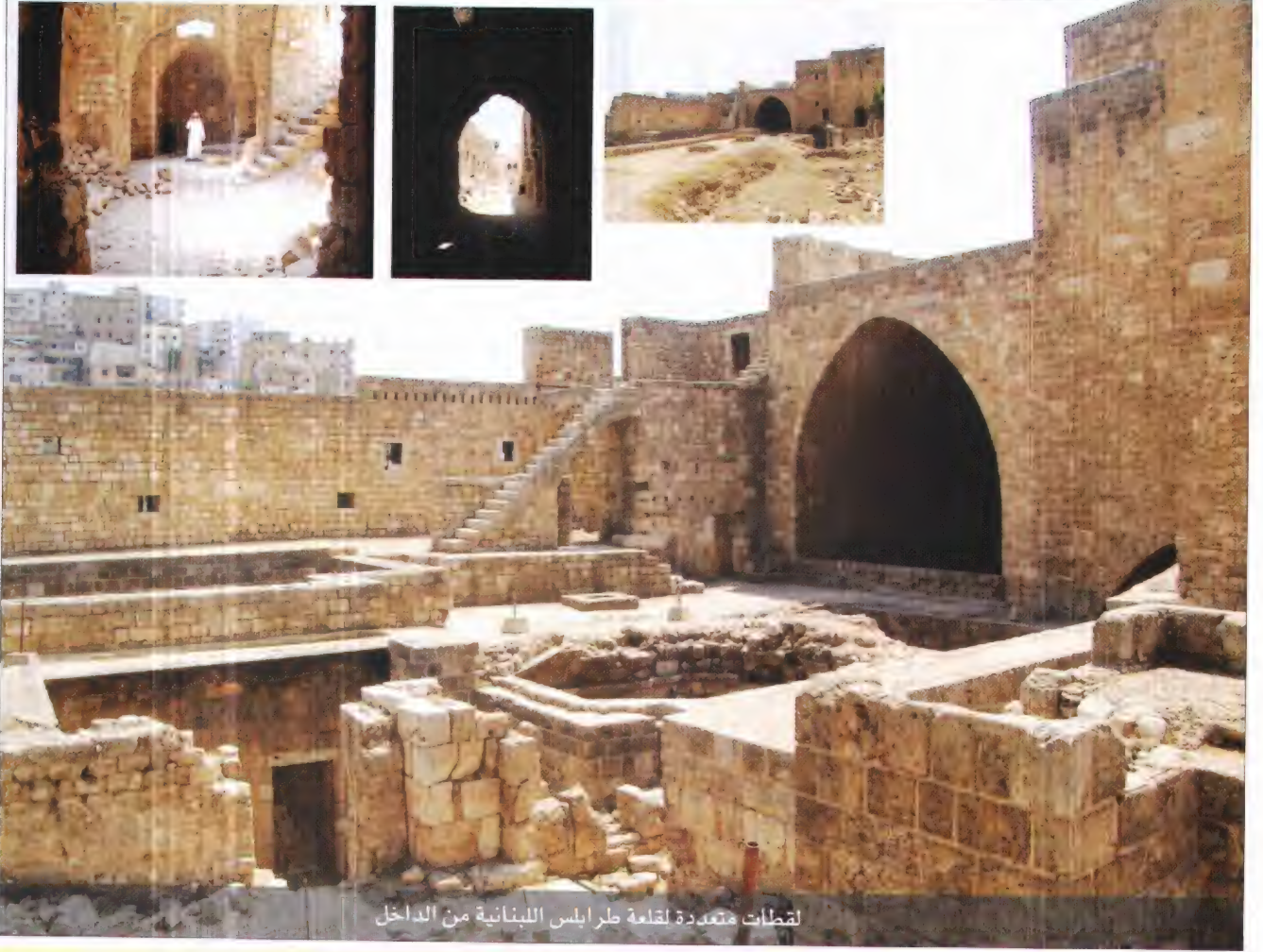


واجهة قلعة طرابلس اللبنانية من الخارج التي حررها السلطان المملوكي قلاوون

أخذ الصليبيون سنة ١١٠٠م، يشددون حملاتهم على سواحل المنطقة قصد التوغل إلى بيت المقدس في فلسطين، وكان ريمون دي سنجيل يحلم بإنشاء إمارة له ولأولاده في طرابلس، وقد حاول أكثر من مرة بمساعدة الأساطيل الجنوبية الإيطالية خلال سنوات عدة فلم يفلح، وقد تابع خلفه محاصرة طرابلس وتمكنوا من الاستيلاء عليها عام ١١٠٩م، وظل يحكمون فيها ومن بعده أولاد وأحفاد ريمون دي سنجيل حتى العام ١٢٨٩م.



مدخل القلعة

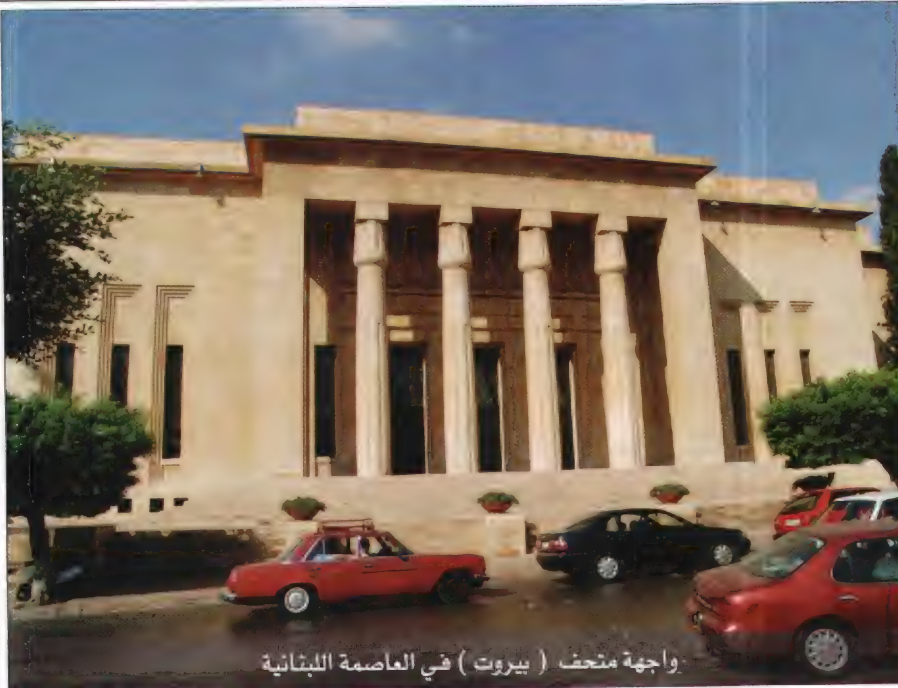


لقطات متعددة لقاعة طرابلس اللبنانية من الداخل

كان التنافس بين الأمراء الصليبيين على الحكم على أشده، مما أضعف قوتهم وشتت شملهم، وهنا وجد **المماليك** في مصر الفرصة سانحة أيام **حكم السلطان قلاوون** الذي جهز حملة عسكرية كبيرة من ٤٠ ألف فارس، و ١٠٠ ألف جندي من المشاة، حيث حاصر **طرابلس** في أول آذار من عام ١٢٨٩م، وظل يهاجمها حتى ٢٦ نيسان أي لمدة ٣٤ يوماً، واستولى عليها وقتل كل من غدر فيها من الصليبيين، والذين تمكنوا من النجاة الغادرين، **ولجأوا إلى جزيرة صغيرة قبالة ساحل طرابلس** حيث كان يوجد فيها كنيسة، لحقت بهم **جيوش السلطان قلاوون** وقتلت الغادرين منهم. وبعد استيلاء **المماليك على طرابلس**، أمر السلطان **قلاوون** بهدمها ولم يبق فيها حجر على حجر، ثم أمر ببناء مدينة "طرابلس"، من جديد على ضفتي النهر. بقيت طرابلس تحت حكم **المماليك** قرنين وربع قرن، حتى دخلت قوات السلطان سليم العثماني البلاد العربية وأنهت حكم **المماليك** فيها، واستمر حكم **العثمانيين** أربعة قرون إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، ودخل الحلفاء منطقة الشرق الأوسط؛ وكان لبنان من نصيب الفرنسيين، حتى نال لبنان استقلاله فيما بعد.



أحد المداخل الرئيسة إلى (بيروت) العاصمة اللبنانية



واجهة متحف (بيروت) في العاصمة اللبنانية

باسترجاع المسلمين طرابلس،
فقد **الصليبيون** بعدها، **بيروت**
وجبله وما حولها من الحصون
دون مقاومة تذكر.

ولم يبق في حوزتهم بالسواحل
الشامية سوى مدينة **جبيل** التي
أقر السلطان **قلاوون**، حاكمها
الصليبي عليها مقابل مبلغ من
المال، بالإضافة إلى مدن عكا
وصور وصيدا، وحصن عثليت.



المدخل الرئيس لقلعة جبيل التاريخية في لبنان التي أقر السلطان قلاوون، حاكمها الصليبي عليها مقابل مبلغ من المال

على مدى أكثر من ثلاثة قرون ارتبط مصير **مدينة جبيل** بمصير مدينة طرابلس، التي أكدت هيمنتها كعاصمة إقليمية على البلاد الممتدة من نهر الكلب جنوباً حتى طرطوس شمالاً. بقي الأمر كذلك في المرحلة الصليبية التي دامت حوالي قرنين من الزمن، أي من مطلع القرن الثاني عشر (حزيران ١٠٩٨م تاريخ سقوط إنطاكية بأيدي الصليبيين) حتى أواخر القرن الثالث عشر (آب ١٢٩١م تاريخ فتح طرطوس على أيدي المماليك)؛ فقد ظلت إقطاعية جبيل بزعامة أميرات آل الأمبرياتشي الجنويين تابعة لإقطاعية طرابلس (كونتية) بزعامة كونتات آل تولوز الفرنسيين.

ومع مطلع القرن الرابع عشر وحتى منتصفه كانت جبيل جزءاً من الدولة الأيوبية المتمركزة في القاهرة، وانتقلت إلى الدولة المملوكية بعد استلام المماليك السلطة في مصر، وظلت ترنو باتجاه طرابلس، المدينة المستقطبة التي ازدانت في هذه المرحلة بمجموعة رائعة من الأعمال المعمارية، التي لا تزال فخراً لمدينة اليوم.

معركة حمص الثانية ١٤ رجب سنة ٦٨٠ هـ

وقعت معركة **حمص الأولى** بتاريخ ٥ محرم ٦٥٩ هـ / ١٠ ديسمبر ١٢٦٠ م في عهد السلطان الظاهر بيبرس، ما بين جيش مغول الإلخانات، وقوات يقودها الملك الأشرف موسى شيركوه صاحب **حمص** والملك المنصور صاحب **حماة** وزامل بن علي أمير **بني ربيعة**. وكان ذلك بعد انتصار المماليك بقيادة قطز على المغول في معركة عين جالوت، حيث أعدم هولاكو خان سلطان دمشق الأيوبي وبقية الأمراء الأيوبيين الذين عنده كنوع من الانتقام، وبذلك انتهى حكم الأيوبيين بالشام. وأيضاً أوقفت نتيجة المعركة زحف المغول وأخرجتهم خارج الشام. وبسبب الحرب الأهلية الدائرة ما بين هولاكو وابن عمه - بركة خان - الذي غضب لتدمير هولاكو بغداد، فأراد الانتقام لذلك فثارت حرب ما بينهما.

أما معركة **حمص الثانية** وقعت بالقرب من مدينة حمص بتاريخ ١٤ رجب ٦٨٠ هـ / ٢٩ أكتوبر ١٢٨١ م بين جيش مغول الإلخانات ومركزهم في إيران وهم جزء من إمبراطورية المغول، وبين المماليك بقيادة **المنصور قلاوون**. وتلك المعركة هي المحاولة الثانية **لأبغا خان** للاستيلاء على الشام مرة أخرى. فبعد هزيمة المغول في **عين جالوت** ثم عند بلدة "أبلستين" بآسيا الصغرى في ١٠ ذي القعدة ٦٧٥ هـ بقيادة بيبرس أيضاً. أرسل أبغا خان هذه المرة أخوه **منكوتمر** بجيش ضخم يقارب ما بين ٥٠ إلى ٨٠ ألفاً من المغول، وبإسناد ٣٠ ألف أجنبي؛ غالبيتهم من جورجيا بقيادة ملكهم ديمتريوس الثاني، والأرمن بقيادة ليو الثالث.

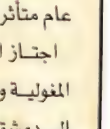
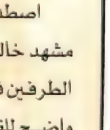
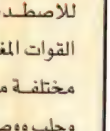
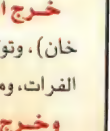
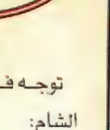
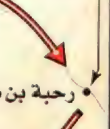
علم **قلاوون** من أسير مغولي إن المغول يستعدون لغزو الشام بحوالي ٨٠ ألف محارب، فكتب إلى مصر وغيرها من البلاد يستدعي الجيوش لأجل اقتراب مجيء المغول، فقدم الناس عليه ووفدوا إليه من كل مكان، وجاءته التركمان والأعراب وغيرهم، وكثرت الأراجيف بدمشق، وكثرت العساكر بها. ووصلت المغول صحبة **منكوتمر** بن هولاكو إلى **عنتاب**، وسارت العساكر إلى نواحي **حلب** يتبع بعضها بعضاً، فكتب السلطان المنصور قلاوون إلى سنقر: "إن التتار قد أقبلوا، والمصلحة أن نتفق عليهم، لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم، وإذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا أحداً"، فكتب إليه سنقر بالسمع والطاعة، فتم الصلح بينهما، واقطع لسنقر إنطاكية وأفامية.

قرر قلاوون عقد هدنة مع الإمارات الصليبية ليأمن جانبهم خلال صراعه مع المغول، فالمعروف أن بيبرس عقد هدنة مع عكا سنة ١٢٧١ م لمدة عشر سنوات، وعقد قلاوون سنة ١٢٨١ م هدنة مع بوهمند أمير طرابلس، وبذا يكون قد أؤمن جانب الصليبيين في معركته القادمة مع المغول. فامتنع الفرنجة عن الانحياز لأي طرف عند مرور قلاوون بجيشه شمالاً لملاقاة المغول، إلا أن الجنود

معركة حمص الثانية ١٤ رجب سنة ٦٨٠ هـ

١ التحالف المغولي بقيادة أبغا بن هولأكو

٢ الجيش المملوكي بقيادة السلطان قلاوون



القائد المغولي (أبغا خان) يرسل أخاه (منكوتمر) وهو في كبادوكيا في آسيا الصغرى بجيش ضخم يقارب ما بين ٥٠ إلى ٨٠ ألفاً من المغول وإسناد ٣٠ ألف أجنبي غاليبتهم من **جورجيا** بقيادة ملكهم ديمتريوس الثاني والأرمن بقيادة ليو الثالث.

سلاجقة الروم

الإمبراطورية البيزنطية

ليماسول

بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)

مملكة بيت المقدس (عكا)



سلطنة

المماليك

الجيش المملوكي بقيادة السلطان قلاوون

٥٠ ٢٥ ٠ كم

إبلة

الوضع السياسي كان السلطان المملوكي "قلاوون الصالح" الحاكم على مصر وبعض بلاد الشام، "وستقر الأشقر" الحاكم على دمشق وأعمالها، و"مسعود بن الظاهر" الحاكم على الكرك، و"ناصر الدين محمد بن تقي الدين" الحاكم على حماة، و"يوسف بن عمر" الحاكم على اليمن، و"نجم الدين بن أبي نعي الحسني" الحاكم على مكة، و"عز الدين جماز الحسني" الحاكم على المدينة.

مستعمرات صليبية

إمارة أرمنية

مستعمرات بيزنطية

مناطق تحت سلطان المسلمين

توجه في جمادى الآخرة سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م جيشان مغوليان إلى بلاد الشام:

خرج الجيش الأول من إقليم الجزيرة وتعداده ٢٠٠٠ فارس بقيادة (أبغا خان)، وتولى في أثناء زحفه إخضاع المدن والحصون الإسلامية على امتداد نهر الفرات، ومر في طريقه بالرحبة ورابط هناك بهدف مراقبة التحركات المملوكية. و**خرج الجيش الثاني** من كبادوكيا عن طريق عينتاب قاصداً حمص للاستطدام بالمماليك، وتعداده مائة ألف جندي بقيادة منكوتمر أخي أبغا، وضم القوات المغول الرئيسة، وانضم إليه ليون الثالث ملك أرمنية الصغرى، وجموع مختلفة من الكرج والعجم وغيرهم، وهبط وادي العاصي بعد أن اجتاز عينتاب وحلب ووصل إلى ظاهر حمص.

اصطدم **الجيشان** ضحى يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠ هـ، بالقرب من مشهد خالد بن الوليد في رحى معركة طاحنة، قال ابن كثير: (واقترل الجنود من الطرفين قتلاً عظيماً لم ير مثله من أعصار متطاولة). وأسفر القتال عن انتصار واضح للقوات المملوكية، وقتل الكثير من جنود المغول، وجرح منكوتمر وتوفي بعد عام متأثراً بجروحه.

اجتاز المغول المنهزمون نهر الفرات الذي أضاعى حداً فاصلاً بين الدولتين المغولية والمملوكية، ولم يغامر قلاوون بمطاردة الأرمن وإنزال العقاب بهم، فعاد إلى دمشق ثم إلى القاهرة.

الأسبتارية **بالمرقب** لم يعدوا أنفسهم داخلين في عقد الهدنة الذي اشتركت فيه فرسان الرهبان بعبًا، فانهازت جماعة منهم إلى ملك أرمينية.

نزل المغول بقلعة **الرحبة** في أواخر جمادى الآخرة جماعة من الأعراب، وكان فيهم ملك المغول إبغا ينظر ماذا يفعل أصحابه، وكيف يقاتلون أعداءه. والسلطان المنصور معسكراً في **حمص** في عساكر كبيرة من الأتراك والتركمان وغيرهم، وأقبل المغول في مائة ألف مقاتل أو يزيدون.

عند بداية المعركة عسكر المغول في مائة ألف فارس، وعسكر المسلمون على النصف من ذلك أو يزيد قليلاً. والجميع فيما بين **جامع خالد بن الوليد** إلى الرستن. على ميمنة الجيش المغولي قوات الكرج ومعهم ليو الثالث ملك قليقية والأسبتارية، وعلى ميسرة الجيش أمراء المغول ويقود منكوتر قلب الجيش. واصطف المسلمون بحيث أخذ صاحب حماة وبعض أمراء المماليك ميمنة الجيش، ووقف العرب بقيادة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا من قبيلة بني مرة، وآل فضل أبناء ربيعة في أربعة آلاف فارس. وشغل سنقر الأشقر مع خيالاته التركمان الميسرة. ووقف في الصدر ٤ آلاف شركسي برجي ووحدات أخرى منتقاة من المماليك. واتخذ قلاوون لنفسه موقعاً على تلة صغيرة يستطيع منها أن يراقب سير المعركة ومعه مئتي مملوك. ثم بدأت المفارز المغولية تظهر، وتشكل أمام المماليك وحلفائهم جيش من المقاتلة أخذ مساحة ما بين مشهد خالد بن الوليد في حمص إلى الرستن، أي حوالي ٢٠ كم.

وفي يوم الخميس رابع عشر رجب التقى الجمعان وتواجه الخصمان عند طلوع الشمس. فهاجم المغول ميمنة الجيش بوحشية عنيفة، فثبتت الميمنة بعناد كبير أمام الهجوم، فانقض هؤلاء بدورهم على المغول ودفعوا ميسرته إلى الصدر. ولكن في أثناء ذلك انسحقت الميسرة بقيادة سنقر وهرب باتجاه أسوار حمص، فاضطربت الميمنة أيضاً. وكسر جناح القلب الأيسر وثبت **السلطان قلاوون** ثباتاً عظيماً جداً في جماعة قليلة، وقد انهزم كثير من عسكر المسلمين، والتتار ومعهم الأرمن والأسبتارية في آثارهم حتى وصلوا وراءهم إلى بحيرة حمص، ووصلوا حمص وهي مغلقة الأبواب، فقتلوا خلقاً من العامة وغيرهم، ولكن مماليك سنقر استمروا بالهروب بلا توقف باتجاه دمشق، وهم ينشرون أنباء هزيمة المسلمين، مما خلق جواً من الذعر الرهيب في مؤخرة جيش قلاوون، وأشرف المسلمون على خطة عظيمة من الهلاك. ولكن **قلب الجيش المملوكي ومعهم السلطان وقف بثبات**، وأمر قلاوون بقرع الطبول، وهي إشارة على التجمع. فرجعت بعض فلول تتحرك صوب الوسط، وبدأ جلياً أن المعركة قد حسمت للمغول.

سعى المنتصور قلاوون سعيًا حثيثًا لمنع التقارب بين الفرنج والمغول، وهذا ما يعلل تعهده بضمان سلامة أملاك أسيا د عكا من أي اعتداء كي يتفرغ لجهة غزوات المغول لبلاد الشام. فأعاد السلطان للفرنج بعض الأراضي التي سبق أن استولى عليها، ومنه ضمانات للنصارى القاصدين من بلاد عكا زيارة كنيسة الناصرة. وتشير بعض نصوص هدية عكا إلى حالة القلق التي كانت تراود السلطان قلاوون من شيوع أخبار مشاريع التحالف بين الفرنج والمغول، وهي مشاريع عمل اللاتين على تحقيقها جدًّا، لضمان سلامة ممتلكاتهم في فلسطين.



جامع خالد بن الوليد - رضي الله عنه - بحمص التي دارت بالقرب منه معركة حمص بين المغول والمماليك

في أثناء ذلك سار الأمير **أزدمير الحاج** أحد قادة المماليك على حصانه، وبرفقته بضعة من المقاتلين باتجاه المغول صائحاً: إنه يستسلم لرحمة منكوتر. وبعد أن اقترب من المغول، قال: إنه يرغب في أن يخبر القائد أمراً مهماً، فاصطحب أزدمير ومقاتلوه إلى خيمة الخان. وبمجرد أن رأى أزدمير **منكوتر** حتى هاجمه وضربه برمحه وأسقطه عن حصانه. ففقد منكوتر الوعي من شدة الضربة، فاعتقد من حوله أنه قد قتل، تبع ذلك اضطراب رهيب، وقام مماليك أزدمير بمذبحة حقيقية وهم يحمون قائدهم. وماتوا جميعاً من ضربات حرس الخان الشخصيين، **وقد أوجد سقوط منكوتر الذعر في صفوف المغول**، وكان المماليك ينتظرون تلك اللحظة، ثم هاجموا العدو بضراوة، فارتبك المغول، فجاءهم الأمير عيسى بن مهنا من ناحية العرض فصدّم المغول فاضطربت الجيوش لصدّمته، وقتلوا من المغول مقتلة عظيمة جداً، ولم يعودوا يحتملون وطأة الهجوم وهربوا. هرب قسم باتجاه حلب، بينما فر الآخر باتجاه السلمية والبرية، والأخرى إلى ناحية حلب والفرات. فأرسل السلطان في آثارهم من يتبعهم.

في أثناء ذلك عاد المغول ومعهم الملك ليو الثالث بجيشه، الذين كانوا يطاردون سنقر، ومعهم الكثير من الغنائم غنموها من ضواحي حمص. ولم يجدوا أحداً في ساحة المعركة، وكان السهل ممتلئاً بجثث أخوتهم. صدمهم هذا المشهد، وفي تلك اللحظة كان السلطان وحرسه مختبئين ويمسكون بأعنة الخيل، وعددهم يقارب الألف، إذ إن البقية قد تم إرسالهم خلف المغول الفارين. عندما اجتمع البقية من المغول في ساحة المعركة **أعطى السلطان قلاوون** الإشارة بالهجوم، فانقض المماليك على العدو ودارت رحى معركة رهيبة، أجبروهم على الهروب، وكان ذلك عند الغروب. وقد تحمل المغول خسائر رهيبة، فمات عدد كبير منهم في أثناء الفرار باتجاه ضفاف الفرات، أكثر ممن قتل في أثناء المعركة نفسها. واختبأت بقيتهم بين أدغال القصب، فأشعل المماليك النيران في تلك الأدغال، فمات عدد كبير منهم جراء النار والدخان. وكان لزاماً على ليو أن يشق طريقه إلى الشمال، مما كبده خسائر فادحة في الأرواح.

بعد المعركة كان **أبغا** مشغولاً بمحاصرة **قلعة الرحبة**، فلما بلغه هزيمة أخوه بجمص فر هارباً بجنده. وقد صب جام غضبه على أخيه منكوتر، فقال له: "لَمْ تَمُتْ أَنْتَ والجيش بدلاً من الهزيمة؟". بعدها بعام مات أبغا وخلفه أخوه أحمد تكودور الذي غير سياسته بعد إشهار إسلامه، وفضل التحالف مع المماليك والمسلمين.

الهدنة بين المسلمين والصليبيين في عهد السلطان قلاوون

عنوان الهدنة	تاريخها	مدتها	طرفا الهدنة
الهدنة بين السلطان قلاوون والصليبيين في عكا.	٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م	١٠ سنوات و ١٠ أشهر و ١٠ أسابيع	السلطان قلاوون ومقدم الأسبترية.
الهدنة بين السلطان قلاوون وصاحب طرابلس.	٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م	١٠ سنوات و ١٠ أشهر و ١٠ ساعات	السلطان قلاوون وبوهيموند السابع صاحب طرابلس.
الهدنة بين السلطان قلاوون والصليبيين في عكا.	٦٨١ هـ / ١٢٨٣ م	١٠ سنوات و ١٠ أشهر	السلطان قلاوون وأفريير كليام ديباجوك مقدم الداوية بعكا.
الهدنة بين السلطان قلاوون والصليبيين في عكا وصيدا وعثليت.	٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م	١٠ سنوات و ١٠ أشهر و ١٠ ساعات	السلطان قلاوون والصليبيين في عكا وصيدا وعثليت.
الهدنة بين السلطان قلاوون وحاكمة صور.	٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م	١٠ سنوات و ١٠ أشهر و ١٠ أيام	السلطان قلاوون ومرجريت بنت سير هنري حاكمة صور.
الهدنة بين السلطان قلاوون وملك عكا.	٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م	١٠ سنوات و ١٠ أشهر و ١٠ ساعات	السلطان قلاوون والملك هنري ملك عكا.
الهدنة بين السلطان قلاوون والجنوية في طرابلس.	٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م	لم تذكر الهدنة	السلطان قلاوون والجنوية الإيطاليين.

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون

٦٨٩ - ٦٩٢ هـ

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي، ثامن سلاطين المماليك الأتراك البحرية في الشام ومصر. ولد في مصر وبها نشأ. عينه والده السلطان قلاوون ولياً لعهد، بعد وفاة أخيه الأكبر علاء الدين علي سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م ونودي به سلطاناً بعد وفاة أبيه قلاوون، سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م، فجدد له الأمراء والجند البيعة، وأخذ في ترتيب أمور مصر، فأبقى الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري نائباً للسلطنة في مصر، واختار لوزارته شمس الدين محمد بن السلعوس الدمشقي، وكان نائبه في دمشق الأمير حسام الدين لاجين، ومن بعده علم الدين سنجر الشجاعي ثم عز الدين أبيك الحموي.

لم يكن الأشرف خليل مُقرباً من أبيه قلاوون في أيام سلطنته، حتى إنه تردد في منحه ولاية العهد، ومع ذلك فقد ناب عنه أكثر من مرة في غيابه، وخاصة عندما حاصر قلاوون مدينة طرابلس عام ٦٨٨ هـ. وقد سعى الأشرف خليل منذ توليه السلطة إلى فرض هيمنته الكاملة على شؤون الحكم والحد من تسلط أمراء المماليك، وتركت مساعيه هذه بصمات قوية على عهده القصير، فلم تكدم الأشرف خليل ترسخ في الملك حتى راح كبار الأمراء، الذين كان لهم باع طويل في عهد أبيه، يتآمرون عليه، فصادر أكثرهم وأقصاهم عن أعمالهم، وقتل بعضهم مثل حسام الدين طرنطاي، وسجن عدداً آخر منهم مثل شمس الدين سنقر الأشقر، وسيف الدين بن جرمك الناصري، وحسام الدين لاجين، وبدر الدين بيسرى، وجمال الدين أقوش الأفرم المنصوري وغيرهم، وأطلق جماعة منهم بعد أن سجنهم.

مستند تاريخي

(الأشرف خليل، خليل بن قلاوون، السلطان الملك الأشرف صلاح الدين ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، جلس على تخت الملك في ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة، بعد موت والده، واستفتح الملك بالجهاد، وسار فتنازل عكا وافتتحها، ونظف الشام كله من الفرنج، ثم سار في السنة الثانية فتنازل قلعة الروم وحاصرها خمسة وعشرين يوماً وافتتحها، ثم في السنة الثالثة جاءته مفاتيح قلعة بهسنا من غير قتال إلى دمشق، ولو طالبت مدته ملك العراق وغيرها، فإنه كان شجاعاً مقداماً مهيباً عالي الهمة يملأ العين ويرجف القلب. وكان ضخماً سميناً كبير الوجه بديع الحمال مستدير اللحية، على صورته رونق الحسن وهيبة السلطنة. وكان إلى جوده وبذله الأموال في أغراضه المنتهى، تخافه الملوك في أقطارها: أباد جماعة من كبار الدولة، وكان منهمكاً على اللذات: لا يعبأ بالتحرز على نفسه لشجاعته...).

محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي الداراني الدمشقي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٧١.

(١) القضاء نهائياً على الوجود الصليبي الفرنجي في عهد السلطان (الأشرف خليل)

بعد أن فتح **المنصور قلاوون** (٦٧٩ - ٦٨٩ هـ) طرابلس وعزم على حصار **عكا** ولكن المنية عاجلته. خلفه ابنه **الأشرف خليل** (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) الذي توجه بقواته نحو عكا، واجتمعت إليه جيوش مصر والشام سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) فقام بمحاصرتها مدة أربعة وأربعين يوماً، ورمأها بالمنجنيق، حتى فتحها في جمادى الأولى من عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م)، برغم المقاومة العنيدة التي أبدتها حاميتها، وإمدادات **قبرص** لها - حيث إن الصليبيين كانوا يعلمون أنها آخر أمل لهم في البقاء في الشام - وقد فر بعض سكانها إلى عرض البحر المتوسط، وتكدسوا في السفن التي غرق بعضها لكثرة من كانوا على ظهرها .

وبعد ذلك قام **الأشرف خليل** بالاستيلاء بسهولة على **بقية ما تبقى بأيدي الصليبيين** مثل: **صور** و**حيفا** اللتين قاومتا مقاومة كبيرة، ثم اضطرتا للتسليم فتجتأ بذلك من التخریب، ثم استولى الأشرف خليل على **عثليت (عثليت) وصيدا وانطرسوس**، وبهذا تم القضاء نهائياً على الوجود الصليبي في الشام، وإن كان الصليبيون في **جزيرة إرواد** المقابلة للساحل الشرقي قد ظلوا يغيرون على السواحل بين الفينة والأخرى ويقطعون الطرق، مما أزعج نائب السلطنة المملوكية على الشام، وجعله يطلب معونة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فجهز أسطولاً ووجهه نحو هذه الجزيرة بعد أن ضم إليه جيش **طرابلس**، ففتحها وملكها وقتل من أهلها خمسمائة، وذلك عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م).

وهكذا بالقضاء على **الصليبيين** في عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وبزوال **الخطر المغولي** عن **الشام ومصر**، أصبح **لدولة المماليك** شأن عظيم في السياسة الدولية خصوصاً في عهد سلطانها الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة.

أدرك **الصليبيون** في **أوروبا** فشل محاولاتهم المتلاحقة للعدوان على **بلاد الإسلام** في الشام ومصر، ورأوا زوال آخر إماراتهم بعد قرنين من تأسيسها، برغم ما بذل في سبيل إقامتها من جهود مادية ومعنوية، ومن سفك في سبيلها من دماء، كما لمسوا فتور الحماس الصليبي، بعد فشل حملتي **لويس التاسع السابعة والثامنة على مصر وتونس**، لذلك اضطروا إلى تقبيل اليد التي حاولوا قطعها، فلجأوا إلى الدبلوماسية والمراسلات والسفراء والهدايا، عليهم يحققون عن طريقها ما فشلوا في تحقيقه بالتعصب والسيف.

انهال سفراء الدول الأوروبية على بلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة، محملين بالهدايا والرسائل التي تلح في طلب الصداقة والمواذعة. وتوثيق عرى الصداقة، في حين كان غرضها الأساسي هو استدراج عطف الناصر على النصارى في دولته، سواء من كان منهم من الأقباط في مصر أو من أهل الشام، فأرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين في عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) رسالة إلى الناصر طالباً منه أن يعامل نصارى الشرق معاملة عادلة، مقابل معاملة مماثلة للمسلمين، فرد عليه الناصر مجيباً طلبه.

لم يكد القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي يشرف على الانتهاء حتى تمخض عن ولادة مملكة نصرانية صغيرة في الجزء الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى، وهي **مملكة أرمنية الصغرى**، التي لعبت الحركة الصليبية دوراً كبيراً في نشوئها، بصفتها مملكة تقف على قدم المساواة مع الإمارات والممالك الصليبية في الشرق.

وأصبحت هذه المملكة أحد الخصوم الذين يضمرون العداء للدولة الإسلامية، مما جعلها وسيلة بيد القوى الصليبية والمغولية. فكان دورها فاعلاً في هذا الجانب، وخاصة في أثناء حكم الدولة الأيوبية ودولة المماليك، من خلال إقامة الأحلاف، سواء كان ذلك مع الإمارات الصليبية، أو مع الدولة المغولية وبيزنطة وأوربا، لتحقيق أغراضها، وقد تطرقنا في صفحات هذا الأطلس عن طبيعة العلاقات خلال هذه المرحلة.

فمن المتعارف عليه أن الموقف قد اختلف في الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، بعد أن قامت الدولة الأيوبية في خضم الأحداث المضطربة، وكيف أخذت على عاتقها مهمة قيادة العالم الإسلامي ومكافحة القوى الأجنبية الغازية؛ فكان على الأرمن أن يواجهوا السياسة التي رسمها الأيوبيون والقائمة على أساس الجهاد ومكافحة الصليبيين. فبعد وفاة نور الدين زنكي، استطاع صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩-٥٨٩ هـ / ١١٧٣-١١٩٣ م) أن يرسخ جذور دولته ويوسع حدودها، لتشمل مصر ومعظم بلاد الشام والجزيرة واليمن والموصل. وبذلك أصبحت ممتلكات الأيوبيين متاخمة لحدود إمارة الأرمن في قيليقيا؛ فكان له الأثر الأكبر في نشوء علاقات متوترة بين الطرفين. هذا، فضلاً عن أن الأمراء الأيوبيين لا يمكنهم أن يغضوا النظر عن دور الأرمن التآمري مع الصليبيين ضد المسلمين في بلاد الشام والجزيرة وما أبدوا للصليبيين من مساعدات في أثناء إقامة كياناتهم. فكانت بداية الصدام الأيوبي-الأرمني في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي... كما اشترك الأرمن في الحملة المغولية على بلاد الشام والجزيرة، وبلغ عدد الجيش الأرمني فيها ستة عشر ألف مقاتل بقيادة الملك هيثوم الأول، حيث أنزل مذبحة كبيرة بمسلمي مدينة ميفارقين الأيوبية، بعد أن ساهم مع المغول في إسقاطها؛ وكذلك كان حال مدينة نصيبين وحرّان وسروج والرّها والبيرة. إلا أن اصطدامهم بالمماليك في مصر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م في موقعة عين جالوت التي ألحق فيها المماليك هزيمة تاريخية.

لكن المماليك الذين تسيدوا الساحة السياسية في البلاد الإسلامية أخذوا على عاتقهم تحييد مملكة أرمنيا خلال مدة القضاء على آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام، ولعل مرارة الهزيمة التي لحقت بالمغول والأرمن في موقعة حمص كانت كفيلة على تحقيق ذلك خلال هذه المدة.

سلطنة المالك



Σ

A globe showing the location of the Sahel region in Africa, highlighted in red. The globe is centered on the Atlantic Ocean, with Africa and Europe visible. The Sahel region is marked with a red rectangle, indicating its location between the Sahara Desert and the equatorial rainforests.



مدينة عكا من الفضاء الخارجي

البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم)

المدينة القديمة



سور مدينة عكا الفلسطينية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط



ميناء عكا من الفضاء الخارجي

اشتد الحصار الإسلامي على **الصليبيين** في **عكا** الذي دام ثلاثة وأربعين يوماً، وعجز **الصليبيون** عن الاستمرار في المقاومة، ودب اليأس في قلوبهم؛ فخارت قواهم، وشق المسلمون طريقهم إلى القلعة، وأجبروا حاميتها على التراجع؛ فدخلوا المدينة التي استسلمت، وشاعت الفوضى في المدينة، بعد أن زلزلت صيحات جنود المماليك (**الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر**) جنبات المدينة، وهز الرعب والفرع قلوب الجنود والسكان؛ فاندفعوا إلى **الميناء** في غير نظام يطلبون النجاة بقواربهم إلى السفن الراسية قبالة الشاطئ؛ ففرق بعضهم بسبب التدافع وثقل حمولة القوارب وانهارت المدينة ووقع عدد كبير من سكانها أسرى في قبضة المماليك، وسقطت في يد الأشرف خليل في (١٧ من جمادى الأولى ٦٩٠هـ = ١٨ مايو ١٢٩١م)، ثم واصل سعيه لإسقاط بقية المعاقل الصليبية في الشام، كما سيتضح لنا في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى .





مرثسم تخيلي لتحرير عكا من أيدي الصليبيين

سلاجقة الروم

الإمبراطورية البيزنطية

بقايا مستعمرات صليبية	
إمارة أرمنية	
مستعمرات بيزنطية	
مناطق تحت سلطان المسلمين	

سلطنة

المماثيك

سورما

جلاد الشام

الأردن

سلطنة المالك

فرار الصليبيين من عكا ثم نحو صور
ثم اتجاه جزيرة أرواد السورية.

قال أبو الفداء: وخرج الفرنج (**الصليبون**) في أثناء مدة الحصار بالليل، وكسبوا العسكر، وهزموا البيزكية، واتصلوا إلى الخيام، وتعلقوا بالأفطاب، ووقع منهم فارس في جورة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك، وتكاثر عليهم العساكر فولى الفرنج منهزمين إلى البلد، وقتل عسكر **حماة** منهم عدة، فلما أصبح الصباح، علق الملك المظفر صاحب حماة، عدة من رؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف، واشتدت مضايقة العسكر **لعكّا** حتى فتحها الله تعالى لهم، في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة بالسيف، ولما هاجمها المسلمون، هرب جماعة من أهلها **في المراكب**، وكان في داخل البلد عدة أبرجة عاصية، بمنزلة قلاع، دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها، وقتل المسلمون وغنموا من عكّا شيئاً يفوت الحصر من كثرته، ثم استزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة، ولم يتأخر منهم أحد، فأمر بهم ف ضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكّا، ثم أمر بمدينة عكّا فهدمت إلى الأرض، ودكت دكاً، ومن عجائب الاتفاق، أن **الفرنج استولوا على عكّا وأخذوها من صلاح الدين**، ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، سنة سبع وثمانين وخمسائة، واستولوا على من بها من المسلمين، ثم قتلهم، فقدر الله عز وجل في سابق علمه، أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين (خليل)، فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه، وكذلك لقب السلطانين.

ذكر فتوح عدة حصون وملوك:

لما فتحت عكا، ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، فأخبلوا **صيدا وبيروت**، وتسلمها الشجاع في أواخر رجب، وكذلك هرب أهل مدينة **صور**، فأرسل السلطان وتسلمها، ثم تسلم عنتيت في مستهل شعبان، ثم تسلم **أنطربطرس** في خامس شعبان، جميع ذلك في هذه السنة، أعني سنة تسعين وستمائة. واتفق لهذا السلطان من السعادة، ما لم يتفق لغيره، من فتح هذه البلاد العظيمة، الحصينة، بغير قتال ولا تعب، وأمر بها فخرت عن آخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات، جميع البلاد الساحلية الإسلامية، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام، وتظهر الشام والسواحل من الفرنج (**الصلبيين**)، بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية، وعلى ملك دمشق، وغيرها من الشام، فله الحمد والمنة على ذلك، ولما تكاملت هذه الفتوحات العظيمة، رحل السلطان الملك الأشرف، ودخل دمشق وأقام مدة، ثم عاد إلى الديار المصرية ودخلها في هذه السنة. المتعسر في أخبار

البشر - (ج ١ / ص ٤٧٨).

واصل السلطان الأشرف خليل
بعيه لإسقاط بقية الماقل
صليبية في الشام؛ فاسترد
مدينة "صور" دون مقاومة،
"صيدا" ودمرت قواته قلعتها،
فتحت "حيفا" دون مقاومة،
"طرسوس" في (٥ من شعبان
١٢٩١ = ٣ من أغسطس ١٢٩١
و) و"علايت" في (١٦ من شعبان
١٢٩١هـ).

ظلّت الجيوش الملكية تجوب
أحلال الشامى بعد جلاء
صليبيين من أقصاء إلى أقصاء
ضعة أشهر تدمر كل ما تعدّه
نائحاً لنزول الصليبيين إلى البر
رة أخرى، وبهذا وضع
لأشرف خليل" بشجاعته
قدامه خاتمة الحروب
صليبية.

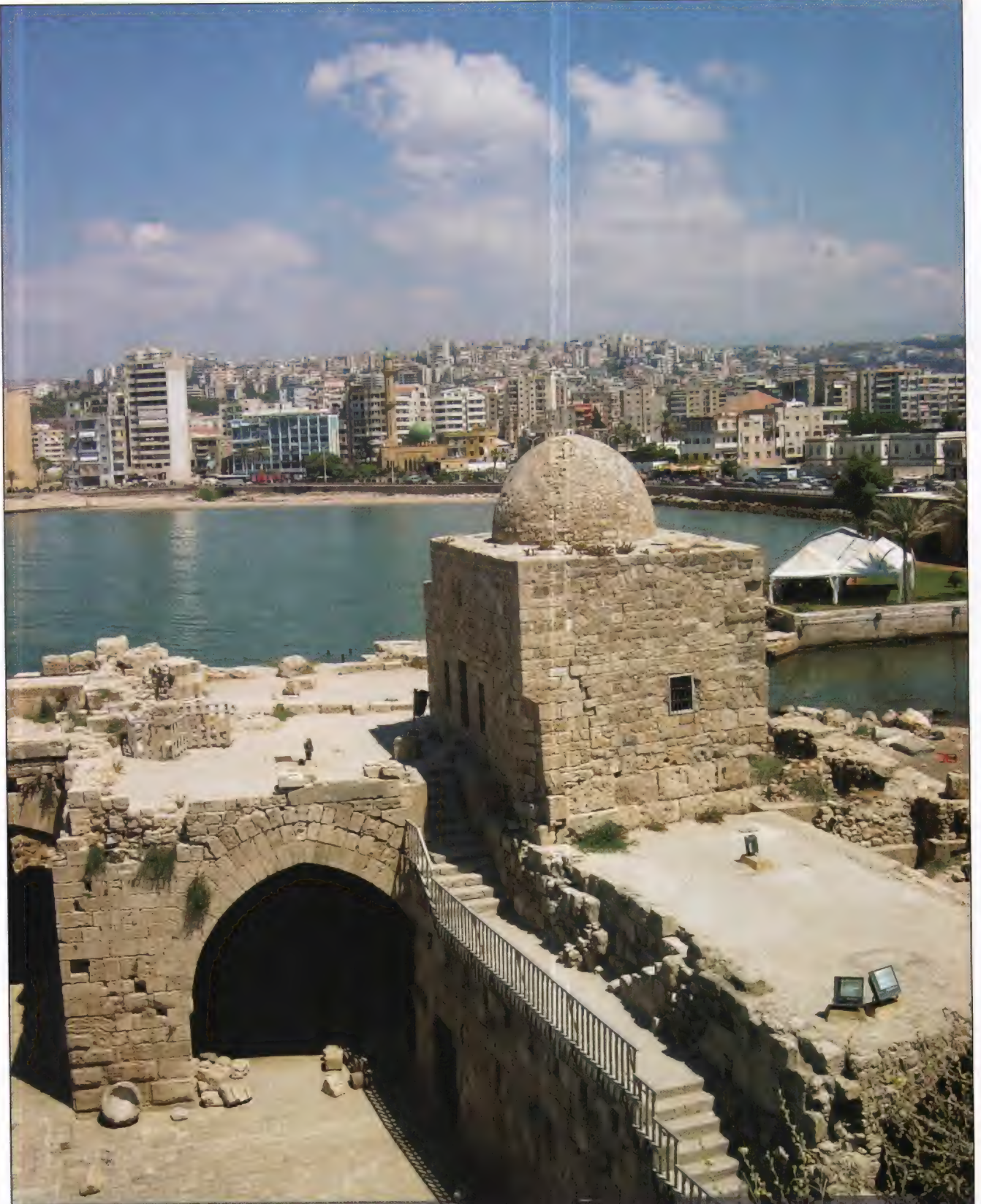


تحرير آخر معاقل الصليبيين (الفرنجة)

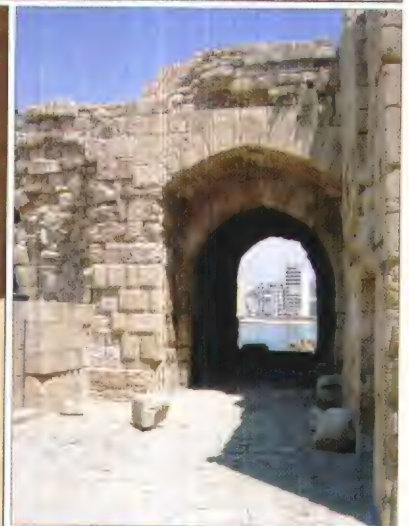
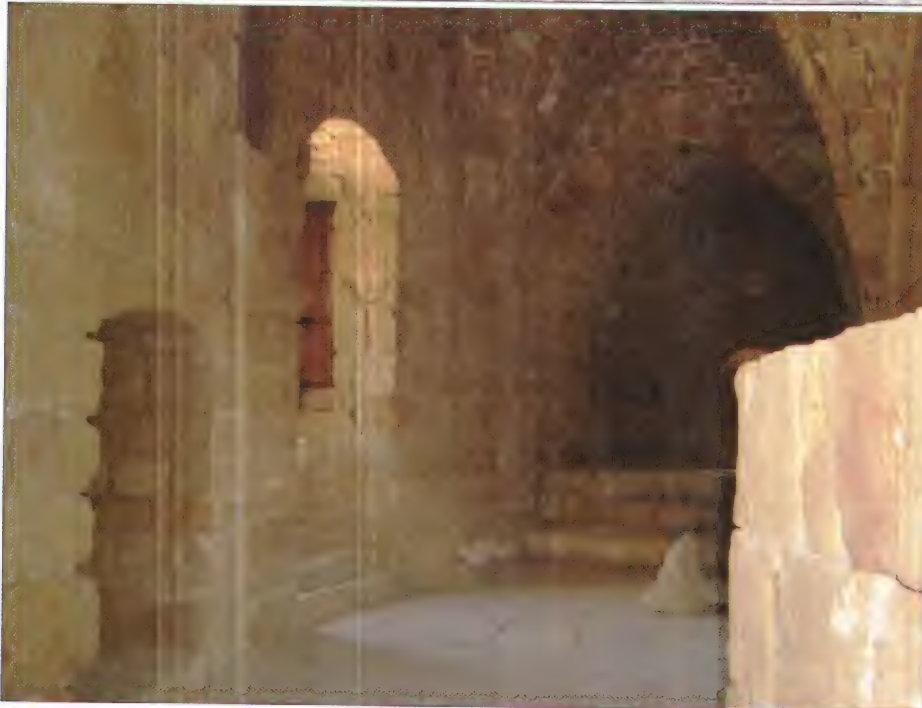




قوس النصر، بناء من العصر الروماني في مدينة صور اللبنانية



قلعة صيدا: قلعة بناها الصليبيون على جزيرة في مدينة صيدا اللبنانية عام ١٢٢٨م وتبعد حوالي ٨٠ متراً من الشاطئ، ويربطها به جسر صخري مبني على تسع قناطر



لقطات متنوعة لقلمة
صبيدا، الذي
تركها الصليبيون بعد
هزيمة حصار عكا.





قام الأشرف خليل بالاستيلاء بسهولة على بقية ما تبقى بأيدي الصليبيين مثل صور وحيفا اللتين قاومتا مقاومة كبيرة، ثم اضطررتا للتسليم فتجتا بذلك من التخریب، ثم استولى الأشرف خليل على عكا وصيدا وطرطوس، وبهذا تم القضاء نهائياً على الوجود الصليبي في الشام، وإن كان **الصليبيون في جزيرة أرواد** المقاومة للساحل الشرقي: قد ظلوا يغيرون على السواحل بين الفينة والأخرى ويقطعون الطرق، مما أزعج نائب السلطنة المملوكية على الشام، وجعله يطلب معونة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فجهز أسطولاً ووجهه نحو هذه **الجزيرة** بعد أن ضم إليه جيش طرابلس ففتحها وملكها وقتل من أهلها خمسمائة وذلك عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م).





جزيرة قبرص: بحكم موقعها الجغرافي، تصلها، من كل حذب وصوب، منتجات المناطق التي حباها الله تعالى بالتنوع الغذائي، فهي على مسافة يومين بحراً من مصر، وعلى عدة ساعات من سواحل الشام وآسيا الصغرى. ومع ذلك، فإن البحر يفصلها عن هذه المناطق، مما يحفظ لها استقلالها. على أن الجبال العالية والوعرة المسالك المحيطة بها من الشمال والشرق تقيها خطر الهجمات المحتملة من جهة آسيا الصغرى وبلاد الشام؛ لجأ إليها الكثير من **الصليبيين** إبان حصار إنطاكية، وبخاصة فرسان **الداوية**، واستقروا فيها؛ كما ارتادت مرافئها سفن التجار اللاتين، منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وهي في طريقها إلى القسطنطينية أو إلى الإسكندرية، وكذلك سفن الأوروبيين القاصدين زيارة الديار المقدسة في فلسطين بعد تحرير **صلاح الدين** **لبيت المقدس** على إثر معركة حطين عام ١١٨٧م، نزحت أعداد غفيرة من اللاتين عن الشرق قاصدة **قبرص**، لتقع الجزيرة البيزنطية الطابع في قبضة اللاتين، عام ١١٩١م، حين انتزعها ريتشارد قلب الأسد (Richard Cœur de Lion)، ملك إنكلترا، من إسحاق كومنين (Isaac Comnène) المتمرد على السيادة البيزنطية، وباعها **لفرسان الداوية** ثم انتقلت بالشراء، بعد أقل من سنة، إلى أسرة لوزينيان (Lusignan) اللاتينية، بعد أن ثار السكان على الداوية وبطل البيع، فأقامت فيها مملكة استمرت نحو ثلاثة قرون، كان أمراً محتملاً أن يحظى **الدور العسكري لجزيرة قبرص بتعاطف البابوية التي رأت فيه فرصة جديدة لمعاودة الاستيلاء على بيت المقدس**، وخاصة بعد أن أحسن القبارصة استقبال فلول **الاستبارية** الهاربين من الشام، وساعدوهم على انتزاع **رودوس** من السيادة البيزنطية عام ١٣٠٩م، فاتخذها هؤلاء قاعدة صليبية شاركت قبرص في سياستها الحربية والاقتصادية ضد المسلمين.

لقد سار الأشرف خليل على نهج أبيه في **سياسته الخارجية**، فعزم منذ توليه السلطنة على حرب الصليبيين والعمل على طرد بقاياهم من بلاد الشام، حتى تم له تحرير المناطق التي ما برحت في حوزتهم، فحررت عكا بعد حصارها في ٣ ربيع الأول سنة ٦٩٠هـ / ٥ نيسان ١٢٩١م، وسقطت أسوار المدينة في يده في ١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ / ١٨ أيار ١٢٩١م، وولى الفرنجة الأدبار - كما ذكرنا ذلك آنفاً - هاربين في المراكب وتساقطت الأبراج المحصنة التي كانت للأخويات الفرسانية برجاً برجاً، وكانت ضرباً من الحصون داخل المدينة، إلى أن سقط آخرها وهو برج الداوئية في ٢٨ جمادى الأولى / ٢٩ أيار، فانتقم الأشرف منهم لغدرهم برجاله، وسمح لمن بقي بالانتقال إلى قبرص، وخشية أن يفعل الصليبيون ما فعلوه بصلاح الدين الأيوبي أرسل أحد قاداته إلى صور ليمنع الخارجين من عكا من الالتجاء إليها. وبعد سقوط عكا تساقطت المدن المحتلة الأخرى واحدة واحدة من دون مقاومة تذكر، فاستسلمت صيدا وصور وعثليت (عثليت) وجبيل وحيفا وطرطوس وبيروت، وانتقل من فيها من الصليبيين إلى قبرص، وألزم الملك الأشرف من بقي منهم في تلك المدن دفع الجزية، وأمر بهدم الحصون التي تحميها خشية معاودتهم. ولم يبق في يد الفرنجة في الشام إلا **جزيرة أرواد** قبالة ساحل طرطوس وعمت مظاهر الابتهاج بالنصر مدة شهر في دمشق، وخُلد اسم السلطان الملك الأشرف خليل الذي تم تحرير بلاد الشام من الصليبيين على يديه.

تحول الأشرف **بعد تحرير الشام من الفرنجة لقتال المغول في الجزيرة الفراتية والعراق**، حيث استثمر المماليك حالة الفوضى التي عمّت دولة **المغول الإيلخانية** بسبب الصراع على السلطة في أعقاب وفاة أرغون سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، استثمر المماليك ذلك بالاستعداد لشن حملة عسكرية، تعاقبها الأرمن الذين كان ملكهم قد جدد تحالفه مع المغول. ففي ربيع سنة ٦٩١هـ / ١٢٩٢م، خرج السلطان الأشرف خليل من **حلب** قاصداً **قلعة الروم** الواقعة على نهر الفرات، التي كانت مقر جاثليق الأرمن. وبعد حصار ثلاثين يوماً، تمكن من فتحها وسماها قلعة المسلمين^(١)، وأسر أميرها ورؤوس أصحابه، وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً، وزينت دمشق سبعة أيام احتفالاً بهذا النصر المؤزر. لما شعر ملك **أرمينية** هيثوم الثاني بقوة موقف الملك الأشرف خليل، تخلى له بعد عام من ذلك التاريخ عن قلاع **بهنسا ومرعش وتل حمدون**، التي تتحكم بالطرق المؤدية إلى حلب، وبعد أن رتب الأمور في الشام عاد الملك الأشرف خليل منتصراً إلى مصر^(٢).

١ - أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ج ٤، صص. ٢٦، ٢٧.

١ - أمينة بيطار، الموسوعة العربية، مج ٢، ص ٥٤٩.

التحالف المغولي - الأرمني في عهد الأشرف خليل



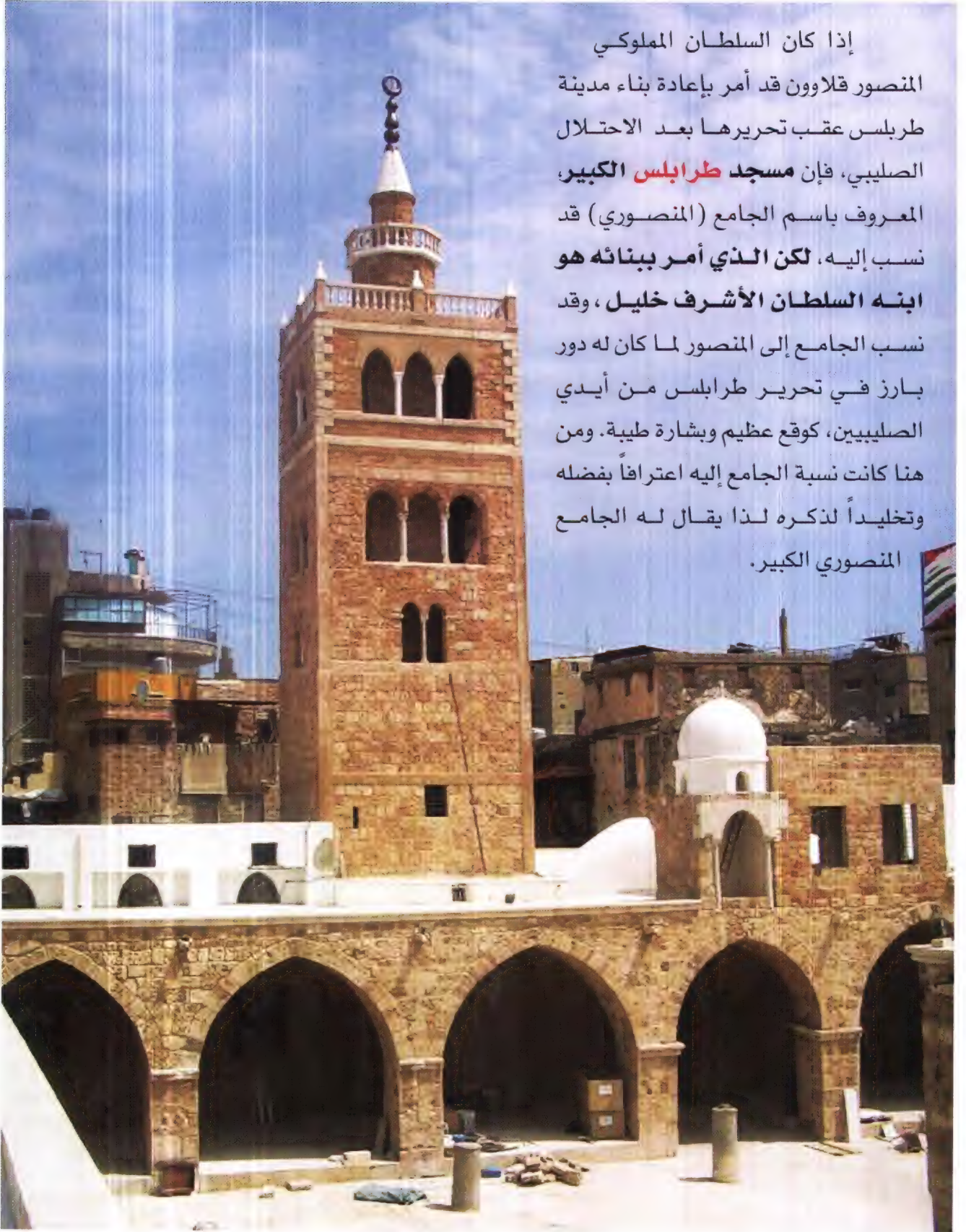
سارت **سياسة الأشرف خليل الداخلية** بعد عودته من الشام إلى مصر منتصراً نحو التباهي والغرور، فراح يعامل الأمراء بخشونة واستخفاف، وأصبح يعلم على الأوراق والمستندات بحرف "خ" فقط دون اسمه مما أغضب الأمراء. وفوق ذلك كان الأمراء يكرهون وزيره ابن السلعوس الذي أتى من سوريا، ولم يكن في الأصل أميراً أو مملوكاً وإنما كان تاجراً دمشقياً، وتقلد منصب الوزارة الرفيع بدلاً من الأمير الشجاعي، وراح يغدق عليه الأشرف ويفضله على كبار الأمراء لمكانته. وكان ابن السلعوس يتعالى على الأمراء هو الآخر.

لقد أدى هذا السلوك المشين إلى إثارة نقمة عدد كبير من الأمراء المماليك، فتآمروا عليه وانتهزوا فرصة قيام الملك الأشرف برحلة صيد إلى الحمامات بمديرية البحيرة، فانفردوا به وبإداره الأمير بيدرا مع جماعة من أصحابه المماليك فضربوه بسيوفهم وقتلوه في الثاني من شهر المحرم سنة ٦٩٣هـ / كانون أول ١٢٩٣م بعد حكم دام ثلاث سنوات. ودفن في مقبرته في المدرسة الأشرفية في القاهرة، وكان الملك الأشرف خليل قد أنشأها سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م عندما كان ولياً للعهد، ثم أتم عمارتها وزخرفتها بعد أن تسلطن فتسببت إليه، وانتقلت السلطنة بعد وفاته إلى أخيه الأصغر الناصر محمد لأنه لم يعقب سوى ابنتين.

بعد اغتيال الأشرف توجه المتآمرون إلى الدهليز، ونصبوا بيدرا سلطاناً ولقبوه بالملك الأوحده أو الملك القاهر. ولكن بيدرا لم ينعم طويلاً بسلطنته، حيث قبض عليه المماليك السلطانية بقيادة كتبغا وبيبرس الجاشنكير وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى القاهرة. وقبض على الأمراء المتآمرين، عدا حسام الدين لاجين وقرأ سنقر الذين فرا واختفيا. وقبض الأمراء، وعلى رأسهم الشجاعي، على ابن السلعوس بعد عودته إلى القاهرة حيث حُبس وضُرب حتى الموت.

بعد **مقتل الأشرف خليل** اتفق الأمراء وعلى رأسهم سنقر الشجاعي على إخفاء الأمر لبعض الوقت، وعلى تنصيب أخيه الصغير الناصر محمد سلطاناً على البلاد ومعه كتبغا نائباً للسلطنة والأمير الشجاعي وزيراً. وكان الناصر محمد صبياً في نحو التاسعة من عمره. وأرسل إلى الحكام في الشام مكتوباً وطلب منهم تحليف الناس للملك الناصر محمد، وأن يقرن اسمه باسم الأشرف في الخطبة. وبعد أن استقرت الأمور ورتب الأمراء أمورهم أعلن في البلاد عن وفاة السلطان خليل، قال المقرزي في خطبه: (ولبس جوازي الأشرف الحداد وطافت النواحات في شوارع القاهرة، وأقيمت المآتم وساد مصر الحزن واحتشدت العامة في الشوارع والميادين للفرجة على عقوبة المتآمرين وإعدامهم). قلت: ولا شك أن إقامة المآتم هي من بقايا آثار الدولة العبيدية التي حكمت مصر قبل الحكم الأيوبي.

إذا كان السلطان المملوكي المنصور قلاوون قد أمر بإعادة بناء مدينة طرابلس عقب تحريرها بعد الاحتلال الصليبي، فإن **مسجد طرابلس الكبير**، المعروف باسم الجامع (المنصوري) قد نسب إليه، لكن الذي أمر ببنائه هو ابنه السلطان الأشرف خليل، وقد نسب الجامع إلى المنصور لما كان له دور بارز في تحرير طرابلس من أيدي الصليبيين، كوقع عظيم وبشارة طيبة. ومن هنا كانت نسبة الجامع إليه اعترافاً بفضلته وتخليداً لذكوره لذا يقال له الجامع المنصوري الكبير.



السلطان الناصر محمد بن قلاوون

٦٩٣ - ٦٩٤ هـ

المرّة الأولى

أضحى **الناصر محمد ابن السلطان المنصور قلاوون** سلطاناً في سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م، بعد قتل أخيه السلطان الأشرف خليل، ولما يبلغ السابعة من عمره، أو التاسعة كما تروي مصادر أخرى. وخلال مدة حكمه الأولى كان **كتبغا** نائباً للسلطنة، بيد أنه أصبح الحاكم الفعلي بعد خلع الناصر محمد حيث أصبح سلطاناً. ثم قام **لاجين** هو الآخر بخلع كتبغا، ثم عاد الناصر محمد للحكم مرة ثانية سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م، حتى خلعه كلاً من الأمير سلاز ويبرس الجاشنكير، حيث ولّى وجهه شطر الكرك.

وعلى أي حال فقد كان قادراً على الوثوب للعرش للمرة الثالثة والأخيرة سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م، ولقد كانت مدة حكمه الثالثة مدة استقرار سياسي واقتصادي، انتعشت خلالها الفنون والثقافة، كما تمتعت مملكته بأزدهار كبير، وقد خلفه ابنه أبوبكر المنصور.

إذن حكم السلطان **الناصر محمد بن قلاوون** في سلطنته الأولى سنة واحدة، وطبيعي أن تكون سلطته اسمية، فلقد كان غلاماً صغيراً، وتولى كتبغا إدارة شؤون البلاد، وقد حجبه وأسكنه مع أمه في إحدى قاعات القلعة، ومنع الناس من الاجتماع به أو لقائه.

ثم حكم بعده الملك **العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغولي**، وأصله من التتار من سبي وقعة حمص الأولى التي كانت في سنة ٦٥٩ هـ، فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه ثم أعتقه، وجعله من جملة مماليكه ورقاه، حتى صار من أكابر أمرائه، واستمر على ذلك في الدولة الأشرفية خليل بن قلاوون إلى أن قتل وتسلطن أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهو عاشر السلاطين الأتراك على عرش مصر في عهد المماليك البحرية، تولى الحكم في المدة (٦٩٤ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م).

ولما كان يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الأول ركب السلطان الملك العادل **كتبغا** بأبهة السلطنة وشعار الملك من قلعة الجبل ونزل وسار إلى ظاهر القاهرة نحو قبة النصر، وعاد من باب النصر وشق القاهرة حتى خرج من باب زويلة عائداً إلى قلعة الجبل، كما جرت العادة بركوب الملوك.

ولم تطل مدة سلطنته حتى وقع الغلاء والفناء بالديار المصرية وأعمالها، ثم انتشر ذلك بالبلاد الشامية جميعها في شوال من هذه السنة، وارتفع سعر القمح حتى بيع كل إردب بمائة وعشرين درهماً، بعد أن كان بخمسة وعشرين درهماً، وأما في سنة خمس وتسعين وستمئة، فوصل سعر القمح إلى مائة وستين درهماً، وأما الموت .. فإنه فشا بالقاهرة وكثر، فأحصي من مات بها وثبت اسمه في ديوان المواريث في ذي الحجة سبعة عشر ألفاً وخمسماية، وهذا سوى من لم يرد اسمه في ديوان المواريث من الغرباء والفقراء، ومن لم يطلق من الديوان، ورحل جماعة كثيرة من أهل مصر عنها إلى الأقطار من عظم الغلاء وتخلخل أمر الديار المصرية.

مستند تاريخي

قال ابن كثير: (وفيها **ملك التتار قازان بن أرغون بن أبغا بن تولى بن جنكيزخان** فأسلم وأظهر الإسلام على يد الأمير توزون - رحمه الله -، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم إسلامه، وتسمى بمحمود، وشهد الجمعة والخطبة، وخرب كنائس كثيرة، وضرب عليهم الجزية ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد، وظهرت السبح والهيكل مع التتار والحمد لله وحده). **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ٤٠١.

قلت: لقد أسلم **غازان (قازان)** على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم الجويني - كما تذكر ذلك بعض المصادر التاريخية الأخرى -، وتسمى باسم محمود، وبإسلامه اعتنق ما يقرب من مئة ألف شخص من قومه المغول (التتار) الإسلام، وقد عجل هذا بالقضاء على خصمه.

بعد أن تولى محمود غازان الحكم: أصدر قراراً يقضي بأن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة. انقطعت الروابط التي كانت تربطه ببلاط الخاقان الأعظم للمغول في الصين. قام بعدد من الإصلاحات، منها تجميل عاصمة مملكته **تبريز** بأبنية فخمة منها مسجد عظيم، ومدرسة كبيرة، ودار للكتب، ودار لحفظ الدفاتر والقوانين التي استنها، ومرصد فلكي، وبستان، ومستشفى وخانقاه **للمتصوفة**.

السلطان المنصور حسام الدين لاجين

٦٩٦ - ٦٩٨ هـ

هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري، سلطان الديار المصرية، تسلطن بعد خلع الملك العادل كتبغا المنصوري في ١٠ صفر ٦٩٦ هـ.

وبعد تسلطن كتبغا جعله نائب سلطنته؛ بل قسيم مملكته، واستمر لاجين على ذلك حتى سافر الملك العادل كتبغا إلى البلاد الشامية، وأصلح أمورها وعاد إلى نحو الديار المصرية، وسار حتى نزل بمنزلة اللجون، اتفق لاجين هذا مع جماعة من أكابر الأمراء على قتل الملك العادل كتبغا، ووثبوا عليه بالمنزلة المذكورة وقتلوا الأميرين: بتخاص وبكتوت الأزرق العادليين، وكانا من أكابر مماليك الملك العادل كتبغا وأمرائه واختبئ العسكر، وبلغ الملك العادل كتبغا ذلك ففر بنفسه وركب في خمسة من خواصه وتوجه إلى دمشق.

فاستولى عند ذلك **لاجين** على الخزائن والدهليز وبرك السلطنة، وساق الجميع أمامه إلى مدينة غزة. وبايعوه الأمراء بالسلطنة بعد شروط اشترطوها الأمراء عليه. وسار الجميع إلى نحو الديار المصرية حتى دخلوها، وملكوها القلعة بغير مدافع، وجلس لاجين هذا على كرسي المملكة في يوم الجمعة المقدم ذكره.

وتم أمره وخلع على الأمراء وظائف عدة وهم: الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري بنبابة السلطنة بالديار المصرية عوضاً عن نفسه، وخلع على الأمير قبجق المنصوري بنبابة الشام عوضاً عن الأمير أغزلو العادلي وعلى عدة أمراء آخر.

استاء الشعب من حكم السلطان لاجين المتعسف، ومن سوء أعمال نائبه منكوتر، فحثوا المماليك الأشرفية على التخلص منه، بوصفه أحد قتلة الملك الأشرف خليل، وشعر هذا السلطان بالخطر يتهده من جانب حاشيته، فأراد أن يصرفهم عن تدبير المؤامرات، فشغلهم بالحرب في مملكة أرمينيا الصغرى بناء على نصيحة منكوتر^(١).

العلاقات الخارجية في عهده

العلاقة مع مغول فارس

باسلام غازان تولى مغول فارس عن لقب (الإيلخان) إلى لقب (الخان)

العلاقة مع الأرمن

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٢٢.

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

٦٩٨ - ٧٠٨ هـ

المرّة الثانية

استدعى الناصر محمد من **الكرك** - من أرض الأردن - لتولي منصب السلطنة للمرة الثانية، وخرج الأمراء والعساكر للقاءه، وزينت القاهرة استعداداً لدخوله، حيث استقبل استقبالاً حماسياً من جميع السكان المصريين الذين تفاءلوا خيراً بقدومه، وارتفعت أصواتهم بالدعاء له بالحفظ والسلامة، ولملكه بالعز والتأييد.

ولما استقر على العرش، استهل أعماله بتقليد الحكام، فعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذاراً، وأقرّ الوزير فخر الدين عمر بن الخليلي في الوزارة، وفوض نيابة الشام إلى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم، الذي خلف الأمير قبجق المنصوري، وخلع على أعيان الدولة، ومنح ممالك أبيه الهبات والعطايا.

استغل الأميران سلار والجاشنكير صغر سن السلطان، واستبدا بالأمور العامة، وضيقا الخناق عليه، فلم يمكناه من التصرف بأمواله وأموره الشخصية.

وظهر التنافس واضحاً بين الأميرين سلار والجاشنكير نتيجة للسياسة التي انتهجها كل منهما للاستئثار بالسلطة والنفوذ، الأمر الذي أدى إلى عدم استقرار أوضاع البلاد. ومما زاد الأمر سوءاً نشوب النزاع بين طوائف الممالك. فقد كان بيبرس الجاشنكير يلي أمور الممالك البرجية الذين ازداد عددهم، وقوي نفوذهم، حتى أخذ الناس يترددون عليهم في قضاء حاجاتهم. كما كان الأمير سلار يشرف على شؤون الممالك الصالحية والمنصورية. وقد بلغ التنافس بين هاتين الطائفتين شأواً كبيراً، كل يطمع في زيادة نصيبه من الإقطاعات، وإذا ما رُقي أحد من الممالك البرجية، طلب ممالك الأمير سلار أن يؤمروا واحداً منهم بالمقابل، والعكس صحيح^(١).

عملة نقدية تعود إلى حقبة
السلطان المملوكي محمد بن
قلاوون خلال مدة حكمه الثانية
٦٩٨ - ٧٠٨ هـ، ضرب حماد.





قلعة الكرك حصينة بناها الصليبيون في الكرك بالأردن في أثناء الحروب الصليبية على بلاد الشام في القرن الثاني عشر للميلاد: لتأمين احتلالهم لبيت المقدس ومحيطها وتكون نقطة اتصال إستراتيجية متوسطة بين الأخيرة وقلعة الشويك.

قال ابن بطوطة في كتابه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: "ثم يرحلون إلى **حصن الكرك**. وهو أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها. ويسمى بحصن الغراب. والوادي يطيف به من جميع جهاته، وله باب واحد قد نحت المدخل إليه في الحجر الصلد. ومدخل دهليزه كذلك. وبهذا الحصن يتحصن الملوك، وإليه يلجأون في النوائب، **وله لجأ الملك الناصر**. لأنه ولي الملك وهو صغير السن، فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه. فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج. ووافقته الأمراء على ذلك. فتوجه إلى الحج. فلما وصل إلى عقبة أيلة، لجأ إلى الحصن وأقام فيه أياماً إلى أن قصده أمراء الشام. واجتمعت عليه المماليك، وكان قد ولي الملك في تلك المدة بيبرس الجاشنكير وهو أمير الطعام وتسمى بالملك المظفر. وهو الذي بنى الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين الأيوبي. فقصده الملك الناصر بالعساكر. ففر بيبرس إلى الصحراء. فتبعه العساكر فقبض عليه، فأتي به إلى الملك الناصر فأمر بقتله، فقتل. وقبض على سلار وحبس في جب حتى مات جوعاً. ويقال: أنه أكل جيفة من الجوع. نعوذ بالله من ذلك." ولقد وقفت على هذه القلعة العجيبة، والتقطت لها صوراً عدة، ضممتها في كتابنا (أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى).



عندما استولى **غازان** على عرش الإليخانات كان السلطان العادل كتيغا (حكم ١٢٩٤م - ١٢٩٥م) يجلس على عرش المماليك بقلعة الجبل بالقاهرة، وكان كتيغا ذاته من أصل مغولي، وفي عهده وفد إلى الشام ومصر عدد كبير من المغول الوافدية من طائفة العويراتية، وفيما بين عامي ٦٩٦ - ٦٩٨ هـ حكم البلاد السلطان حسام الدين لاجين، وبعد وفاته نصب الناصر محمد بن قلاوون **للمرة الثانية** سلطاناً على البلاد، وكان عمره حينذاك أربعة عشر عاماً. وفي عهد السلطان **لاجين** فر الأميران **قبحق المنصوري** نائب دمشق و**بكتمر** السلاح دار إلى المغول، وأقاما عند غازان، فلما نصب الناصر سلطاناً أغرى قبحق غازان بسهولة الزحف على الشام، نظراً لصغر سن **السلطان الناصر محمد قلاوون**، وانشغال الأمراء في خلافاتهم. فما كاد الناصر محمد يستقر على تخت السلطنة في عام ٦٩٨ هـ حتى وردت الأنباء بزحف المغول بقيادة غازان على الشام.

الشمس



رفض الأمير علم الدين **سُتُجَرُ المنصوري** نائب قلعة دمشق المعروف بأرجواش الخضوع لغازان وتحصن في قلعة دمشق، فلما طلب منه قبجق وبكتمر الاستسلام بحجة أن دم المسلمين في عنقه رفض وسبها سباً قبيحاً، وقال لهما : "إن دم المسلمين في أعناقكم أنتم لأنكم كنتم السبب في مجيء التتار ". فذهب الأمير إسماعيل التتري إلى قضاة وأعيان دمشق يحذرهم من مغبة عدم استسلام أرجواش وتسليمه القلعة للمغول وهددهم بنهب دمشق وقتل الجميع. فأرسلوا إليه الرسل يطلبون منه الاستسلام فرفض ورد عليهم بالشتائم.



في يوم الجمعة ١٤ ربيع الآخر ٦٩٦هـ خُطب **غازان على منبر دمشق** بألقابه، وهي: "السلطان الأعظم، سلطان الإسلام والمسلمين، مظفر الدنيا والدين محمود غازان". وقرئ على الناس تقليد قبجق دمشق وحلب وحمص وحمص وغيرها، وولايته للقضاة والخطباء وغيرهم، وتشتت الدنانير على الناس ففرحوا بها. ونهب المغول وأرمن مملكة قليقية المدن، وأحرقوا المساجد والمدارس، وقتلوا الناس. وقام الأرمن بتخريب الصالحية (قرب دمشق) وقتلوا وأسروا نحو ١٠,٠٠٠ من أهلها، وفر من تمكن منهم إلى دمشق. وانتهز الأرمن فرصة هزيمة المسلمين، فاستولوا على قل حمدون وغيرها. وخرج الإمام العلامة **ابن تيمية إلى غازان** بتل راهط للشكوى من التهب والتخريب وقتل الناس برغم منح الأمان، فلم يتمكن من لقائه لانشغاله بشرب الخمر. فاجتمع بالوزيرين سعد الدين وشمس الدين فخرجوا يدفع المال له.



منبر الجامع الأموي بدمشق

الجامع الأموي بدمشق

نصب المغول بعد دخولهم إلى دمشق المنجنيق على القلعة **بالقرب من جامع دمشق** الكبير، فلما بلغ أرجواش ذلك بعث بعض رجاله فأفسدوا ما وضعه المغول، ولكن المغول أعادوا وضع المنجنيق وقاموا بحراسته، **وحولوا الجامع إلى حانة**، واستباحوا حرمة وشربوا فيه الخمر وفجروا بنساء المسلمين، ولم تقم به صلاة العشاء في هذا الوقت. فأرسل أرجواش رجلاً لقتل المنجنيقي، فهجم عليه بسكين وقتله وهو في وسط المغول، وهرب إلى القلعة. ثم قام أرجواش بهدم وحرق ما حول القلعة، لئلا يستتر به المغول.

راح المغول يجلبون الأموال من أهل الشام وينقلونها إلى خزنة غازان. فلما انتهت الجباية غادر غازان دمشق إلى فارس بعد أن أقام الأمير قبيجق نائباً على دمشق، والأمير بكتمر نائباً على حلب وحمص وحماة، والأمير الألبكي نائباً على صفد وطرابلس والساحل تحت حماية نائبه قطلوشاه، ووعد بالعودة لغزو مصر كاتباً: "إننا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها".

بعد **رحيل غازان استمر نهب وتخريب دمشق وكسر المغول أبواب البيوت، ونهبوا ما فيها** وأحرقوا الكثير من الدور والمدارس، واحترقت المدرسة العادلية. ونهب المغول الأغوار حتى بلغوا القدس، ووصلوا إلى **غزة**، حيث قتلوا بعض الرجال في جامعها. ومما قاله الشعراء في فاجعة الهزيمة:

"غلاء وغازان وغزوة وغارة .. وغدر وإغيان وغم ملازم".

مسألة في إسلام القائد المغولي غازان؟

كان هذا الإيلخان غازان (قازان): ٦٩٤-٧٠٤ هـ (١٢٩٥-١٣٠٤ م) في أول عهده بوذياً، ثم اعتنق الإسلام في أثناء ولايته للعهد، وذلك في الرابع من شعبان عام ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) فكان ذلك مفاجأة كبرى وانتصاراً غير متوقع للمسلمين على المحاولات النصرانية لتتصير المغول. لأن هذا الخان فور ارتقاؤه العرش جعل الإسلام دين الدولة الرسمي، وأدخل في الإسلام عدداً كبيراً من قبائل المغول. ودخل من جيشه في الإسلام عشرة آلاف وقيل مائة ألف من القادة. وقد اختلف في سبب إسلامه ومدى إخلاصه، فقيل: إنه أسلم لكسب تأييد المسلمين الذين يؤلفون غالبية شعبه ضد عدوه وعدوهم. وقيل كان بضغط وإلحاح من قائده نوروس، وتوسلات من بعض أمرائه وبعض المشايخ. ومهما كان السبب وحتى لو كان إسلامه في البداية سياسياً، فإن من الثابت أنه فيما بعد قد أصبح مسلماً حقيقياً، وذلك بشهادة رشيد الدين، أحد معاصريه ووزرائه، فقد ذكر أنه كان يشك في صحة إسلام غازان ولكنه تأكد فيما بعد من صحته من حديث جرى بينه وبين غازان حول الذنوب والأوثان. وقد عرف عنه إنه تعلم شرائع الإسلام فصلى وصام وانقطع عن الولاء لخاقان التتار، ألغى اسمه عن عمله إيران. ومع ذلك فإن غازان قد حارب المماليك المسلمين، وقيل: إنه حاول الاستعانة بالتتار ضد المسلمين. وأعداً إياهم أن يرد إليهم الأراضي المقدسة عندما يستخلصها، فراسل البابا بانونيفاس الثامن ودعاه لشن حرب صليبية ضد المماليك سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م)، وأعداً إياه وملوك أوروبا بإعطائهم فلسطين ثمناً لذلك.

وقد استجاب له جيمس الثاني ملك أرغونة، وأرسل إليه سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) يهنئه بانتصاراته، ويعدده بإمداده بالسفن، ويعلمه بأنه سمح لمن يرغب من رجاله بالانضمام إليه. كما زعم بعضهم أن غازان عرض على الأوربيين أن يعتنق النصرانية في سبيل الحصول على مساعدتهم ضد المماليك. د. شفيق جاسر أحمد محمود، محاولات التحالف بين المغول والصليبيين ضد المسلمين في القرنين السابع والثامن الهجريين وآثارها - مجلة الجامعة الإسلامية، العددان ٧٥-٧٦، ص ٧٨.

من مواقف شيخ الإسلام الإمام أحمد ابن تيمية (رحمه الله)

تمثلت شجاعة شيخ الإسلام الإمام أحمد ابن تيمية بنوعيتها العقلية والقلبية في شتى المواقف، ولا سيما في موقفه مع المغول.

فقد روي أن **ملك الكرج** أراد أن يفتك بأهالي دمشق؛ فيسبي نساءهم وذريتهم؛ ويغنم أموالهم، فبذل مالا كثيرا للسلطان **غازان** المغولي، الذي كان قد أول من أسلم من ملوك المغول، بذل له أموالا طائلة ليخلي بينه وبين سكان دمشق. وبلغ الخبر شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية فقام من فوره، وانتدب رجالا من وجوه البلاد وكبرائهم، من ذوي النهى والعقول الراجحة. ولما وصلوا إلى السلطان المغولي، أخذ الشيخ يحدثه بقول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان، ويقرب منه في أثناء حديثه، حتى كاد يلصق ركبته بركبتي السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه، مصغ لما يقول، شاخص ببصره إليه لا يعرض عنه، وذلك مما أوقع الله تعالى في نفسه من المحبة والهبة للشيخ، حتى سأل قائلاً: من هذا الشيخ؟ فأني لم أر مثله، ولم أر من هو أوقع منه حديثاً في نفسي، ولا رأيته أعظم انقياداً لأحد منه! وقال الشيخ للترجمان قل للسلطان: أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين وعملا الذي عملت: عاهد قومنا... وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجُرت^(١).

فبذل الشيخ نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله ذلك، فكان سبباً في صد الظلم والجور، وكان رحمه الله -تعالى- يقول: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه.

هو الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن الإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله ابن تيمية الحراني. ولد يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ. وهاجر به والده إلى دمشق عندما أغار التتار على بلاد الإسلام سنة ٦٦٧ وتوفي بقلعة دمشق ليلة الاثنين لعشرين خلت من القعدة الحرام سنة ٧٢٨ هـ. طلب أحمد بن تيمية العلم صغيراً ولأزم الدرس والتحصيل كبيراً، حتى فاز بأنواع العلوم والمعارف، ما أصبح به إماماً للعلماء. وشيخاً للإسلام والمسلمين في سائر أنحاء العالم الإسلامي.

قال عنه ابن النجار - كما ذكر ذلك بهجة البيطار -: قدم بابن تيمية والده إلى دمشق، فأخذ الفقه والأصول على والده. وسمع من خلق كثيرين منهم الشيخ شمس الدين، والشيخ زين الدين بن المنجا والمجد بن عساكر. وقرأ العربية على ابن عبد القوي، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه وعنى بالحديث، وسمع الكتب الستة، والمسند مرات وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه، وأحكم أصول الفقه، والفرائض والحساب والجبر والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر في الكلام والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤسائهم وكبارهم، وتأهل للتقوى والتدريس، ولم يبلغ العشرين سنة، وتضلّع في علم الحديث وحفظه، حتى قال من قال: إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث. وأمدّه الله تعالى بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتى قال غير واحد، إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساها، وألف في أغلب العلوم التأليف العديدة. حتى قال الحافظ الذهبي: وما أبعد أن تصانيفه تبلغ خمسمائة مجلد. وقال الحافظ المزي: ما رأيت مثله (أي ابن تيمية) ولا رأى هو مثل نفسه. وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه. أبو بكر الجزائري. نماذج من الدعاة الصالحين، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٥٧، ص ٣٨٤.

الحملة المغولية الثانية بقيادة غازان

يؤكد الواقع على أن **غازان** استمر في تصميمه على غزو بلاد الشام، ولم تقلع نهائياً عن ضمها، هي ومصر، إلى أملاكه، وراح يتحين الفرص لتحقيق ذلك، مايدل على أن العداء لم ينته بين المغول في إيران والمماليك^١؛

ورأى الإيلخان في (محرم ٧٠٠ / أيلول ١٣٠٠م) أن الفرصة أضحت مؤاتية للقيام بحملة أخرى على بلاد الشام، وكان الفصل شتاء، فخرج من **تبريز** متوجهاً إلى **حلب** عن طريق الموصل، فأخلى الحلبيون مدينتهم، وعم الذعر سائر مدن بلاد الشام، ولما وصل الخبر إلى مسامع السلطان الناصر محمد، جهز حملة عسكرية وخرج على رأسها، ولما وصل إلى **غزة** ورده خبر عبور غازان نهر الفرات، فأمر جنوده بالاستعداد للتصدي له.

ويبدو أن عامل المناخ أدى دوراً بارزاً في اتجاهات الفريقين، وحال دون لقاءهما في معركة. فقد حدث في ذلك الوقت أن هطل المطر بغزارة، وكثر الوحل، واشتدت البرودة، فهلك كثير من جند المغول، كما نفق أكثر خيلهم ودوابهم، وكان غازان قد وصل في غضون ذلك، إلى إنطاكية، فرأى نفسه عاجزاً عن الاستمرار في الزحف واضطر للعودة إلى إيران في (جمادى الأولى ٧٠٠هـ/ كانون الثاني ١٣٠١م)، وبعد أن نهبت قواته إنطاكية وجبل السماق^(١).

والواضح أنه على الرغم من اعتناق غازان الدين الإسلامي، فإن نظرتة السياسية إلى طبيعة الصراع مع المماليك، لم تمنعه من الترحيب بحلفاء نصارى من أجل الحصول على مساعدتهم بهدف زيادة قوته، والتحالف معهم للقضاء على الدولة المملوكية، ومن ثم فإن الإيلخان يئس أخيراً من مناصرة ملوك وأمراء أوروبا له، وكان قد نمي إليه بأن المماليك يتهيئون للأخذ بثأرهم، فمال إلى المهادنة، فأرسل في (رمضان ٧٠٠هـ/ آيار ١٣٠١م) رسالة إلى السلطان الناصر محمد تتضمن أفكاراً تعبر عن وجهة نظرة لتحسين العلاقات بين الدولتين، ممزوجة بالتهديد والوعيد، وقد رد السلطان المملوكي برسالة مماثلة^(٢).

جبل السماق: بلفظ السماق الذي يطبخ به، هو جبل عظيم من أعمال **حلب الغربية** يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع عامتها للإسماعيلية الملحدة وأكثرهم في طاعة صاحب حلب، وفيه بساتين ومزارع كلها عذي والمياه الجارية به قليلة، إلا ما كان من عيون ليست بالكثيرة في مواضع مخصوصة، ولذلك تثبت فيه جميع أشجار الفواكه وغيرها حتى المشمش والقطن والسمسسم وغير ذلك، وقيل: إنه سمي بذلك لكثرة ما ينبت فيه من السماق ... الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٢.

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٧٩.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٠.

الحملة المغولية الثالثة بقيادة غازان (معركة عُرْض)

بعد فشل إحلال السلام بين الدولتين المغولية في إيران والمملوكية، قرر **غازان** غزو بلاد الشام للمرة الثالثة، فقاد في (جمادى الآخرة ٧٠٢هـ / شباط ١٣٠٢م) جيشاً جراراً، عبر به نهر الفرات، ونزل في **الحلة**، حيث زار مشهد **الإمام حسين في كربلاء**، ووزع الهدايا، وتعطف على العلماء والمشايخ، ثم تقدم إلى **عانة** على شاطئ الفرات، فوصل إليها في شهر (رجب / آذار)، وبعد أن أمضى فيها أياماً عدة انتقل إلى **الرحبة** على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات، بين **عانة** و**الرقبة**، وحاصرها فاستسلمت له، وحاول استقطاب الأمير عز الدين أيبك الأفرم، نائب الشام، فأرسل إليه كتاباً يوضح فيه أنه حين هاجم بلاد الشام من قبل لم يكن متعدياً، وأن السلطان أخطأ في تقدير الموقف السياسي؛ فلم يتبع طرق اللباقة في رده، ويضيف بأن بلاد الشام كانت تابعة فيما مضى للروم (سلاجقة الروم) تارة، وللعراق تارة أخرى، ولم تكن تابعة لمصر، وطلب منه أن تكون غزة والرملة من ثغور مصر، وبرر تصرف جنوده السيء أنه حصل بغير أمره، وعرض عليه الدخول في طاعته^(١).

ومهما يكن من أمر، فقد غادر غازان **الرحبة** عائداً إلى **إيران** بعد أن ترك **سنجار**، ثم عبر دجلة وتوجه إلى مدينة **كشَف** التي تقع على مسيرة يومين من **أردبيل**، وأقام فيها ينتظر نتيجة المعركة. ويبدو أنه عانى من تهديد حدود بلاده الشرقية، أو أنه علم بمحاولة السلطان **محمد الناصر** استقطاب بعض قاداته المقربين منه، ومستشاريه الذين حذروه من حر بلاد الشام، ومن المتاعب التي سيصادفها هناك، وسار **قتلغ شاه** إلى بلاد الشام على رأس جيش جرار بلغ تعدادُهُ ثمانين ألف جندي، وقيل مائة ألف، ونزل على نهر الفرات ومن جهته استعد وأرسل في مقدمته الأمير بيبرس الجاشنكير، فدخل دمشق في (شعبان / نيسان)، ولما اطلع على الأوضاع العسكرية فيها، وعلم باقتراب المغول كتب إلى السلطان يستحثه على الخروج، ووصل قتلغ شاه في هذه الأثناء إلى حماة، وأرسل فرقة عسكرية مؤلفة من السكان، فتصدى لهم نائب طرابلس في موضع **عُرْض**^(٢)، ومعه ألف وخمسمائة جندي، وأخذهم على حين غرة، استمرت المعركة من منتصف النهار حتى العصر، وأسفرت عن **هزيمة الفرقة المغولية**، ووقع ألف وثمانمائة جندي مغولي في الأسر، بالإضافة إلى مائة وثمانين من الأرمن، وتم إنقاذ ستة آلاف أسير من **التركمان**، كانوا قد وقعوا في قبضة المغول، وقد أبلغ السلطان الناصر محمد نبأ هذا الانتصار الذي علق عليه **المؤرخ أبو الفداء** الذي حضر المعركة: بعد ذلك «وكان هذا النصر عنوان النصر الثاني»، ويقصد النصر في **معركة شقحب القادمة**.

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٧٩.

٢ - عُرْض: بلدة في برية الشام من أعمال حلب بين تدمر والرصافة. الحموي؛ ج ٤، ص ١٠٢.

معركة (شَقْحَب أو مرج الصُفَر) في ٢ رمضان سنة ٧٠٢ هـ / ٢٠ إبريل ١٣٠٣ م

استأنف **قتلغ شاه** زحفه باتجاه **دمشق**، في حين خرج **الناصر محمد** من **القاهرة** على رأس خمسين ألف مقاتل قاصداً دمشق، واصطحب معه **الخليفة العباسي المستكفي بالله**، وكان قد سبقه إليها الأميران ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وحسام الدين لاجين الاستادار المنصوري، فاطمأنت قلوب الناس بعد أن خشوا عاقبة الأمر.

والواقع أنه حصل الارتباك في حلب وحماة وحمص بعد أن تقهقرت القوات الحلبية والحموية إلى حمص أمام تقدم المغول، ونزلت هذه القوات في مرج الصُفَر في (٥ شعبان ٧٠٢ هـ / ٢٥ آذار ١٣٠٣ م)، ووصل المغول في هذا الوقت إلى حمص وبعلبك، وعاثوا فساداً فيهما، وانتاب الناس القلق مجدداً، لأن جيش الشام مع القوات التي قدمت من مصر لاستطيع وحدها الوقوف في وجههم نظراً لكثرتهم العددية. وعلى الرغم من ذلك، قرر القادة والأمراء والأعيان وذوو الرأي، الخروج للقاء العدو، ثم خرج **شيخ الإسلام ابن تيمية إلى المرج**، واجتمع بالجند القادمين من حماة، وأخبرهم بما تحالف عليه الأمراء والعامّة، فتحالفوا معهم وخرجت العساكر الشامية في (٢٤ شعبان / ١٣ نيسان) وخيمت على الجسور من ناحية الكسوة، في الوقت الذي وصل فيه المغول إلى مشارف دمشق، فاضطرب أمر الناس مجدداً، وغرقت المدينة في بحر من الفوضى وانتشرت اللصوصية، ولم تهدأ الأوضاع، وتطمئن القلوب، إلا بوصول السلطان الناصر محمد يوم السبت (٢ رمضان / ١ أيار) حيث عقد اجتماعاً فوراً مع قادته، تقرر فيه لقاء العدو **بشَقْحَب** تحت جبل غباغب من أرض مرج الصُفَر^(١).

وتعباً الجيشان استعداداً للمعركة، واستعرض السلطان، بصحبة الخليفة، الجيش ومعهما القراء يتلون القرآن، ويحثون على الجهاد، والتقى الطرفان في رحي معركة رهيبة، بدأت عصر يوم السبت واستمرت إلى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأحد، أبلى فيها المماليك وجيوش الشام بلاء حسناً، فتم لهم النصر المؤزر، وهلك عدد كبير من المغول، وأسّر بعضهم، وطارد المنتصرون قلول المنهزمين حتى **الرحبة** وقتلوا الكثير منهم، وحتى الذين استطاعوا النجاة صادفهم نهر الفرات فلم يتمكنوا من العبور، وغرق أكثرهم، واختار بعضهم السير بمحاذاة النهر قاصدين بغداد، ولكن هلك أكثرهم جوعاً، ولم يصل إلى **غازان** سوى واحد من كل عشرة، بمعنى أن عدد الذين قتلوا وأسروا بلغ تسعة أعشار الجيش^(٢).

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٥.



معركة (شَقْحَب أو مرج الصُفَر) في ٢ رمضان سنة ٧٠٢ هـ / ٢٠ إبريل ١٣٠٣ م

● حمص

الجابية: بكسر الباء وياء مخففة، وأصله في اللغة الحوض الذي يجبى فيه الماء للابل. قال الأعشى: كجابية الشيخ العراقي تَهْقُوقُ، فهو على ذا منقول، وهي قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب **مرج الصفر** في شمالي حوران إذا وقف الإنسان في **الصنمين**، واستقبل الشمال ظهرت له، وتظهر من **نوى** أيضاً، وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية، فيه حيات صفار نحو الشبر عظيمة النكاية. يسمونها أم الصويت، يعنون أنها إذا نهشت إنساناً صَوَّتْ صوتاً صغيراً ثم يموت لوقته، وفي هذا الموضع خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطبته المشهورة، وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع، ويقال لها: جابية الجولان أيضاً. **الحموي، معجم البلدان**، ج ٢، ص ٩١ - ٩٢.

جبل غباغب: قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق - (المقريزي، السلوك).

الجيش المملوكي

الجيش المغولي



دخل السلطان **الناصر محمد**، بعد المعركة، مدينة **دمشق** وسط مظاهر الفرح والابتهاج، وأوفد مبعوثاً خاصاً إلى مصر ليقوم بتبليغ هذه البشارة، ومكث فيها حتى عيد الفطر، أنعم خلالها على الأمراء، وصلى فيها صلاة العيد، ثم غادرها في (٣ شوال/ ٢١ آيار) عائداً إلى القاهرة، ولما وصل خبر الهزيمة إلى غازان اغتم، لأنه لم يذق طعم الهزيمة من قبل؛ وازداد غضبه حين وصل إليه كتاب من السلطان المملوكي يحقر من شأنه، ويتهكم عليه في سخرية لاذعة، ويطلب منه الجلاء فوراً عن العراق وتركها للخليفة العباسي، وهدده قاتلاً: وإن سولت لك نفسك بخلاف ذلك، فأنت لامحالة هالك، وعمّا قليل يخلو منك العراق والعجم، وتندم حيث لا ينفع الندم^(١).

أما عامة المغول فقد أسقط في أيديهم، واضطربوا اضطراباً شديداً، وخرج أهل **تبريز** للقاء المنهزمين أسوأ استقبال، ليطلعوا منهم على أسباب الهزيمة، وليعرفوا من فقد منهم، حتى إذا وقفوا على الحقيقة القاسية، علت الصرخات، وعمّ الحزن، وقامت النياحة على القتلى مدة شهرين كاملين. ودفع الحزن بغازان إلى أن ينزل العقاب بقادته المقصرين، ولم ينح **قتلغ شاه** من سخطه، وأمر بقتله، ثم تراجع عن ذلك بعد تدخل الأمراء، فغفا عنه، لكنه طرده من مجلسه ونفاه إلى جيلان. كانت **معركة شقحب** إيذاناً بأفول نجم غازان فبالإضافة إلى الخسارة الجسيمة التي مني بها، فقد كثرت الدسائس والمؤامرات من قبل الأمراء المغول لخلعه عن العرش، وكان من الطبيعي أن يكون لهذه الأحداث تأثير كبير عليه^(٢).



القائد المغولي غازان يهيم بالدخول إلى خيمته



هيثم الثاني، ملك أرمينيا (يسار) والمغولي غازان، يرافقه أمراء سنة ١٢٠٢م

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٥.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ص ٢٨٦.

شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وأثره في شحذ الهمم لقتال المغول:

عمل العلماء على إشراك الخليفة العباسي المستكفي بالله، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون الصالحي في مواجهة الغزاة، وقام **شيخ الإسلام ابن تيمية** بدور عظيم في هذا الجانب، فقد اجتمع نائب السلطان والأمراء وقادة الجند والعلماء، ونظروا فيمن يبعثوه إلى السلطان ليحثه على المجيء لنصرة أهل الشام، فوقع اختيارهم على الإمام ابن تيمية رحمه الله لما علموا من شجاعته وجراته في قول الحق والصدع به، ووقف ابن تيمية موقفاً شجاعاً في وجه السلطان - رغم جبروته وقوته - وقال له فيما قال: "إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايتها، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن"، ثم قال له: "لو قُدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم، وأنتم مسؤولون عنهم؟"، ولم يزل بهم حتى أرسلوا الجيوش إلى الشام.

وبعد ذلك اجتمع الأمراء وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم ورعاياهم حتى نودي في دمشق: بالألّ يرحل منها أحد، وتهياً الناس للقتال، وارتفعت الروح المعنوية عند الجند وعامة الناس، وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية أعظم الأثر في إلهاب عواطف الأمة وإذكاء حماسها، حتى إنه كان يحلف للأمراء وللناس: إنهم في هذه الكرّة منصورون، فيقول له الأمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: "إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً"، ثقةً منه بموعد الله بالنصر لمن أطاعه وجاهد في سبيله.

وكان يدور على الأجناد والأمراء، ويفتي الناس بالفطر، ويأكل هو من شيء معه في يده، ليعلمهم أن إفطارهم أفضل ليتقوا على القتال، فيفطر الناس معه.

ومرّ السلطان بصفوف الجيش والقراء يقرؤون الآيات التي تحضّ على الجهاد والاستشهاد، وهو يقول لهم: دافعوا عن دينكم وحريمكم، ووضعت الأحمال وراء الصفوف، وأمر الغلمان بقتل من يحاول الهرب من المعركة. وقد ثبت السلطان ابن قلاوون في ذلك الموقف ثباتاً عظيماً، وبأبى الله وصدقته فصدقته الله، حتى إنه أمر بجواده فقيّد لئلا يهرب.

ثم بدأ القتال والتحم الصفّان في يوم السبت الثاني من رمضان بسهل شقحب جنوبي دمشق، وكان عدد جيش التتار خمسين ألف مقاتل، وقيل: إن عدده كان يصل إلى مائة ألف، وطلب شيخ الإسلام ابن تيمية من قائد الجيش أن يوقفه موقف الموت، فأخذه القائد وأوقفه في مكان ينحدر منه التتار كالسيل الهادر، فلما أقبلوا وبريق سيوفهم يلمع من بعيد، والغبار منعقد فوق رؤوسهم، قال له: يا سيدي هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذا الغبار المنعقد، فدونك ما تريد، فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفتيه طويلاً، ثم أقدم على القتال، حتى تم النصر المؤزر للمسلمين. رحم الله الشيخ وبلغه منازل الشهداء.

الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري

٧٠٨ - ٧٠٩ هـ

لم تستقم الأمور طويلاً لبيبرس الجاشنكير لأنه لم يكن محبوباً عند المصريين بسبب سوء الأحوال الاقتصادية والسياسية، حيث انخفض في عهده منسوب النيل وارتفعت الأسعار، وفشا الوباء، ولاحت في الأفق تهديدات مغولية وصليبية. وحينما استقر بيبرس على عرش السلطنة حتى وردت الأنباء بأن ملك **قبرص** قد اتفق مع بعض ملوك الصليبيين على غزو دمياط، فأمر بيبرس بمد جسر من القاهرة إلى دمياط وجسر آخر بطريق الإسكندرية.

ثم وردت أخبار أخرى بتأهب المغول للهجوم على الشام. إلا أن وجود الناصر في الكرك كان هو ما يفزع بيبرس كثيراً، فأرسل إليه يطالبه بإعادة المال الذي أخذه من مصر إلى **الكرك**، وأمره أن لا يبق عنده سوى عشرة مماليك، مهدداً أيّاه بأنه إن لم يفعل ذلك فسوف يرسل إليه العسكر لتخرب الكرك عليه، فأرسل له الناصر مبلغاً من المال. وأمر بيبرس الجاشنكير بمنع الخمر في مصر، واستُخدِمَ عنف مفرط ضد العامة والتجار وحتى الأمراء. وتدهورت الأحوال وخرجت العامة تطوف الشوارع مرددة: "سلطاننا ركين ونائبنا دقين، يجينا الماء منين. جيبوا لنا الأعرج، يجى الما ويدحرج"^(١)، وبركين ودقين كانوا يقصدون بيبرس (ركن الدين) وسلار لقلة عدد شعرات لحيته، أما بالأعرج فكانوا يعنون الناصر محمد لأن كان به عرج خفيف.

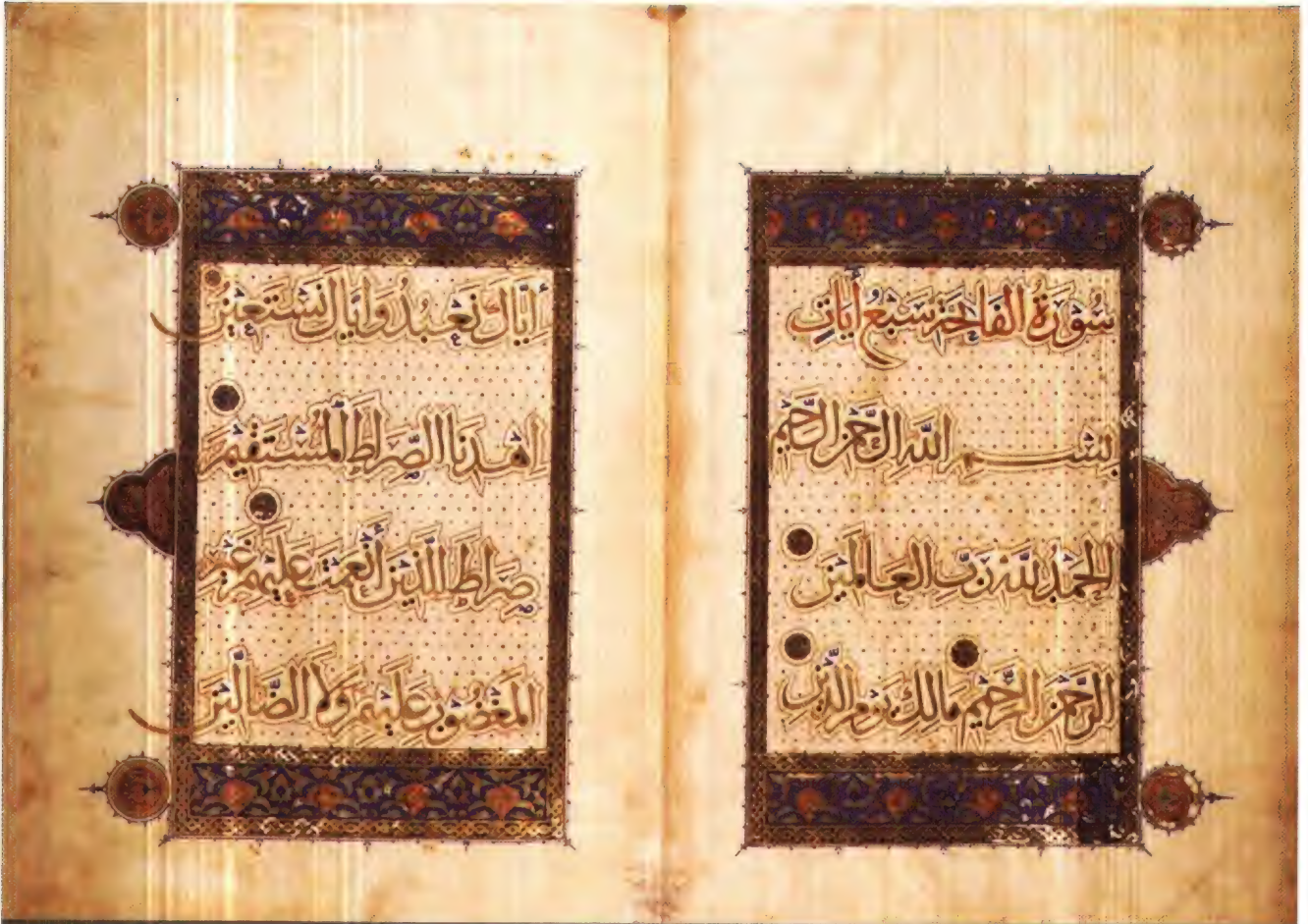
ونتيجة لهذه الظروف السيئة، فر بيبرس الجاشنكير إلى بلدة **أطفح بصعيد مصر**، ثم إلى مدينة **أخميم** عازماً الهروب إلى **برقة**، إلا أن أكثر مرافقيه تخلوا عنه وفارقوه في أخميم وعادوا إلى **القاهرة**، فقرر عدم الذهاب إلى برقة.

وفي اليوم اللاحق لفرار بيبرس من القاهرة، وكان يوم الأربعاء، وبأمر من سلار الذي بقي في القلعة، هتف الحراس باسم الملك الناصر وكتب سلار إلى الناصر محمد بن قلاوون بتنحي بيبرس وفراره، وفي يوم الجمعة خطب على منابر القاهرة ومصر باسم الملك الناصر، وأسقط اسم الملك المظفر بيبرس بعد أن حكم البلاد مدة تقل عن سنة.

وصل الملك الناصر إلى قلعة الجبل وجلس على تخت السلطنة لثالث مرة، واحتفل الناس بعودته وزينت القاهرة. وقبض على بيبرس الجاشنكير وحمل إلى الناصر مقيداً بالحديد، فعدد له ذنوبه وأقر بها بيبرس، وطلب العفو ولكن الناصر أمر بخنقه فخنق ودفن خلف القلعة^(٢).

١ - المقرئى، السلوك، ٢ / ٤٣١

٢ - المقرئى، السلوك، ٢ / ٤٤٩



مصحف بيبس الجاشنكير : محفوظ في المكتبة البريطانية بانجلترا. فريد من نوعه ويتكون من سبعة أجزاء وقد نسخ بالذهب لبيبس الجاشنكير في القاهرة بين عامي ١٣٠٤ و ١٣٠٦ م

أسماء متشابهة لبعض الأمراء الذين كانوا يحملون اسم ركن الدين بيبس وهم على النحو الآتي:

- ركن الدين بيبس البندقداري وهو الظاهر بيبس السلطان المعروف.
- ركن الدين بيبس الأحمدي.
- ركن الدين بيبس الأوحدي.
- ركن الدين بيبس الجالق.
- ركن الدين بيبس الحلبي، ويعرف أيضاً بـ أياجي الحاجبي.
- ركن الدين بيبس الدوادار، وهو أيضاً ركن الدين بيبس المنصوري، وهو المؤرخ المملوكي المعروف.
- ركن الدين بيبس الركني المظفري.
- ركن الدين بيبس السلاح دار.
- ركن الدين بيبس العجمي، وهو أيضاً الجالق المنصوري.
- ركن الدين بيبس المغربي.
- ركن الدين بيبس الموققي.
- ركن الدين بيبس خاص ترك الكبير.

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

المرّة الثالثة

٧٠٩ - ٧٤١ هـ

عندما أدرك **السلطان الناصر محمد** أن الأوضاع الداخلية أضحت مهيأة له، خرج من **دمشق** يوم الثلاثاء في التاسع من رمضان سنة ٧٠٩ هـ قاصداً **القاهرة**، يرافقه مماليكه وأتباعه، وقد صحبه المؤرخ أبو الفداء، فوصف لنا كشاهد عيان، كيف كان السلطان يلتقي كل يوم، في أثناء رحلته، بجموع المماليك، والأمراء الفارّة من القاهرة، وقد خرجوا لاستقباله وتقديم فروض الولاء والطاعة له. واستراح في **الكرك**، ثم غادرها إلى **غزة**. وتدفقت عليه جيوش مصر وبلاد الشام، ثم سار آمناً على نفسه، فوصل إلى القاهرة في أول أيام عيد الفطر، فاستقبله الأمير سلاور وبعض الأمراء، وقدموا له فروض الولاء والطاعة. واستقر على سرير ملكه في اليوم الثاني، وأقيمت الخطبة باسمه، وحضر الخليفة العباسي وكافة الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة لتهنئته واستبشر العامة بقدومه، ومدحه الشعراء وبذلك بدأت مدة حكمه الثالثة^(١).

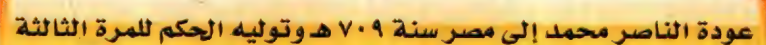
تعد سلطنة الناصر محمد الثالثة على جانب كبير من الأهمية؛ لأنها ظهرت فيها شخصيته التي طبعت أحداث التاريخ المملوكي بخاصة، وتاريخ المنطقة بعامة، بطابع فريد وخاص لما يقرب من إحدى وثلاثين سنة. كان الناصر محمد في الخامسة والعشرين من عمره، أي في سن تمكّنه من مباشرة شؤون الحكم بنفسه، وفرض كلمته على الأمراء، وعدم الاستسلام لهم ليتحكموا به كما حدث في الحقبين السابقتين^(٢).

قام الناصر بإلغاء بعض مناصب الدولة ومنها منصب الوزير في ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م، وصادر أموال أرباب الدولة الفاسدين الذين كونوا ثرواتهم من الرشاوي واستغلال المناصب، وأبعد المغول العويرتية عن مناصب الدولة، وألغى في ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م المكوس الجائرة التي فرضها الأمراء ورجال الدولة على عامة الناس لإثراء أنفسهم وكان هذا جزء من سياسته للحد من نفوذ وقوة الأمراء، وأبطل الرشوة وعاقب عليها. وكان الناصر يذهب بنفسه في كل يوم اثنين إلى دار العدل للإصغاء إلى شكاوي عامة الناس من أرباب الدولة والأمراء والموظفين. وأصدر قراراً يمنع النواب من معاقبة المتهمين والإساءة إليهم دون تصريح منه. ومنع ضرب الناس بالمقارع. وأغلق جب القلعة الذي كان يستخدم سجنًا، وكانت له سمعة سيئة وتسكنه الخفافيش. وقد بلغ النظام الإداري في عهد الناصر محمد مبلغاً عظيماً في الدقة والتنسيق.

٣ - المقريزي، السلوك، ٣ / ٢١٩

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٥٩.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٥٩.



علاقة الناصر محمد بن قلاوون بالحجاز

قامت سياسة **الناصر محمد** في بلاد الحجاز على قاعدة ضم هذا الإقليم ووضعه تحت السيادة المملوكية متبعاً نهج أسلافه نظراً للفوائد الدينية والتجارية التي يحصلون عليها. فمن حيث الفوائد الدينية، فإن استمرار سيادة المماليك على الأراضي المقدسة في الحجاز ستزيد من هيبتهم أمام المسلمين في العالم باعتبارهم أقوى دولة إسلامية، وسينظر المسلمون إليهم على أنهم حماة الدين^(١).

ومن حيث الفوائد التجارية، فإن سيطرة المماليك على بلاد الحجاز ضرورية للتحكم في سواحل البحر الأحمر وثغوره، لتأمين استمرار التجارة المملوكية. لذلك لم يتوان عن إحكام قبضته على بلاد الحجاز. وكان يضرب بشدة على أيدي الثائرين، ويقمع كل حركة مناهضة للحكم المملوكي. وحدث أن شبَّ الخلاف في عام (٧١٤ هـ / ١٣١٤ م) بين الأخوين عز الدين حميضة بن أبي نُمي الحسني المكي، وأسد الدين أبي عرارة رميثة، وكانا يشتركان معاً في إدارة شؤون مكة. فقد قام الأول على حذف اسم الثاني من خطبة الجمعة، وخطب **لصاحب اليمن** بدلاً منه، كما استبد بالأمور كلها وأساء السيرة في مكة، فدبت فيها الفوضى، واستنجد المكيون بالسلطان الناصر محمد.

لبى الناصر نداء الاستغاثة، فأرسل حملة عسكرية مع أخيهما الثالث أبي الغيث، بهدف عزلهما عن الولاية وتوليته مكانهما. كان المؤرخ أبو الفداء، آنذاك في مكة، فوصله كتاب من السلطان يطلب فيه أن يساند هذه الحملة ويقبض على حميضة، غير أن هذا الأخير ولَّى هارباً عندما علم بتقدم القوات المملوكية، فخلا الجو للأمير أبي الغيث، وتولى إمارة مكة ثم أعاد الحملة التي قدم معها إلى مصر. ويبدو أن أبا الغيث لم يتمتع طويلاً بالإمارة فقد هاجمه أخوه حميضة في أواخر عام (٧١٤ هـ / ١٣١٥ م) واشتبك معه في معركة انتهت بمقتله، واستبد بالأمور مجدداً. وتحرك في هذه الأثناء الأمير رميثة بهدف استعادة سلطته المفقودة. فقدم إلى مصر في عام (٧١٥ هـ / ١٣١٥ م) وقدم فروض الولاء والطاعة للسلطان، وطلب منه المساعدة لطرد أخيه واستعادة سلطته^(٢).

استجاب الناصر محمد لطلبه وأرسل معه حملة عسكرية ولما وصل إلى مكة اشتبك مع أخيه وانتصر عليه^(٣).

١- ٢، د. محمد سهيل طغوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٦٣.

٢- ٣ أبو الفداء، ج ٧، ص ٧٦ - ٧٧.



اجتمع **حميضة بالخان المغولي** وشرح له حقيقة الوضع في الحجاز، وطلب منه مساعدة عسكرية لاستعادة سلطته المفقودة. ولما كانت العلاقات بين الدولتين المملوكية والمغولية وفارس تمر آنذاك في حالة حذر؛ فقد لبى أولغايتو طلب الأمير المكي المعزول، **وأمدّه بجيش من خراسان بلغ تعداده أربعة آلاف فارس**، كان من بينهم **جماعة من المغول وعرب خفاجة** وسار بهم مكة، إلا أنه لم يحقق هدفه، فقد توفي أولغايتو قبل أن يصل هذا الجيش إلى مكة فتفرق، وحلت به الهزيمة على يد محمد بن عيسى أحد أمراء العرب الذي ساءه استيلاء المغول على الحجاز، وأسر حميضة مع أربعمائة من المغول، **وأعلن محمد بن عيسى سيادة الناصر محمد على بلاد الحجاز وذلك في عام (٧١٥هـ/١٣١٥م)^(١)**.

ابتهج السلطان بهذا الانتصار واستدعى محمد بن عيسى إلى القاهرة فاستقبله بحفاوة وخلع عليه وأبدى إعجابه به وتقديره له، وأجزل له العطاء، وعفا عن أخيه مهنا بن عيسى الذي كان قد خرج على حكم المماليك وانضم إلى **قراستقر** في فارس.

أعيدت، على إثر ذلك، **الخطبة في مكة والمدينة باسم الناصر محمد في عام (٧١٧هـ/١٣١٧م)**، والجدير بالذكر أن لقب **خادم الحرمين الشريفين** الذي اتخذهُ **الأيوبيون**، واحتفظ به المماليك من بعدهم، كان من ألقاب الناصر محمد، كما كان من ألقابه أيضاً صاحب القبلتين أي بيت المقدس ومكة^(٢).

بيد أن النزاع ما لبث أن تجدد في مكة في عام (٧١٨هـ/١٣١٨م) بين الأميرين حميضة ورميثة، وتغلب الأول على الثاني، وخلع طاعة المماليك، وخطب لأبي سعيد بهادر إيلخان المغول. لم يقف الناصر محمد موقف المتفرج من تطور الأحداث في مكة لغير صالحه، فأرسل حملة عسكرية لتعيد الأمور إلى نصابها، وطلب من الأمير بدر الدين بن التركماني، الذي ولاه إمرة الحج في هذه السنة، أن يقبض على الأخوين، خاصة بعد أن تبين له تواطؤ رميثة سراً مع أخيه حميضة.

تمكن التركماني من القبض على رميثة، وأرسله إلى مصر، واستقر هونائباً للسلطان الناصر محمد في مكة، واستمر في منصبه حتى عام (٧١٩هـ/١٣١٩م) لكنه قتل على يد المماليك قبل أن يحقق أمنيته^(٣).

وفي واقع الأمر أن سياسة المماليك في مكة قامت على عدم تفرد أي أمير بالحكم، خشية

١- ٢، د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

٢- أبو الفداء: ج ٤، ص ٨٤ - ٨٩.

من الانقلاب على الدولة، لذلك فقد عفا الناصر محمد عن رميثة بعد ذلك، وأرسله إلى مكة ليشارك مع أخيه عطيفة في إدارتها. وظلت السلطة موزعة بين الأخوين حتى توفي عطيفة، فانفرد رميثة بالحكم على أن الأمور لم تستقر تماماً فقد حدثت فتنة في عام (٧٣١هـ / ١٣٣١م)، قام بها العبيد الذين انقضوا على جماعة الأمراء والمماليك. ولما علم السلطان بهذه الانقضاضة أرسل جيشاً بقيادة الأمير **أيتمش** فهرب العبيد من وجه القوات المملوكية، وبرأ رميثة ساحتها أمام السلطان من هذه الفتنة، فعفا عنه وأعادته إلى مكة، وعينه أميراً عليها.

أما في **المدينة النبوية**، فقد استمرت الخلافات قائمة بين أمرئها للاستئثار بالسلطة، خاصة بين الأخوين مقبل ومنصور بن جمار من جهة، ثم هذا الأخير وابنه كبشة وبين ابن أخيه ماجد ثم ازدادت الحالة سوءاً بعد وفاة الأمير منصور في عام (٧٣٥هـ / ١٣٣٥م) بفعل تنازع خلفائه على السلطة حتى استتب الأمر إلى طفيل بن منصور في عام (٧٥١هـ / ١٣٤٩م) **والواقع أن سلطة الناصر محمد في الحجاز كانت اسمية**، وأن نفوذه لم يتعد ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة أحياناً، بالإضافة إلى ذلك فإن أمراء الحجاز لم يعترفوا بسلطة الخليفة العباسي في القاهرة، فلم يذكروا اسمه في الخطبة وقد عبّر العمري عن هذه العلاقة غير التامة، في بعض أوقات العصر المملوكي، بين المماليك وحكام الحجاز، حين ختم كلامه عن إقليم الكرك فقال: « وبهذا تم ذكر النطاق بمصر والشامات وما معها من جميع الممالك الإسلامية إلا الحجاز، وقد قطعه من جزيرة العرب، وليس أمره بمضبوط ولا بحفظ الثقة منوط »^(١).

مكة في عصر المماليك

مستند تاريخي

ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم؛ فمن عاداتهم أن يصلي أول الأئمة **إمام الشافعية**، وهو المقدم من قبل أولي الأمر. وصلاته خلف المقام الكريم، مقام إبراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له هنالك بديع، وجمهور الناس بمكة على مذهبه. والحطيم خشبتان موصول ما بينها بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان على صفتها، وقد عقدت على أرجل مجصصة، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق فيها قناديل زجاج. فإذا صلى الإمام الشافعي صلى بعده **إمام المالكية** في محراب قبالة الركن اليماني، ويصلي **إمام الحنبلية** معه في وقت واحد مقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلي **إمام الحنفية** قبالة الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك، ويوضع بين يدي الأئمة في محاريبهم الشمع. وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل إمام يصلي بطائفته، ويدخل على الناس من ذلك سهو تخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي. وتراهم مصيحين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو. ابن بطوطة، ج ١، ص ١٤٥.

علاقة الناصر محمد بن قلاوون باليمن^(١)

استتبع **سياسة المماليك** في البحر الأحمر، بسط سيطرتهم على اليمن، وتابع الناصر محمد سياسة أسلافه في هذا المجال. وكان اسم السلطان المملوكي واسم الخليفة العباسي في القاهرة يذكران في الخطبة وينقشان على السكة في بلاد اليمن. ولكن بعض ملوك اليمن تمتعوا بنزعات استقلالية، فامتنعوا عن أداء ما يتوجب عليهم للدولة المملوكية، ورفضوا ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة، ومالوا إلى إعطاء بلاد الحجاز التي كانت تابعة لمصر، ما اعتادوا إرساله إليها من الغلال بهدف أن يتقدم اسم ملك اليمن على اسم سلطان مصر في خطبة الجمعة، بالإضافة إلى ذلك فإن اليمنيين كثيراً ما أساءوا إلى التجار المصريين الذين كانوا يفدون على بلاد اليمن وسلبوهم أموالهم.

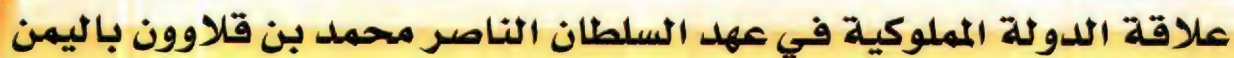
وكان المماليك من جهتهم حريصين على بسط سلطانهم على اليمن، لتأمين استمرار الحركة التجارية في البحر الأحمر، نظراً لما كانت تدره عليهم من منافع مادية، وتحقيق الأمن للتجار وبضائعهم.

وظهرت بوادر العصيان والرغبة في الانفصال عن الحكم المملوكي في عام (٧٠٧هـ/١٣٠٧م)، عندما توقف الملك المؤيد هزبر الدين داود بن يوسف بن رسول عن إرسال المال المقرر إلى مصر في كل عام، كما أساء معاملة التجار المصريين وسلبهم أموالهم، وأرسل في الوقت نفسه، إلى مكة، ليقدم اسمه على اسم السلطان الناصر محمد.

نتيجة لتطور الأوضاع في اليمن لغير مصلحة المماليك، هدد السلطان الناصر محمد ملك اليمن، وأنبذته إذا استمر على موقفه المعادي ولم يذعن بالطاعة له، كما أرسل إليه الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع كتاباً يعدد فيه المخالفات التي ارتكبتها، وأنبذته بدوره بإرسال حملة عسكرية لإخضاعه. ويبدو أن ملك اليمن استمر على رفضه للحكم المملوكي، مما دفع الناصر محمد إلى تكليف الأمير عز الدين أيبك الشجاعي بإعداد أسطول لغزو بلاد اليمن. غير أن الأحداث الداخلية التي حدثت في مصر آنذاك، والتي نتجت عن نشوب الخلاف بين السلطان وبعض أمرائه، خاصة سلاز وببيرس، ورغبة الأول في قيادة الحملة بنفسه لابتعد عن القاهرة، في أثناء اشتداد النزاع، قد أدت إلى تأجيل المشروع.

والواقع أن الملك المؤيد استفاد بعد أربع سنوات فعّال عن موقفه العدائي، ليفتح صفحة جديدة في

١ - ٢، د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٦٣.



العلاقات بين البلدين . ويبدو أنه تعرّض لمشكلات داخلية ورغب في الحصول على مساندة السلطان ضد منافسيه على الإمارة، فأرسل إلى الناصر محمد هدية من الجمال والخيول والوحوش، قبلها السلطان وأعدّها جزية من ملوك اليمن إظهاراً لخضوعهم لسلطان مصر.

وتجدّدت النزاعات الداخلية في عام (٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، وتراجع نفوذ المجاهد سيف الدين، صاحب اليمن، أمام تصاعد نفوذ ابن عمه الظاهر عبد الله بن منصور، صاحب دملوة، بحيث لم يتعدّ حصن تعز، فطلب المساعدة من السلطان. وكان الناصر محمد يرحّب بالتدخل في أمور اليمن لتأمين مصالح الدولة المملوكية، فأعدّ جيشاً عهد بقيادته على اثنين من أمرائه هما **بيبرس الحاجب وطينال**، وأنفق الأموال الكثيرة في إعداده وتجهيزه، وأرسله إلى اليمن لتحقيق هدفين:

الأول: مساعدة المجاهد وتأمين الحكم له.

الثاني: إحلال الوفاق بين الأمراء المتنافسين.

ولما علم سكان **زبيد** بقدوم الجيش المملوكي ثاروا على الملك الظاهر ودخلوا في طاعة الملك المجاهد، فقوي جانبه واستولى على زبيد. وعندما وقف الأمير بيبرس على حقيقة الوضع الداخلي في اليمن، أرسل إلى الملك الظاهر سفارة تطلعه على كتاب السلطان الناصر الذي يتضمن الرغبة في التوفيق بينه وبين الملك المجاهد.

واستطاع السلطان، نتيجة تدخله في أوضاع اليمن، حسم الخلافات الداخلية وتأمين مصالح الدولة المملوكية. وخضع ملوك هذا البلد لطاعة المماليك، وأضحت تجارة الشرق المارة في بلاد اليمن في مأمن من أن ينالها أي سوء.

ثم حدث أن تعرضت سلطة المماليك للتهديد مجدداً، ذلك أن الملك المجاهد خشي أن تضع الحكومة المملوكية يدها على اليمن تمهيداً لضمها إلى الأملاك المملوكية، فتوقف عن إمداد الجيش المملوكي بالموءن، ورفض التعاون مع الأمير بيبرس، كما امتنع عن دفع المال المقرر بحجة عدم قدرته على ذلك، وأحضر قضاة **تعز** وأشهدهم على نفسه أنه أذن للعسكر المملوكي بالعودة إلى بلادهم، فعاد بيبرس بجنده إلى مصر.

لم يحاول الناصر، بعد ذلك، ضم اليمن، ودخلت العلاقات المملوكية اليمنية في أواخر عهده

في دور جديد استحكم فيه العداء. ويعبر أبو الفداء عن هذه العلاقة في حوادث عام ٧٣٠هـ فيقول: « وفيه قدم رسول صاحب اليمن بهدية، فقُيّد وسجن؛ لأن صاحب الهند بعث إلى السلطان بهدايا، فأخذها صاحب اليمن، وقتل بعض من كان معها وحبس بعضهم ».

تعد **دولة الرسوليّين** (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ / ١٢٢٩ - ١٤٥٤ م) التي اتخذت من **تعز** عاصمة لها من أطول الدول عمراً في تاريخ اليمن الوسيط إذ استمرت قرنين وثلاث القرن، وحكمها خمسة عشر ملكاً أولهم نور الدين عمر الرسولي وآخرهم المسعود وهو أبو القاسم صلاح الدين بن الأشرف الرسولي، ويجعل بعض المؤرخين من المؤيد وهو منافس المسعود في الحكم آخر الملوك، لكن كليهما انتهى أمره في عام ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م على يد **الطاهريين**، **أعلن الرسوليّون** استقلالهم عن الدولة الأيوبية في مصر سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٢٢ م، وخطبوا للخليفة العباسي المعاصر لهم بعد أن طلبوا منه أمر نيابة مباشر عنهم في اليمن دون وساطة الأيوبيين، وكانت الخلافة العباسية في نزاعها الأخير، ولا تملك إلا الموافقة على طلبات من لا يزال يرى في غطاؤها الروحي أهمية لتوطيد ملكه وهو بالضبط ما احتاج إليه **الرسوليّون الذين ظلوا على ولاء للخلافة العباسية**، ويخطبون في مساجدهم **لاخر خلفائها المستعصم دهرأ طويلاً بعد وفاة دولتهم في بغداد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م** على يد المغول، إذ يذكر الخزرجي مؤرخ بني رسول المعاصر والمتوفى عام ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م، أن المستعصم: "هو الذي يدعى له على سائر المنابر إلى وقتنا هذا من سنة ثمان وتسعين وسبعمئة" أي بعد مائة وستة وخمسين عاماً من انتهاء الخلافة العباسية، وربما استمر بعد ذلك وإلى بدايات تصدع الدولة.



العلاقة مع دول شمالي إفريقيا^(١)

نتيجة لازدياد قوة الدولة المملوكية، وتزعّمها للعالم الإسلامي في الشرق الأدنى؛ أضحي المملوك في بلاد المغرب يتقربون إليها، ويستجدون بها ضد بعضهم بعضاً. واقتصرت سياسة الدولة العامة على السيطرة على ساحل إفريقيا الشمالي، أو إيجاد قوى حليفة لها للحؤول دون إنزال قوات صليبية معادية لها يمكن أن تهدد مصالحها.

وحدث في عام (٧١١هـ / ١٣١١م) أن زار الأمير **أبو يحيى زكريا الحفصي القاهرة**، واجتمع **بالسلطان الناصر محمد**، وطلب منه مساعدة عسكرية لاستعادة عرشه، الذي خسره في صراعه مع الأمير أبي البقاء خالد صاحب تونس، وتعهّد له بأن يصبح نائباً له في هذه البلاد، وأن يخطب باسمه. جهّز السلطان محمد فرقة عسكرية وأرسلها معه. ولما وصل إلى طرابلس التفتّ حوله جماعة من العربان والمغاربة، فتقوّى بهم، واستطاع أن يضم هذه المدينة إلى نفوذه، ثم تابع زحفه إلى تونس، وضمها إلى أملاكه، وخلع أبا البقاء خالد عن الحكم.

ولما استقرّ في الحكم حذف اسم **المهدي محمد بن تومرت** من الخطبة، وأمر بالدعاء للسلطان الناصر محمد. وبذلك امتدت سلطة الدولة المملوكية في عهد الناصر محمد إلى **برقة وطرابلس وتونس**، وظلت الخطبة تقام باسمه (من عام ٧١١ - ٧١٧هـ / ١٣١١ - ١٣١٧م). إذ حدث في ذلك الوقت، أن تمكّن الأمير أبو بكر، شقيق الأمير خالد المعزول، من دخول تونس فخرج منها أبو يحيى زكريا إلى فاس ثم إلى طرابلس، حيث أبحر منها إلى الإسكندرية في عام (٧١٩هـ / ١٣١٩م)، وعاش في كنف الناصر محمد. واقتصرت العلاقات المملوكية مع المغرب الأقصى على تبادل الرسل والهدايا نظراً لبعده المسافة بين البلدين. لكن حرص ملوكها على إبقاء طريق الحجاج عبر مصر مفتوحة، دفعتهم إلى توثيق العلاقات مع المماليك. فأرسل السلطان الناصر في عام (٧٠٦هـ / ١٣٠٦م) وفداً إلى سلطان المغرب الأقصى يوسف بن عبد الحق. وتقرّب خليفته أبو ثابت البزولي من المماليك في مصر، فأرسل إلى الناصر محمد هدية من الخيل والبغال والإبل. وعلى الرغم من أن هذه الهدية قد سُلّبت في أثناء نقلها، ولم تصل مصر، إلا أن العلاقات المملوكية - المغربية قد توثقت وازدادت رسوخاً في عهد سلطان المغرب أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب **المريني** الذي حرص على التقرب من سلطان المماليك، فكتب إليه يبشره بفتح بجاية، والانتصار على تلمسان في عام (٧٢٧هـ / ١٣٢٧م)، كما أرسل إليه في العام اللاحق الهدايا بصحبة ابنته وحاشيتها، وكانت في طريقها لأداء فريضة الحج وأحسن ضيافتها.



بعد أفول **دولة الموحدين** تعاقبت على بلاد المغرب الإسلامي ثلاث دول هي: دولة **بني حفص** شرقاً، ودولة **بني مرين** غرباً، ودولة **بني زيان** بالأوسط؛ وتلاشى المذهب الشيعي الإسماعيلي من المنطقة الذي دعت إليه الدولة العبيدية، بينما هيمن المذهب السنّي المالكي على الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس، وحافظ المذهب الإباضي على وجوده في تاهرت وسجلماسة وجربة وجبل نفوسة وغرداية أيام بني يزغن.

علاقة المماليك مع الدولة الإيلخانية (مغول فارس)

انتهج الخان المغولي **أولغايتو** نهج أسلافه من حيث الوقوف موقف العداء من المماليك. وبالرغم من أنه أرسل السفراء إلى مصر لإظهار صداقته للناصر محمد وتأكيد حسن نياته نحوه، إلا أنه لم يكن مخلصاً في تودده. **فقد اعتنق هذا الخان المذهب الشيعي وغلا فيه**، وعمل على نشره في المناطق الغربية من بلاده، **فاشتد العداء بينه وبين المماليك السنة**، وطمع في الاستيلاء على بلاد الشام ومصر، وهي السياسة التقليدية لمغول فارس منذ عهد هولاكو.

وحاول قبل الإقدام على غزو بلاد الشام، التحالف مع الغرب الأوروبي العدو التقليدي للمماليك، لتطويق هؤلاء، والحصول على مساعدة عسكرية. فوجّه، من أجل ذلك، رسائل عدة إلى ممالك الغرب المسيحي. فأرسل إلى البابا كلمنت الخامس، وإلى إدوارد الأول ملك إنكلترا، وفيليب لوبل ملك فرنسا، ليؤكد الاستمرار في الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة التي اتبعها أسلافه معهم، ويعرب عن استعداداته للتحالف معهم.

ويبدو أن تبادل الرسائل مع ممالك الغرب الأوروبي لم يؤد إلى نتيجة إيجابية على الرغم من اعتقاد البابا وملوك أوروبا بأن **أولغايتو** كان يميل إلى الدين المسيحي، وقد كوّنوا هذا الانطباع نتيجة إخفاء مبعوثه إليهم نبأ اعتناقه الإسلام حتى يضمن مساعدتهم^(١).

محمد خودابند **أولغايتو** ثامن سلطان الإلخانية: وهو ابن حفيد هولاكو، وابن أرغون، وشقيق وخليفة محمود غازان على عرش إلخانية. عمّدت أمه لدى ولادته مسيحياً باسم نيقولا. وفي شبابه تحول إلى البوذية، ثم إلى الإسلام السني، ثم تأثر **أولغايتو** بتعاليم الحلي، وتحول للمذهب الشيعي. بل وكان ينوي نقل رفات سيدنا علي -رضي الله عنه- إلى مسجد جديد يبنيه في عاصمته الجديدة، السلطانية. لقد كان يظن بتحوّله إلى المذهب الشيعي أن ذلك سيوطد حكمه، إلا أن العكس حدث باندلاع الاضطرابات في العراق.

اعتلى **أولغايتو** العرش الإلخاني خلفاً لأخيه السلطان محمود غازان، وذلك في (١٥ ذي الحجة ٧٠٣هـ = ٢١ يوليو ١٣٠٤)، ولم يكن عمره قد تجاوز الرابعة والعشرين، وتسلم قيادة الدولة وهي في أوج بهائها وعظمتها؛ فإصلاحات غازان قد أصابت كل أنحاء الدولة، ودفعت بها خطوات واسعة نحو الحضارة والمدنية والإنسانية. وبعد ثلاثة أيام من الحكم أصدر (**أولغايتو**) مرسوماً بإقامة شعائر الإسلام، واحترام القوانين الشرعية التي أصدرها أخوه محمود غازان، وإلزام المغول كافة باعترافهم بالإسلام، وأبقى "رشيد الدين فضل الله الهمداني" في منصب الوزارة كما كان في عهد أخيه، وكان عالماً كبيراً ومؤرخاً عظيماً، صاحب الكتاب المعروف (جامع التواريخ)، وهو يعد أهم كتاب تناول تاريخ المغول في هذه الحقبة.

تأثرت العلاقات بين المغول والمماليك في عهده نتيجة لاعتراف الإلخان المذهب الشيعي. وهو يُعد أول حاكم مغولي يعتنق المذهب الشيعي، وأمر به الجند وألزمه أهل مملكته، وذلك في سنة (٧٠٩هـ = ١٣٠١) بعد أن كان سنياً يلتزم المذهب الحنفي ثم الشافعي.

وحاول أن يوثق عرى الصداقة بين دولته والمماليك، وتودد إلى **السلطان الناصر محمد بن قلاوون** سلطان دولة المماليك، ثم لم تلبث أن ساءت العلاقة بين الدولتين. موقع المعرفة على الشبكة العنكبوتية.



الوضع السياسي العام بين المماليك والإيلخانيين

رسالة من أولجايتو (أولغايتو) إلى قليب الرابع ملك فرنسا عام ١٣٠٥م



الحملة على بلاد الشام (حصار الرحبة)

حدث في أوائل عام (٧١٢هـ/١٣١٢م) أن شقَّ الأمير قراسنقر نائب دمشق عصا الطاعة على الناصر محمد، وأخذ يؤلب عليه نواب الشام، انضم إليه جمال الدين أقوش الأفرم الأمير عز الدين الزردكاش، وبعض الجنود. وحتى يكون هؤلاء في مأمن، التجأوا إلى فارس حيث استقبلهم أولغايتو ورحب بهم وأقطعهم الإقطاعات. وهؤلاء اللاجئون هم الذين حثَّوا أولغايتو على الإغارة على بلاد الشام، «بعدها هَوَّن قراستقر عليه الأمر، وحسَّن له الأفرم الاستيلاء على هذا البلاد»، بهدف الانتقام من السلطان.

رَحَّب **أولغايتو** بهذه الفكرة، ووجدها فرصة سانحة لتحقيق أطماعه بالاستيلاء على بلاد الشام، فأعدَّ جيشاً جراراً توجه به إلى **الموصل**، واصطحب معه أشهر قادته بالإضافة إلى أمراء بلاد الشام الذين التجأوا إليه، وانضم إلى هذا الجيش عساكر من **الكرج والأرمن** ^(١).

وتابع الجيش زحفه إلى شاطئ الفرات فألقى أفرادُه أنفسهم أمام **مدينة الرحبة**، فحاصروها في (السادس عشر من شهر رمضان عام ٧١٢هـ/شهر كانون الثاني عام ١٣١٢م). وكان الأمير الأفرم قد تعهد للخان بإقناع صديقه بدر الدين قائد حامية القلعة بعدم المقاومة والمبادرة إلى التسليم. لكن هذا الأخير رفض الإذعان لنصائح صديقه، وقرر سلوك سبيل المقاومة لمنع أولغايتو من الاستيلاء على الرحبة. **وأمام هذا الحصار القاسي صمد السكان أمام ضغط المغول**، لكن عندما اشتد الحصار وحمي وطيس المعركة، لم يجد قاضي الرحبة مفرّاً من التسليم، فأرسل يستعطف أولغايتو لعله يستجيب لندائه فيأمر بوقف القتال. وأدَّى رشيد الدين وزير أولغايتو دوراً كبيراً في إقناع سلطانه بأن يفك الحصار عنها، وعاد مسرعاً إلى فارس. وفي رواية أن رشيد الدين أشار من تلقاء نفسه على السلطان أولغايتو بالعفو عن أهل الرحبة، كما أشار إلى المحاصرين بالخضوع للمغول ^(٢).

قال ابن جبير: «... كان وصولنا الفرات ضحوة النهار، وعبرنا في الزوارق المقلّة المعدة للعبور قلعة جديدة على الشط تعرف بقلعة نجم، وحولها ديار بادية، وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز، فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور. وإذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام وسرت في طاعة صلاح الدين دمشق.

والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر. وعن يسار الطريق، في استقبالك الفرات الشام، مدينة الرقة، وهي على الفرات، وتليها **رحبة مالك بن طوق** وتعرف برحبة الشام، وهي من المدن الشهيرة، ثم رحلنا منها عند مضي ثلث الليل الأول وأسرنا ووصلنا مدينة **منبج** مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور، والثاني والعشرين ليونيه». **رحلة ابن جبير، ج ١، ص ٩٢.**

١ - د. محمد سهيل طلقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٧١.

٢ - المقرئزي: ج ٢، ص ١١٥.

ما الذي حدث في المواقف السياسية حتى أقدم أولغايتو على فك الحصار عن الرحبة وعاد مسرعاً إلى بلاده ؟

- الواقع أنه كانت هناك عوامل عدة دفعت الزعيم المغولي على ذلك، لعل أهمها:
- ١- المقاومة الضارية التي لقيها من جانب حامية الرحبة، وفشله في الاستيلاء عليها بالقوة. وبما أنها أول قلاع الشام من ناحية العراق، فإنه قدّر بأن حملته سوف تصادف الفشل.
 - ٢- أنه علم بأن **السلطان الناصر محمد** أعدّ جيشاً جراراً، «حتى لم يبق في مصر أحد من العسكر»، وخرج على رأسه من القاهرة قاصداً بلاد الشام بهدف الاصطدام به، ووقف تقدمه، ويبدو أنه خشي من قوة الجيوش المملوكية خاصة وأنه فشل في الحصول على مساعدات من أوروبا الغربية.
 - ٣- وقع أولغايتو تحت تأثير وزير رشيد الدين الذي أقنعه بفك الحصار عن الرحبة والعودة إلى فارس. وقد أشار المؤرخ ابن كثير بموقف هذا الوزير حين قال: «وكانت له يد جيدة يوم الرحبة، فإنه صانع عن المسلمين، وأتقن القضية في رجوع ملك التتار عن البلاد الشامية سنة اثنتي عشرة».
 - ٤- يبدو أن أولغايتو تعرض لضغط شديد على حدود بلاده الشرقية من جانب الجغتائيين حكام بلاد ما وراء النهر، وأن الهزيمة قد حلت بجيشه الذي يعسكر هناك. وترتب على ذلك أن ساءت الأوضاع في خراسان، وتعرض السكان لكثير من المتاعب والمشقات، كما تعرضت حدود بلاده الشمالية لضغط من القبيلة الذهبية بزعامة أوزبك خان، لذلك حرص على فك الحصار عن الرحبة.
 - ٥- كان لعامل المناخ أثر واضح على اتجاهات الحملة. فقد كان الفصل شتاءً، والحرارة متدنية، والطرق موحلة، ففقد الجيش المغولي عنصر حرية الحركة الضروري لخوض المعركة وتحقيق الانتصار^(١).

أرسل الناصر محمد سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م) قوة من حلب قوامها ستمائة فارس بقيادة الأمير شهاب الدين قراطاي، لإخضاع والي **ماردين** الذي خالف أوامره.

تقدم الأمير قراطاي وأغار على تلك البلاد مدة يومين. وصادف أن قدمت إلى المنطقة آنذاك قوة **مغولية** قوامها ألفا قتل منهم ستمائة رجل، وأسر ما يزيد على المائتين، وقدم بالرؤوس والأسرى والغنائم إلى حلب، فلما علم السلطان الناصر (سُر سروراً زائداً)، وأرسل الخلع والهدايا إلى نائب حلب وقراطاي.

١ - د. محمد سهيل ملقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٧١.

العلاقة المملوكية - المغولية الفارسية في عهد أبي سعيد بهادر خان

توفي أولغايتو في (شهر رجب عام ٧١٧هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٣١٧م) وخلفه ابنه أبو سعيد بهادرخان (٧١٧ - ٧٣٦هـ/ ١٣١٧ - ١٣٣٥م)، وكان في الثانية عشرة من عمره، وتولى الأمير جوبان الوصية عليه.

وقد سعى هذا الإيلخان للدخول في مفاوضات مع السلطان الناصر محمد بهدف عقد صلح بينهما، لأنه لم يكن على استعداد للدخول في صراع مسلح مع المالك، وذلك بفعل ثلاثة دوافع:

الأول: داخلي ويتمثل باضطراب الأوضاع الداخلية للإيلخانية نتيجة للصراع الدامي بين الأمراء من أجل تحقيق مصالح شخصية.

الثاني: خارجي، ويتمثل في التهديد المستمر للإيلخانية فارس من قِبَل أبناء أعمامه في بلاد ما وراء النهر والقوقاز الذين يطمعون في الاستيلاء على مناطق نفوذهم.

الثالث: توالي الخسائر المادية نتيجة الاصطدامات بالممالك.

وقد رأى أبو سعيد وأعوانه أنهم عاجزون عن السير في السياسة التقليدية المعادية للممالك في بلاد الشام ومصر، الذين صمدوا في وجههم، وتغلبوا على أسلافهم في معارك حاسمة عدة.

وكان الناصر محمد، منجبه، لازال يكن العداوة للمغول، على الرغم من المفاوضات السلمية التي ابتدأت بين الطرفين من عام (٧١٨هـ/ ١٣١٨م)، **حتى إنه أرسل في عام (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) ثلاثين رجلاً من**

طائفة الحشاشين إلى فارس لاغتيال قراسنقر حاكم مراغة.

وعلى الرغم من فشل هذه المؤامرة، إلا أنها أخافت المغول إلى حد كبير، وأحدثت في نفوسهم أثراً سيئاً. فقد انتشرت الإشاعات في تبريز أن هؤلاء **الإسماعيلية** حضروا لاغتيال السلطان أبي سعيد نفسه، بالإضافة إلى جوبان والوزير علي شاه وسقراسنقر وأمراء مغول آخرين، فاحتجب الخان المغولي أحد عشر يوماً في خيمته خشية على نفسه^(١).

وقد استدعى جوبان رسول الناصر محمد، وهو مجد الدين إسماعيل، وعنفه وهدده بالقتل، وقال له: "ويلك، أنت كل قليل تحضر إلينا هدية، وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحب، لتمكر بنا حتى تقتلنا **الفداوية والإسماعيلية**". لكن علي شاه تشفّع به.

وكان من المتوقع أن يؤدي هذا الحادث إلى قطع مفاوضات الصلح واستئناف سياسة العداء بين البلدين، غير الخوف الشديد الذي اعتري أباسعيد ورجال دولته كان دافعاً للتعجيل بطلب الصلح.

وبعد ثلاث سنوات من المفاوضات المستمرة، جنح السلطان الناصر محمد إلى السلم بعد أن عبّر له أبو سعيد عن نواياه الطيبة، ورغبته الصادقة في قيام علاقات بينهما على أسس من المحبة والاحترام المتبادل. وأوفد **الخان المغولي** المجد السلافي مبعوثاً له إلى **القاهرة** لإجراء مفاوضات الصلح بشروط محمودة. ثم قدمت الرسل بصحبة نصير الدين قاضي القضاة ومعهم كتاب الصلح الذي تضمن شروطاً منها:

١. الامتناع عن إرسال **الإسماعيليين الحشاشين** إلى البلاد التي يحكمها المغول.
٢. عدم المطالبة بتسليم أي شخص قدم إلى بلاد المغول من مصر.
٣. من يفد إلى مصر من المغول، لأيعاد إلى بلده إلا برضاه.
٤. لا يسمح سلطان مصر للأعراب البدو، ولا التركمان، بالإغارة على بلاد الإيلخانيين.
٥. تسهيل التبادل التجاري بين البلدين، وتأمين انتقال التجار بينهما، مع توفير الحرية التامة لهم.
٦. تسيير **المحمل** كل عام، من العراق إلى الحجاز رافعاً علمين أحدهما باسم سلطان مصر والآخر باسم خان فارس.

٧. وقف مساعي السلطان محمد في القبض على قراسنقر أو محاولة التخلص منه. عقد الناصر محمد اجتماعاً مع أعوانه للتداول في هذه الشروط، وتقرر قبولها، وإعلام المغول بذلك^(١).

كان من مظاهر هذا الصلح بين البلدين أن:

١. توطدت العلاقات الطيبة بين المماليك وإيلخانيي فارس، ويُعد ذلك تحولاً في العلاقات بين الدولتين. إذ هدأت المنطقة ولم تعد تشهد حروباً طاحنة من نوع الحروب التي شهدتها القرن الثالث عشر الميلادي، وسادت المنطقة جو من السلام والأمان.
٢. صار يُدعى لأبي سعيد في مكة بعد الدعاء للناصر محمد.
٣. صرف الإيلخانيون النظر عن التحالف مع الغرب الأوروبي، لكن ذلك لم يمنع الخان من إجراء مفاوضات مع البابا يوحنا الثاني والعشرين، الأمر الذي ترتب عليه قدوم مفاوضين من الغرب، وتيسر بذلك قيام هيئة للأساقفة في مدينة السلطانية عاصمة الإيلخانيين تحت زعامة رئيس لهم. كما استمرت العلاقات التجارية قائمة، لكن فرص التحالف بين الجانبين قد تضاءلت.
٤. أقرّ أبو سعيد سياسة الازدواج في الولاء لأرمينيا الصغرى.
٥. محاولة التقرب بين الطرفين عن طريق المصاهرة. فقد أرسل أبو سعيد سفارة إلى الناصر محمد في عام (٧٢٧هـ/١٣٢٧م) يطلب خطبة ابنة السلطان لأمير دمشق خواجا ابن الأمير جويان نائب الإيلخان. وافق السلطان على هذه المصاهرة، لكنه اشترط حضور العريس إلى القاهرة، وأكرم وفادة أعضاء الوفد، وأعادهم إلى بلاد العراق بهدية جلييلة^(١).



كان من أماني السلطان غازان أن يبني مدينة بموضع بستان سلطانية الواقعة شمال شرقي العراق في البلاد الواقعة بين نهري زيجان وأبهر، وشرع في تنفيذ ذلك لولا أن وافته الأجل المحتوم، فحال بينه وبين إتمام المدينة. وكان المغول يطلقون على موضع سلطانية الحالي اسم (قنقور الألك)، وكانت مرعى لأغنامهم ينزلون به في طريقهم من العراق إلى أذربيجان، وجاء السلطان محمود غازان واتخذ من هذا المكان أساساً لمدينته، ثم بدأ **أولجايتو** في استكمال ما بدأه أخوه، فأنشأ المدينة في عشرين مستراحاً، وأطلق عليها اسم سلطانية وأخذها عاصمة لدولته.

مبنى من العصر الإيلخاني بمدينة سلطانية عاصمة الدولة الإيلخانية (مغول فارس) في مراحل الترميم

العلاقات المملوكية مع النوبة^(١)

يبدو أن الحملات التي أرسلها السلاطين المماليك إلى بلاد النوبة في أوقات متفرقة قد آتت أكلها، فخفضت هذه البلاد للسيطرة المملوكية مع ما يجنيه المماليك من فوائد تجارية. وظل ملوك **دنقلة** يعبرون عن ولائهم للسلطنة بين حين وآخر، ويحتكمون إلى السلطان كلما نشب نزاع بينهم.

فقد قدم الملك **أماي** إلى القاهرة سنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م)، يحمل الهدايا ليجدد الولاء للسلطان الناصر محمد، ويطلب منه مساعدة عسكرية ضد منافسيه.

ويبدو أن الأمور لم تستقر تماماً لأماي، فقد ثار عليه أخوه **كرنبس** وقتله سنة (٧١١هـ/١٣١١م) وحل محله في سدة الحكم. وقد شعر هذا الملك بحاجته إلى مساندة المماليك وتأييدهم، فزار **القاهرة** وأعلن ولاءه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون حاملاً الجزية والضرائب المقررة على بلاده، لكن كرنبس، الذي اتصف بالتقلبات السياسية السريعة، ما لبث أن قلب ظهر المجن للمماليك، مما دفع **الناصر محمد إلى إرسال حملة عسكرية لتأديبه بقيادة الأمير عز الدين أبيك جهاركس**، وأمره بوضع حل جذري للمشكلة النوبية، وأرسل معه أحد الأمراء النوبيين وهو سيف الدين عبدالله بن شنبو ابن أخت داود ملك النوبة السابق، لتعيينه ملكاً على بلاد النوبة.

والواقع أن تفكير السلطان المملوكي في تعيين حاكم نوبي مسلم، تربى في المجتمع المملوكي، يدل على اتجاه جديد في العلاقات بين القاهرة ودنقلة، قائم على **حث النوبيين الدخول في الدين الإسلامي، ليصبحوا جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي**، بالإضافة إلى تشجيع الهجرة العربية إلى بلاد النوبة لتعزيز العنصر العربي فيها، مما أدى في نهاية المطاف إلى سقوط مملكة النوبة المسيحية، حتى لم يعد المماليك ينظرون إلى هذه البلاد بوصفها ميداناً جديداً للجهاد إلى جانب الميدان الصليبي. واختلط النوبيون بالعرب عن طريق المصاهرة.

ولما علم كرنبس بمسيرة الحملة، وبنية السلطان تعيين حاكم مسلم، أرسل ابن أخته كنز الدولة، وهو مسلم، إلى القاهرة يطلب منه توليته الملك، ولكن الناصر محمد لم يستجب لتلك الرغبة، واعتقل كنز الدولة.

ويبدو أن عبدالله لم يتمتع طويلاً بالحكم، نظراً لاتصاله بالكبر والتسلط. فقد ثار عليه كنز الدولة، بعد أن أفرج عنه السلطان، وسأله السكان، ونجح في التغلب عليه وقتله، وجلس مكانه على عرش دنقلة. استاء السلطان مما فعله كنز الدولة، فرفض الاعتراف بسلطته، وأطلق سراح **أبرام**، أخي كرنبس، وأرسله إلى **النوبة** ليقبض عليه.

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٧٩ - ٢٨١.

النوبة في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون

معاهدة البقط: هي معاهدة بين مملكة المقرّة وحكام مصر المسلمين. استمرت نحو **سبعمانّة سنة**. لذا تُعد من أطول المعاهدات في التاريخ. عقدت المعاهدة عام ٣١ هـ حيث قاد عبد الله بن أبي السرح جيشاً باتجاه الجنوب ضد الممالك المسيحية في النوبة. **بعد معركة دنقلة**، أدرك ابن أبي السرح صعوبة الاستيلاء على هذه المنطقة. لذا عقد المعاهدة التي تم التفاوض عليها بين أبي سرح وملك المقرّة "كالديرات".

قال أبو الحسن المسعودي: **والبقط** هو ما يقبض من السبي في كل سنة، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم، وهو ثلثمائة رأس وخمسة وستون رأساً لبيت المال بشرط الهدنة بين النوبة والمسلمين، وللأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأساً، ولخليفته المقيم بأسوان وهو المتولي لقبض **البقط** عشرون رأساً، وللحاكم المقيم بأسوان الذي يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤوس، ولاثني عشر شاهداً عدول من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي على حسب ما جرى به الرسم في صدر الإسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة. المقريري.

المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٣٦٩.



قال البلاذري في كتاب الفتوحات: إن المقرّر على النوبة أربعمانّة رأس يأخذون بها طعاماً أي غلة، وألزمهم أمير المؤمنين المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور (العباسي) ثلثمائة وستين رأساً وزراقة. المقريري، المواعظ

والاعتبار، ج ١، ص ٣٦٩.

١٠٠ ٥٠ ٠ كم

ولم يكد أبرام يصل إلى **دنقلة** حتى دخل كنز الدولة في طاعته وتنازل له عن الملك، لكنه خشي من طموحاته المستقبلية، فقبض عليه وعزم على إرساله إلى القاهرة، إلا أنه توفي فجأة سنة (٧١٧ هـ/١٣١٧ م)، قبل أن يحقق غايته، فاعتلى كنز الدولة العرش مجدداً.

ويبدو أن الناصر محمد أصر على معاملة كنز الدولة ككائن على السلطة المملوكية، وأعد تصرفه تحدياً شخصياً له، لذلك أرسل حملة عسكرية إلى **بلاد النوبة** سنة (٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م) بقيادة الأمير علاء الدين بن علي قراسنقر، لمحاربته، وأرسل معه كرنبس ليتوج ملكاً على البلاد، خاصة وأنه اعتنق الدين الإسلامي عقب مجيئه إلى القاهرة مأسوراً.

نجحت الحملة في تحقيق هدفها، فتم تنصيب كرنبس ملكاً على بلاد النوبة، وفر كنز الدولة. ثم غادرت الحملة **دنقلة** عائدة إلى مصر، فاستغل كنز الدولة هذا الفراغ العسكري، وظهر مجدداً على مسرح الحياة السياسية، ونجح في استرداد الملك.

كانت هذه الحملة هي الأخيرة في سلسلة **الحملة المملوكية ضد بلاد النوبة**، لأن السكان ساروا سريعاً نحو الدخول في الإسلام، واصطبغت البلاد بالصبغة العربية نتيجة هجرة قبائل عربية إليها، ومن ثم فلم تعد تشكل خطراً على المماليك على حدودهم الجنوبية.

وظل أولاد كنز الدولة، الذين أصبحوا أصحاب السيادة على جزء كبير من مصر العليا، حكاماً للنوبة، حتى ضم السلطان سليم العثماني مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية سنة (٩٢٣ هـ/١٥١٧ م).

مستند تاريخي

معاهدة البقط بين المسلمين وأهل النوبة سنة ٣١ هـ

«عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة، أن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاؤهم من أهل سعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الدمة؛ إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم، أن لا تحاربكم ولا تنصب لكم حرباً ولا تغزوكم ما أقمت على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وتدخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم، أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وإن عليكم رد كل أبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تمنعوا منه، ولا تعرضوا لمسلم قصده وحاووه إلى أن ينصرف عنه، وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون ببناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصلياً، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمه، وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم، غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان، وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم، ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان، فإن أنتم أويتم عبد المسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون ببناء مدينتكم بهدم أو منعم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأساً، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، علينا بذلك عهد الله وميثاقه ودمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدنونه به من دمة المسيح، وذمة الحواريين، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملئكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك، كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين».

المقريزي، المواعظ والاعتبار، المصدر السابق.

الحملة على بلاد النوبة

قام المماليك في عهد **الناصر محمد** بتجديد معاهدة **البحر**، وتم إرسال حملة عام ٧٢٢ هـ إلى **دنفلة** لضرب الملك المسيحي النوبي، ووضعوا بدلاً عنه ملك كثري يدعى نصر الدين بن شعاع، ومن الهجرات العربية التي اندفعت إلى النوبة في العصر المملوكي هجرة **جهينة**، وهي واحدة من أهم الهجرات العربية، وهكذا انتشر الإسلام في بلاد النوبة.

وقد كان للهجرات العربية والتجار العرب الفضل الأول - بعد الله تعالى - في انتشار الإسلام في بلاد النوبة، وأن كان الانتشار تم بشكل بطيء واستغرق وقتاً طويلاً منذ حملات عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - حتى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ثم اكتملت - بفضل الله تعالى - ظاهرة انتشار الإسلام في القرن الخامس عشر الميلادي.

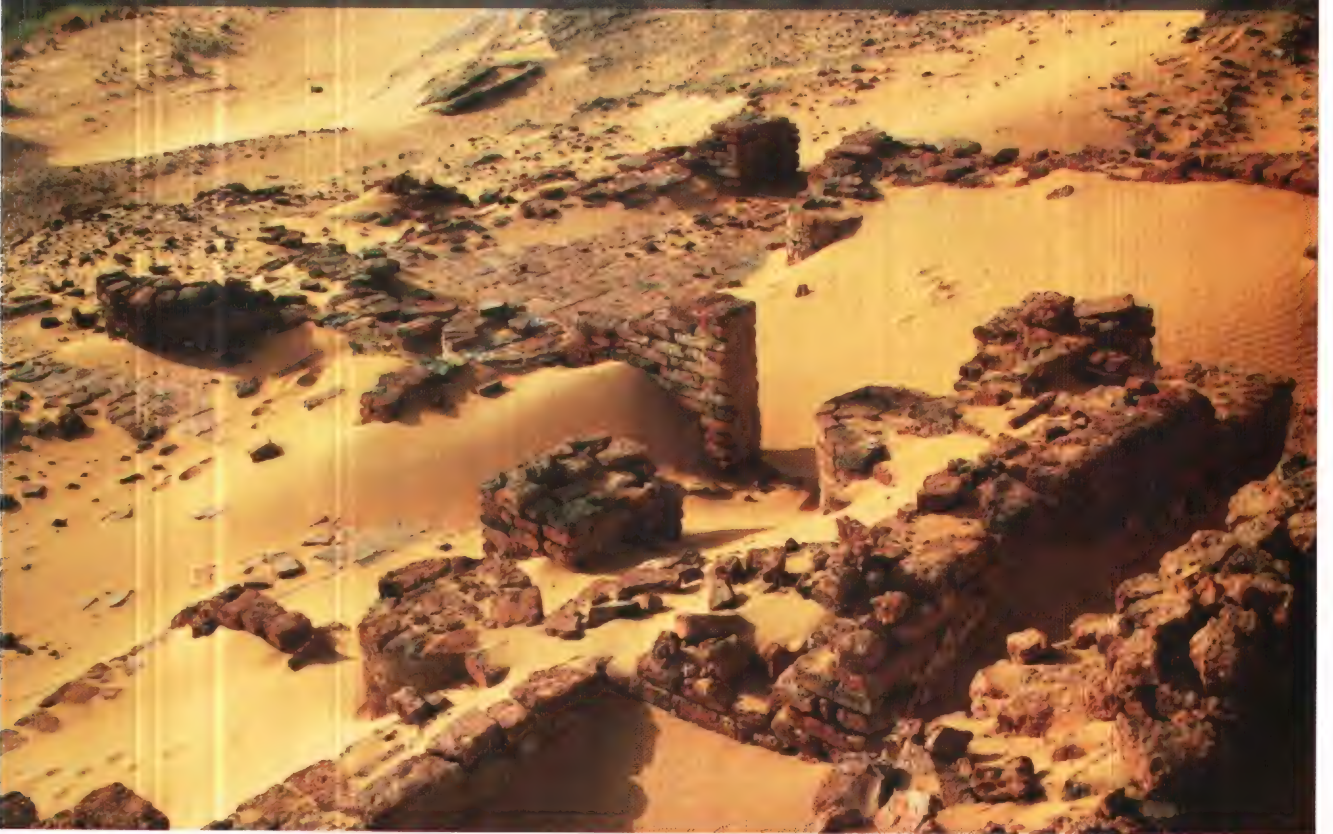


ابن بطوطة في أرض النوبة^(١)

« ... ثم سرنا من زاغري فوصلنا إلى **النهر الأعظم**، وهو **النيل**، وعليه بلدة كارسخو " بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهملة وضم الخاء المعجمة وواو " ، والنيل ينحدر منها إلى كابرة " بفتح الباء الموحدة والراء " ، ثم إلى زاغة " بفتح الزاي والغين المعجمة " ، ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي. وأهل زاغة قدماء في الإسلام. ولهم ديانة وطلب للعلم، ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تبيكتو، ثم إلى كوكو، وسنذكرهما، ثم إلى بلدة مولي " بضم الميم وكسر اللام " من بلاد الليميين، وهي آخر عمالة مالي، ثم إلى يوفي واسمها " بضم الياء آخر الحروف وواو مكسورة " ، وهي من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم. ولا يدخلها الأبيض من الناس، لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها، ثم ينحدر إلى **بلاد النوبة**، وهم على دين النصرانية، ثم إلى **دنقلة**، وهي أكبر بلادهم " وضبطها ضم الدال والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام " ، وسلطانها يدعي بابن كنز الدين، **أسلم على أيام الملك الناصر**، ثم ينحدر إلى جنادل، وهي آخر عمالة السودان، وأول عمالة **أسوان** من صعيد مصر، ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل، كأنه قارب صغير. ولقد نزلت يوماً إلى النيل لقضاء حاجة، فإذا بأحد السودان قد جاء، ووقف فيما بيني وبين النهر. فعجبت من سوء أدبه. وقلة حيائه، وذكرت ذلك لبعض الناس، فقال: إنما يفعل ذلك خوفاً عليك من التمساح، فحال بينك وبينه. ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنصرة " بفتح الصادين المهملتين والراء وسكون النون " ، وهو على نحو عشرة أميال من مالي. وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بإذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي، وشمس الدين بن النقوش المصري، ليكتبوا لي داراً، فلما وصلت إلى النهر المذكور، جرت في المعديّة، ولم يمنعني أحد، فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان، فنزلت عند مقبرتها، ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمد بن الفقيه، فوجدته قد اكرى لي داراً إزاء داره، فتوجهت إليها. وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام، ثم جاء ابن الفقيه إلي من الغد وشمس الدين بن النقوش، وعلي الزودي المراكشي، وهو من الطلبة، ولقيت القاضي بمالي عبد الرحمن، جاءني وهو من السودان، حاج فاضل، له مكارم أخلاق، بعث إلي بقرة في ضيافته. ولقيت الترجمان دوغا " بضم الدال وواو وغين معجمة " ، وهو من أفاضل السودان وكبارهم، وبعث إلي بثور، وبعث إلي الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني، وقرعة من الغرتي، وبعث إلي ابن الفقيه الأرز والفوني، وبعث إلي شمس الدين ضيافة وقاموا بحقي أتم قيام. شكر الله حسن أفعالهم. وكان ابن الفقيه متزوجاً ببنت عم السلطان، فكانت تتفقدا بالطعام وغيره. وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع شيء شبه القلقاس، يسمى القافي " بقاف وألف وفاء " ، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام. فأصبحنا جميعاً مرضى، وكنا ستة. فمات أحداً، وذهبت أنا لصلاة الصبح، فغشي عليّ فيها، وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلاً فأتى بشيء يسمى بيدر " بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء آخر الحروف وفتح الدال المهملة وراء " ، وهو عروق نبات، وخلطه بالأنيسون والسكر، ولته بالماء فشربته، وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة. وعافاني الله من الهلاك. ولكني مرضت شهرين ».



من آثار دنقلة (دنقلا) المتناثرة في إقليمها التاريخي الحافل بحاجة إلى جهود مضاعفة لإبراز جوانبها الحضارية الرائعة



العلاقات بين الممالك والدول النصرانية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون

تطرقنا في الصفحات الماضية عن طبيعة العلاقات بين الممالك و**بلاد النوبة** والتي كانت خاضعة لبعض الممالك النصرانية، وكيف آل الأمر إلى دخول الإسلام إلى هذه الممالك بعد معاهدة (البقط).



أدرك **الصلبيون** في أوروبا فشل محاولاتهم المتلاحقة للعدوان على بلاد الإسلام في الشام ومصر، ورأوا زوال آخر إماراتهم بعد قرنين من تأسيسها، رغم ما بذل في سبيل إقامتها من جهود مادية ومعنوية، ومن سفك في سبيلها من دماء، كما لمسوا فتور الحماس الصليبي، بعد فشل حملتي لويس التاسع السابعة والثامنة على مصر وتونس، لذلك اضطروا إلى تقبيل اليد التي حاولوا قطعها، ف لجأوا إلى الدبلوماسية والمراسلات والسفراء والهدايا، عليهم يحققون عن طريقها ما فشلوا في تحقيقه بالتعصب والسيف.

انهال سفراء الدول الأوربية على بلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة، محملين بالهدايا والرسائل التي تلح في طلب الصداقة والمودعة، وتوثيق عرى الصداقة، في حين كان غرضها الأساسي هو استدراج عطف الناصر محمد على النصارى في دولته، سواء من كان منهم من الأقباط في مصر أو من أهل الشام، فأرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين في عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٦م) رسالة إلى الناصر طالباً منه أن يعامل نصارى الشرق معاملة عادلة، مقابل معاملة مماثلة للمسلمين، فرد عليه الناصر مجيباً طلبه .

وفي نفس السنة أرسل شارل الرابع ملك فرنسا رسالة مماثلة لنفس الغرض فرد عليه الناصر أيضاً مجيباً طلبه، كما هدفت العلاقة مع البيزنطيين إلى:

- ١- تمتين العلاقات بين الممالك والدولة البيزنطية.
- ٢- إبعاد اللاتين عن الأماكن المقدسة في فلسطين الواقعة تحت إشراف الممالك.
- ٣- عقد تحالف بين الدولتين المملوكية والبيزنطية لمواجهة المشكلات البيزنطية مع الإمارات التركمانية.

النامية في آسيا الصغرى، وغدا بلاط السلطان الناصر محمد محط أنظار رجال السياسة والدين البيزنطيين. ويبدو أن السلطان فضل بحث العلاقات الدينية فقط، بدليل أن الإمبراطور البيزنطي أرسل سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م سفارة إلى القاهرة برفقة ملك الكرج داود السادس، وحمل أعضاءها هدية ورسالة تتضمن الطلب من السلطان أن يعيد كنيسة المصلبة في بيت المقدس إلى أصحابها، وأن يعامل المسيحيين المقيمين في أراضيه، لا سيما الملكانيين، بالعطف والرعاية، وأن الكرج سيدخلون في طاعته ويكونون عوناً له متى احتاج إليهم، لم يستجب الناصر لتلك المطالب مما دفع الإمبراطور البيزنطي إلى إرسال سفارة ثانية بعد مرور خمس سنوات، وتمنى على السلطان أن: ١- يعيد تلك الكنيسة إلى أصحابها. ٢- أن يسير أهل الذمة بالديار المصرية وفقاً لما جرت به عادتهم. ٣- أن يأذن بفتح كنائسهم.

استجاب السلطان هذه المرة لمطالب الإمبراطور فسمح بإعادة كنيسة المصلبة إلى المسيحيين، بعدما حصل على فتوى من العلماء بعدم جواز اغتصابها، كما وافق على طلبه فيما يتعلق بمعاملة أهل الذمة، وأمر بفتح كنيسة للملكانيين، وأخرى لليعاقة، وكنيس لليهود في مصر. واعتاد الإمبراطور أن يرسل الهدايا إلى السلطان بين حين وآخر من أجل توثيق عرى الصداقة بين البلدين. وانتهج الإمبراطور أندرونيقوس الثالث (١٣٢٨-١٣٤١م) سياسة سلفه في المحافظة على العلاقات الودية مع دولة المماليك، ويبدو أنه كان بحاجة إلى دعم دولة إسلامية لمواجهة الدولة العثمانية النامية، والآخذة في التوسع على حساب البيزنطيين^(١).

وبلغت العلاقات بين الناصر ويعقوب ملك أرغونة شأواً كبيراً بسبب المراسلات بينهما ما بين سنتي ٧٠٣ - ٧٢٨هـ ١٣٠٢-١٣٢٧م، التي كان هدفها إيجاد علاقة صداقة بينهما، والحصول على ميزات تجارية لأرغونة في مصر، وتسهيل الحج للأراضي المقدسة، وإطلاق سراح النصارى المسجونين في مصر، وضمان حسن معاملة الأقباط والنصارى عامة في الشرق.

وقد رأى الناصر محمد - الذي كان ملكاً مستتيراً محنكاً، يميل إلى المسالمة - رأى ذلك فرصة لتوثيق العلاقات بين دولته والآخرين في الشرق والغرب، يحقق بها مصالح مشتركة وخاصة حماية المسلمين في إسبانيا التي كانت خاضعة لحاكم أرغونة، بالإضافة إلى المصالح التجارية والعسكرية في الوقوف أمام الخطر التركي العثماني. ولا أدل على أهمية دولة المماليك الإسلامية في هذا العصر من أن يصبح سلاطينها محط أنظار السفراء والرسول من مغول ويمنيين وأرمن ونوبيين، **حتى وصفهم المقرئ بقوله: "وفيه (٢٥ محرم ٧٢٥ هـ) اجتمع بمصر من رسل الملوك ما لم يجتمع منهم في الدولة التركية، وهم رسل اليمن ورسول صاحب أسطنبول ورسول الأشكري ورسول متملك سيس، ورسول أبي سعيد (ملك التتار)، ورسول ماردين، ورسول ابن قرمان، ورسول متملك النوبة وكلهم يبذلون الطاعة"**. إلا أن هذه المكانة قد ضعفت بموت السلطان الناصر محمد، فسبحان مغير الأحوال^(٢).

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢٨٧.

٢ - د. شفيق جاسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد (٨١ - ٨٢).

من آثار السلطان الناصر محمد بن قلاوون

كان **الملك الناصر** مولع بالعمارة وينفق عليها ببذخ، وفي مدة حكمه الثالثة شيد في مصر ما لم يشيده أي سلطان آخر، وتحولت القرى إلى مدن منفردة. أعاد حفر خليج الإسكندرية، وأنشأ البساتين ومزارع قصب السكر على ضفتيه، وأنشأ الميدان تحت القلعة وغرس فيه النخل والأشجار، وأنشأ الميدان الكبير على نيل القاهرة، وزرع فيه أشجار الفاكهة. وعمّر الخانكة بناحية سرياقوس، وحفر الخليج الناصري خارج القاهرة حتى أوصله بسرياقوس وعمّره بالقناطر. وشيد الجسور ومد الترع، وأحيا الأراضي في كل أنحاء مصر، وجدد نحو ثلاثين جامعاً قديماً منها الجامع الناصري بالقلعة، وجامع المشهد النفيسي. وكانت أغلب عمائره من الحجارة، لأنه كان يخشى عليها من الحريق. وفي عهد الملك الناصر بلغت دولة المماليك البحرية أوج قوتها داخلياً وذرورة عظمتها دولياً، ونعمت مصر فيه بالهدوء والاستقرار.

من أبرز آثاره ومنشأته^(١):

المدرسة الناصرية - القاهرة:

بدأ إنشائها في عهد السلطان العادل كتبغا بجوار القبة المنصورية، وأكملها الناصر محمد وأضاف مئذنتها في عام ٧٠٣هـ / ١٢٠٢ في مدة حكمه الثانية. كانت من أجمل مباني القاهرة، وكانت بها خزانة كتب جليلة. بسبب التاريخ المنحوت عليها والذي يشير إلى عهد كتبغا، يبدو أن الناصر وضع اسمه محل اسم كتبغا. واجهتها تضم بوابة من الرخام الأبيض البديع على الطراز القوطي، لأن البوابة قام الأمير سنجر الشجاعي بنقلها إلى القاهرة من إحدى كنائس عكا بعد أن فتحها الأشرف خليل (١٢٩١م). ومحراب المدرسة له ملامح هندسية مغولية. وكانت المذاهب الأربعة تدرس في المدرسة، وقد نقل الناصر جثمان أمه إليها، ولكن الناصر محمد لم يدفن فيها.

خانقاه سرياقوس - شمالي القاهرة: تعرف أيضاً بخانقاه الصوفية.

بدأ الناصر في تشييدها في عام ٧٢٢هـ / ١٢٢٣م وافتتحها في عام ٧٢٥هـ / ١٢٢٥م في مدة حكمه الثالثة بوصفه منتجاً ومنطقة ترويحية ومركزاً للصوفية، نمت المنطقة في السنوات اللاحقة وصارت بلدة يقام بها سوق كبير كل يوم جمعة، ومنطقة ترويحية بها حدائق ومتنزهات وقصور وحمامات. قيل فيها:

سر نحو سرياقوس وانزل بفنا ... أرجائها ياذا النهى والرشد

تلق محلاً للسرور والهنا ... فيه مقام لللقى والذهب "

وهي موجودة اليوم بوصفها قرية تعرف باسم " الخنكاه "، ولكن غير موجودة بوصفها منتجاً.



المدرسة الناصرية - القاهرة

في سنة

٧١٨هـ لحق **الناصر محمد** بمحمل

كسوة الكعبة إلى **الحجاز للحج**. ودخل مكة

بتواضع وذلة، ولما دخل الحرم **كنس** مكان الطواف

ومسحه بيده، ورفض أن يطوف راكباً قائلاً:

"ومن أنا حتى أتشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم! والله لا طفت إلا كما يطوف الناس". وأمر الحجاب ألا يمنعوا الناس من

الطواف معه، فصار الحجاج يزاحمون وهو يزاحمهم كواحد منهم في مدة طوافه وفي تقبيله الحجر الأسود. وغسل الكعبة

بيده، وبألف في إكرام الحجاج وأحسن إلى أهل الحرمين، وأبطل المكوس من الحرمين وأكثر من الصدقات، وبعد قضاء

مناسك الحج توجه إلى المدينة النبوية **ودخلها ماشياً وهو حافي القدمين**، ووزع الأموال على الفقراء

والمحتاجين. وفي طريق عودته إلى مصر توقف في **خليص** ليعاين توصيل المياه إلى بركتها، حيث

كان وهو في مكة قد أمر بملء بركتها بالماء، وعيّن مალأً لذلك خدمة للحجيج الذين

كانوا يجدون شدة من قلة الماء بها في أثناء سفرهم.

جامع الناصر محمد - قلعة القاهرة جامع الناصر محمد - القاهرة :

هو جامع ملكي بديع شيده الناصر بالقلعة (٧٣٥هـ / ١٣٣٥م) في مدة حكمه الثالثة، بعد إزالة المسجد الأيوبي القديم، حيث كان سلاطين مصر يقيمون الصلاة. مساحته نحو (٥٧,٦ × ٦٠ متراً). أعمدته نقلت من المعابد المصرية القديمة بالأشمونين بصعيد مصر. تعد مأذنتاه من المآذن الفريدة والبديعة في القاهرة المملوكية. كان يواجهه الإيوان الكبير (٧١٨هـ / ١٣١٨م) والقصر الأبلق (٧١٨هـ / ١٣١٨م). والمسجد لا يزال قائماً بجوار مسجد محمد علي بقلعة القاهرة.

الخليج الناصري :

قناة حفرت في سنة ١٣٢٦م لري المنطقة المحيطة بالقناة، ولتنقل الاحتياجات والبضائع إلى سرياقوس.

القصر الأبلق - القاهرة :

شيد في ٧١٢هـ، كان يشرف على الميدان الكبير، كانت واجهته مكونة من أشرطة حجرية عريضة متوازية ذات لون أسود أو أصفر، ولهذا سمي بالأبلق. - غير موجود الآن.

الإيوان الكبير - القاهرة :

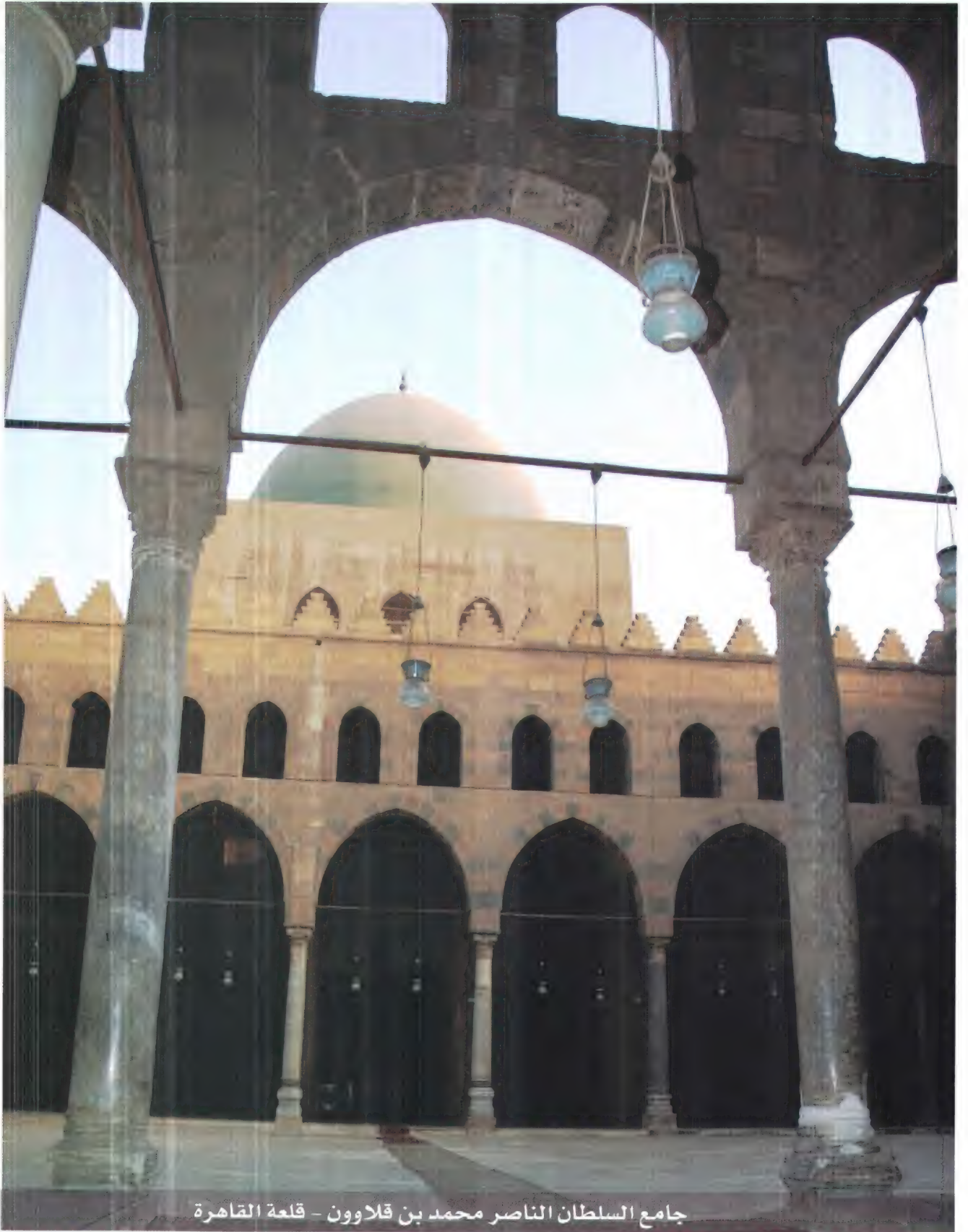
عرف أيضاً بالإيوان الأشرفي، كان قد بناه والده المنصور، وجدده أخوه الأشرف خليل. فقام الناصر بتجديده، وأنشأ به قبة عظيمة، ونصب في صدره التخت السلطاني، وكان مصنوعاً من العاج والأبنوس. كان موقع الإيوان حيث يقوم الآن مسجد محمد علي في قلعة القاهرة.

الميدان الناصري - القاهرة :

كان موضعاً قديماً غامراً بمياه النيل بين مصر والقاهرة، حوله الناصر إلى ميدان وغرس فيه الأشجار وافتتحه في سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م في مدة حكمه الثالثة. كانت تقام به عروض الخيل بالأزياء الفاخرة (كان الناصر شغفاً بتربية الخيول). موقعه الآن حي جاردن سيتي بالقاهرة.

خليج الإسكندرية :

أعاد الناصر حفر خليج الإسكندرية، وكانت الرمال قد طمرته وتعطلت الملاحة به، أدت إعادة حفر الخليج إلى نمو النشاط التجاري بالإسكندرية وازدياد العمران بها، بالإضافة إلى نمو الزراعة على ضفتي الخليج بينها وبين النيل.



جامع السلطان الناصر محمد بن قلاوون - قلعة القاهرة

أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده

بُعِيد **وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون** جاءت إيزاناً بانتهاء مدة الاستقرار والرخاء، التي تمتعت بها دولة سلاطين المماليك في عهده، وإذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمكنوا من البقاء في الحكم أربعين سنة بعد وفاة السلطان الناصر نفسه سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م): فإن ذلك لا يرجع إلى موهبة خاصة تميز بها أحدهم، بقدر ما يرجع إلى هيبة بيت قلاوون نفسه ومكانته في قلوب المعاصرين، وهي الهيبة التي غرسها المنصور قلاوون، التي ازدادت رسوخاً في عهد ابنه الناصر محمد، وبعبارة أخرى: فإن أبناء الناصر محمد وأحفاده عاشوا على السمعة الطيبة، والمكانة الراسخة، والشهرة الواسعة التي غرسها الناصر محمد بالذات في قلوب معاصريه. وليست هناك أهمية خاصة لأحد أبناء الناصر محمد أو أحفاده تجعلنا نتكلم عن كل واحد منهم على حدة.

يقول د. سعيد عبد الفتاح عاشور^(١) - وإنما تكفي الإشارة إلى أنه في العشرين سنة الأولى التي أعقبت **وفاة الناصر محمد** (٧٤١-٧٦٢هـ/١٣٤١-١٣٦١م)، تولى منصب السلطنة **ثمانية من أولاده**، وفي العشرين سنة اللاحقة (٧٦٢-٧٨٤هـ/١٣٦١-١٣٨٢م) تعاقب في ذلك المنصب **أربعة من أحفاده**، وحسبنا أن نعلم أن بعض هؤلاء الأبناء والأحفاد نودي به سلطاناً وعمره عام واحد - مثل الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد - ، وأن بعضهم لم يبق في الحكم إلا شهرين وبضعة أيام، مثل الناصر شهاب الدين أحمد ابن الناصر محمد، ولعل هذه الأمثلة كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن مدى ما عانتها الدولة بعد وفاة الناصر محمد من اضطراب وعدم استقرار وفوضى، تركت أثرها واضحاً في جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وزاد من أحوال البلاد سوءاً في ذلك الدور انتشار وباء خطير عرف باسم **الوباء الأسود سنة ٧٤٩هـ** (١٣٤٩م)، أي في عهد أولاد **السلطان الناصر محمد**، فمات كثير من الناس، وتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ الأثر، حتى كادت تتوقف تماماً، وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر.

ولم يكن من المستطاع وقف استغلال الأمراء لصغر سن السلاطين، مما أدى إلى منافسات ومنازعات فيما بينهم وبين بعض من جهة، وإلى تحكم بعضهم واستبدادهم بشؤون الدولة من جهة أخرى. وعند دراستنا^(٢) لعصر أبناء الناصر محمد وأحفاده، تبدو لنا ظاهرة واضحة، هي أن كل سلطان من بني قلاوون كان يقف خلفه أمير أو أكثر من كبار أمراء المماليك، بحيث طغت شخصية هؤلاء الأمراء الكبار على السلاطين، وغدت أسماء الأمراء - دون السلاطين - هي مدار الأحداث المعاصرة، وموضع

اهتمام المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين، ومن هؤلاء الأمراء، لمع في عصر أبناء الناصر محمد الأمير قوصون، ويلبغا اليحاوي، وأقسنقر السلاري، وأرغون العلائي، وشيخووطاز، وصرغتمش، أما عهد أحفاد الناصر محمد، فقد ظهرت فيه أسماء قشتمر المنصوري، ويلبغا الخاصكي، وبرقوق، ويعنينا من أمر هؤلاء الأمراء، أن بعضهم كان من **المماليك البرجية أو الجراكسة**، الأمر الذي يدل على ازدياد نفوذ تلك الطائفة، مما أدى إلى تمكنهم من انتزاع الحكم سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م)، كما سنرى عند الحديث عن المماليك البرجية في هذا الأطلس.

تركز النمو العمراني **لمدينة القاهرة في العصر المملوكي** على الأخص في الأحياء الواقعة جنوبي باب زويلة وحول منطقة طولون، وارتبط اتساع هذه الأحياء بإنشاء العديد من العماثر الدينية والاجتماعية فيه (جامع السلطان حسن، جامع وخانقاه شيخو، مدرسة صرغتمش، خانقاه ومسجد سنجر الجاولي، قصر الأمير يشبك، مارستان المؤيد... الخ). وإذا كانت القاهرة قد بلغت أقصى اتساع لها نحو سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م (نهاية سلطنة الناصر محمد بن قلاوون)، فإن الباحثين في تاريخ القاهرة يرون أن عدد سكانها بلغ حينئذ خمسمائة أو ستمائة ألف نسمة، ولكن **"الوباء الأسود"** الذي حدث في سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، الذي اجتاح أيضاً شعوب حوض البحر المتوسط واستمر لمدة خمس عشرة سنة، أدى إلى حدوث انخفاض كبير في عدد سكان القاهرة حتى إن معاصريه أطلقوا عليه **"الفناء الكبير"**. كذلك فقد حدث انخفاض شديد في عدد سكان مصر في أعقاب الوباء الذي حدث في أيام الأشرف شعبان سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م ودام نحو سنتين.

قال المقرئزي: «.. فلما عظم **الوباء** في الأرياف والقرى وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر وعظم الموتان (أي الموت) طلبت الأدوية للمرضى، فباع عطار من القاهرة في شهر واحد باثنين وثلاثين ألف درهم، وطلب الأطباء وبذل لهم المال الوفير، وكثر تحصيلهم فكان كسب الواحد منهم في اليوم مئة درهم، وبلغ عدد من يموت في اليوم الواحد ثلاثة آلاف من الأنفس وأما الطرحاء (المرضى طريحو الفراش) فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت بهم الأرض، وحفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها.. وخلت الضياع من أهلها، حتى إن القرية التي كان بها ألف نفس لم يتأخر بها (يبقى على قيد الحياة) سوى عشرين نفساً...» أ. هـ.

الحملة الصليبية على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م^(١)

نظراً لعدم وجود رجل قوي مهيب الجانب على رأس دولة المماليك. أفقد تلك الدولة مكانتها وهيبتها التي كانت قد بلغت أوجها على عهد السلطان الناصر محمد، ولم يلبث أن استخف الأعداء بدولة سلاطين المماليك، وطمع الطامعون في أراضيها، بل لقد تجرأ الصليبيون على غزو مصر ذاتها سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م.

ومن المعروف أن الحروب الصليبية في الشرق لم تنته باستيلاء المسلمين على عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م أو بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام، وإنما استمرت تلك الحروب - في صورة أو أخرى - حتى نهاية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد، وفي ذلك الدور الأخير من أدوار الحروب الصليبية، اتخذ **ملوك قبرص من آل لوزجنان** جزيرة قاعدتهم كبرى لتهديد السفن والمتاجر الإسلامية في شرقي حوض البحر المتوسط، فضلاً عن القيام بغارات جريئة على بعض الموانئ الإسلامية، وبخاصة موانئ دولة سلاطين المماليك في مصر والشام وساعد ملوك قبرص في تنفيذ ذلك المخطط أن كثيراً من البقايا الصليبية التي طردت من بلاد الشام في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، اتخذت من **جزيرة قبرص** بالذات مستقراً ومقاماً، مما هيا لآل لوزجنان قوة ضاربة، مرت على محاربة المسلمين، وتتوق للانتقام مما حل بالصليبيين على أيديهم ببلاد الشام.

وهكذا حتى اعتلى عرش قبرص سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٩م) **الملك بطرس الأول لوزجنان**، الذي اشتهر بقوة شخصيته، وتطرفه في الحماسة الدينية. وقد أراد أن يجعل من نفسه بطل المسيحية في صراعها ضد المسلمين، ولذلك فكر في القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة قوية، وعندما أدرك أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى استعدادات ضخمة، وأموال كثيرة، ورجال عديدين، قام برحلة طويلة في غربي أوروبا سنة ٧٦٣-٧٦٦هـ / ١٣٦٢-١٣٦٥م للحصول على أكبر قدر ممكن من مساعدات البابوية وملوك الغرب الأوروبي.

وأخيراً جمع بطرس لوزجنان قواته في **جزيرة رودس**، حيث تم الاتفاق على اختيار **الإسكندرية** بالذات هدفاً للهجوم الصليبي، وذلك للقضاء على **دولة سلاطين المماليك**، التي تسببت في طرد الصليبيين من الشام من ناحية، والاستفادة من إستراتيجية تلك المدينة ومكانتها التجارية من ناحية أخرى، ولا بد أن يكون الصليبيون والغرب الأوروبي قد سمعوا بأخبار الفوضى، التي غرقت فيها دولة



عند وصول السفن الحربية الصليبية إلى شواطئ الإسكندرية، توقع أهلها أنها سفن تجارية، لكن صبيحة اليوم اللاحق أدركوا أنها سفن حربية، فتجمعوا أمام جزيرة فاووس وانضم إليهم عربان من الصحراء الغربية، وانضم إليهم نائب حاكم الإسكندرية وكان أميراً صغير السن قليل الخبرة، ونصح البعض نائب الحاكم والأهالي اللجوء وراء الأسوار والدفاع عن الإسكندرية لحين وصول الجيش المصري من القاهرة. لكن نائب الحاكم لم يسمع النصيحة.

سلاطين المماليك في **عصر أحفاد الناصر محمد**، وكيف كانت المدن والموانئ خالية من وسائل الدفاع.

وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت إلى مصر عن طريق التجار، قبل وقوع الهجوم بمدة طويلة، إلا أنه لم يكن من الدولة اهتمام -على حد تعبير المقريري- وكان سلطان دولة المماليك في ذلك الوقت هو الأشرف شعبان - حفيد الناصر محمد - وهو عندئذ طفل صغير في الحادية عشرة من عمره، أما السلطة الفعلية فكانت بيد الأمير يلغا الخاصكي الذي اشتهر بعسفه وجوره وكبريائه، حتى إنه عندما سمع بنية ملك قبرص في مهاجمة الإسكندرية، قال: «إن القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية».

ولكن هذه الكبرياء لم تجد شيئاً في صد المعتدين الذين نزلوا على شاطئ الإسكندرية صباح الجمعة ٢٣ من شهر المحرم سنة ٧٦٧هـ/ ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥م وهاجموا المدينة فور نزولهم، ولم تفلح الاستعدادات السريعة التي اتخذت لصد الخطر الصليبي، **فاقتحم الصليبيون الإسكندرية**، وفر العربان الذين استحضروا من البحيرة للدفاع عن الثغر، وهكذا سقطت الإسكندرية في قبضة الصليبيين، فقضوا فيها ستة أيام، تُعد من أحلك الأيام في تاريخ الثغر، ذلك أن الصليبيين انتشروا في شوارع المدينة وأزقتها ودروبها، ينتقمون من أهلها المسلمين فاستلموا الناس بالسيف، ونهبوا الحوانيت والدور، وأحرقوا الخانات والقصور، وخرّبوا المساجد والزوايا، واعتدوا على النساء والبنات.

وكان قائد الحملة - **الملك بطرس لوزجنان** - يرى ضرورة الاحتفاظ بالإسكندرية والبقاء فيها، والدفاع عنها لاتخاذها نقطة ارتكاز لغزو مصر بأكملها، ولكن بعض رجاله أقتعوه بخطورة تلك المحاولة، فاضطر الصليبيون إلى الجلاء يوم الخميس ٢٨ من المحرم ٧٦٧هـ/ ١٦ أكتوبر ١٣٦٥م، بعد أن حملوا في سفنهم آلاف الأسرى، فضلاً عن المنهوبات والبضائع.

وأخيراً وصل **يلغا الخاصكي** على رأس جيشه إلى الإسكندرية، وكان وصوله عند رحيل الغزاة، فشاهد ما حل بالمدينة من دمار وخراب، وأمر بدفن جثث القتلى، وترميم ما خرب واحترق، وإذا كانت دولة سلاطين المماليك تمر عندئذ بدور من الانحلال والفوضى مما لم يمكنها من الثأر من جزيرة قبرص وملوكها.

بيد أن المسلمين لم ينسوا ما حل بالإسكندرية على أيدي الصليبيين سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، ولم تهدأ نفوسهم إلا عندما انتقموا لأنفسهم، وكان ذلك في عصر **دولة المماليك البرجية**.

مرئية فضائية لموقع مدينة الإسكندرية



يُعد (محمد بن قاسم
النويري المالكي السكندري)
الذي عاش أحداث غزوة
الإسكندرية، وسجلها في كتابه الإلمام
بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمر
المقتضية في وقعة الإسكندرية، وكذلك الكاتب
المصري شهاب الدين النويري مؤلف
نهاية الأرب في فنون الأدب " من
أهم من أرخ لهذه الحملة
الصلبية.

منظر لساحل الإسكندرية، التي نزلت فيها الحملة الصليبية سنة ٧٦٧ هـ بقيادة: الملك بطرس لوزجان (ملك قبرص)



ممالك نصرانية بجورجيا

ممالك نصرانية إفريقية

الدولة الرسولية

الدولة الإيلخانية



في الأعلى فارس مملوكي يعدو بفروسه وقد اخترط سيفه. منمنمة من كتاب نهاية السؤل والأمنية للأقصراني. مكتبة جستر بيتي. م. ص. كتاب (فروسية ١. إصدار مكتبة الملك عبد العزيز العامة). ص ١٠٨.

صورة فارس مملوكي بترس
ورمح. تدل على اهتمام الممالك
بتربية جنودهم تربية عسكرية
أصيلة منمنة من كتاب نهاية
السؤل والأمنية للأقصراني، من
نسخة مؤرخة في سنة ٧٧٢ هـ
محفوظة في المكتبة البريطانية
بلندن.

م، ص. كتاب (فروسية ١)،
إصدار مكتبة الملك عبد العزيز
العامة)، ص ١٠٩.



الأندلس في العصر المملوكي

لم يبقَ في الأندلس بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب من المدن الإسلامية سوى ولاية غرناطة وولاية إشبيلية، وكان حاكم غرناطة قد عقد معاهدة مع ملك قشتالة، وكان من نصوص المعاهدة أن يحارب مع ملك قشتالة أياً كانت الدولة التي سيحاربها، ووصل الأمر إلى مساعدة ملك قشتالة في حصار إشبيلية، لتسقط هذه المدينة الإسلامية سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م. ثم سقطت مدن المسلمين الواحدة تلو الأخرى، حتى سقطت **قرطبة حاضرة الإسلام وعاصمة الخلافة**، وسقطت جيان قبل ذلك في سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م. ولم يبق في الأندلس **إلا ولايتان فقط كبيرتان نسبياً، الأولى هي ولاية غرناطة**، وتقع في الجنوب الشرقي، وتمثل حوالي ١٥٪ من بلاد الأندلس، والثانية هي **ولاية إشبيلية**، وتقع في الجنوب الغربي، وتمثل حوالي ١٠٪ من أرض الأندلس. هاتان الولايتان هما اللتان بقيتا فقط من جملة بلاد الأندلس، وكان من العجيب كما ذكرنا أن يظل الإسلام في بلاد الأندلس بعد هذا الوضع وبعد سقوط قرطبة، وبعد هذا الانهيار الكبير لمدة تقرب من ٢٥٠ سنة، فكانت هذه علامات استفهام كبيرة^(١).

سقوط مملكة غرناطة:

بعد أن سقطت إشبيلية نقض النصارى الهدنة مع غرناطة، واتجهوا ليحاصروها، ومن ثم استعان الأندلسيون بـيعقوب بن منصور الماريني وولده يوسف ليساعدوهم في الانتصار على النصارى، ولكن في أثناء مساعدتهم لهم يشعر الأندلسيون بالخوف على ملكهم منهم؛ فيستعينون بالنصارى ضدهم، ثم يحتلون سبتة في بلاد المغرب، وبذلك انقطعت مساعدات بلاد المغرب للأندلس إلى الأبد.

هذا في الوقت الذي يتزوج فيه فرناندو الثالث ملك أراجون من إيزابيلا وريثة عرش قشتالة، ثم اتحدوا معاً وكونوا مملكة إسبانيا، وكان ذلك في سنة ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م، واستغل ملك إسبانيا أوضاع الأندلس واستطاع أن يدخلها صلحاً على أن لا يمس المسلمين، ولكن هذا لم يحدث، فما إن دخلوا الأندلس حتى هجروا من فيها من المسلمين، ونصروا من ظل بها، وأقاموا محاكم التفتيش للبحث عمن يخفي إسلامه، وأبادوا من بها من المسلمين^(٢) ١٠ - ٢. (د. علي الصلابي؛ دولة الموحدين نقلاً عن مصادر أخرى).



لم يكن سقوط غرناطة في يد النصارى حادثاً فجائياً، بل جاء حصار سنوات من الكيد الصليبي المنظم والغفلة والتخاذل من جانب حكام المسلمين في الأندلس، وكان سقوط غرناطة معناه سقوط دولة الإسلام في الأندلس الأمر الذي أسعد كل صليبي في مشارق الأرض ومقاربها، وأحزن كل المسلمين خاصة أهل المغرب ومصر التي حاولت التدخل أيام المماليك، ولكن دون جدوى خاصة لاضطراب شئونها الداخلية، وهكذا كان الصدى الأليم الذي أثارته حوادث الأندلس في الأمم الإسلامية ولكنه بدأ يخبو شيئاً ولم تمض أعوام قلائل حتى أسدل على تلك الفاجعة حجاب من التسيان ذلك برغم أن المأساة الأندلسية لم تذقه بسقوط غرناطة بل كان عليها أن تجوز فصولاً أخرى أشد فجيعة على كل مسلم قبل أن تصل إلى نهايتها.



تستعمل كلمة استرداد Reconquista (وهي كلمة إسبانية وبرتغالية تعني "الاسترداد") في نطاق تاريخ إسبانيا والأندلس، وهو مصطلح خاطئ؛ لأن المسلمين دخلوها فاتحين بنور الهدى الرباني، بعد أن طهروا البلاد من ظلام الجهل والفساد والبغي والاستعباد، وهذه الحقبة تبدأ ما بين سنة ٧١٨م تاريخ ثورة بيلايو، وسنة ١٤٩٢م تاريخ سقوط مملكة غرناطة (إمارة بني الأحمر الإسلامية).

وتختص هذه المدة بتواجد ممالك نصرانية وإسلامية على شبه الجزيرة الإيبيرية.

بنود المعاهدة التي تمت بين ملك قشتالة وبين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر

أولاً: أن يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة، وكانت مائة وخمسين ألف دينار من الذهب سنوياً، وكان هذا تجسيدا لحال الأمة الإسلامية، وتعبيراً عن مدى التهاوي والسقوط الذريع بعد أفول نجم دولة الموحدين القوية المهابة، التي كانت قد فرضت سيطرتها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وإفريقيا.

ثانياً: أن يحضر بلاطه بوصفه أحد ولاته على البلاد، وفي هذا تكون غرناطة تابعة لقشتالة ضمناً.

ثالثاً: أن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانية، وبهذا يكون ملك قشتالة قد أتم وضمن تبعية غرناطة له تماماً.

رابعاً: أن يسلمه ما بقي من حصون جيّان- المدينة التي سقطت أخيراً- وأرجونة وغرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار، وحصون أخرى كثيرة تقع كلها في غرب غرناطة، وبذلك يكون ابن الأحمر قد سلم لفرناندو الثالث ملك قشتالة مواقع في غاية الأهمية تحيط بغرناطة نفسها.

خامساً: وهو أمر في غاية الخطورة، وهو أن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا احتاج إلى ذلك، أي أن ابن الأحمر يشترك مع ملك قشتالة في حروب ملك قشتالة التي يخوضها أياً كانت الدولة التي يحاربها.

محاكم التفتيش

مستند تاريخي

(هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رافة ولا شفقة ولا رحمة، وفي يوليو ١٥٠١ م = ذي الحجة ٩٠٦ هـ أصدر الملك الكاثوليكيان أمراً خلاصته "أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال". (دولة الموحدين - الصلابي، المرجع السابق).

بلاد الأناضول بعد زوال الدولة السلجوقية الرومية سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م

عندما زالت الدولة السلجوقية الرومية في سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م، توزعت أملاكها في أرض الأناضول على إمارات صغيرة تتفق حدودها مع حدود المقاطعات اليونانية القديمة في آسيا الصغرى، وهذه الإمارات هي:

إمارة قرمان (قرامان): هي دولة إسلامية نشأت عام ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م جنوبي الأناضول. حكامها من أصول أرمنية، حيث أسسها نوري الصوفي الأرمني الذي اعتنق الإسلام. وتوالى على حكمها سلالاته من بعده. وقد اتخذت التركية (المكتوبة في ذلك العهد بالأبجدية العربية) كلغة رسمية للدولة. كانت علاقة القرمان مع مماليك مصر طيبة، حيث باع القرمان مدينة ألانيا (أو قلعة علانية) الواقعة اليوم بجنوبي تركيا - للمماليك مقابل ٥٠٠٠ قطعة ذهب، ثم تدهورت العلاقات في عهد سلطان زاد إسحاق. وقف القرمان مع السلطان العثماني خلال محاربته للمماليك في الشام وكانت الانتصارات العثمانية على المجريين شمالاً، أدت إلى ولاء القرمان طواعية للسلطان مراد العثماني ونهاية إمارة قرمان عام ٨٨٢ هـ / ١٤٨٧ م أي: بعد ٢٣٧ سنة من تأسيسها.

إمارة منتشا: تقع على ساحل بحر إيجه، أشهر مدنها: مغلة ميلاس. وقد تقوّت بما كانت تشنه من غارات بحرية على أملاك الدولة البيزنطية.

إمارة تكة: تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في المنطقة الجنوبية الغربية، وهيمنت على مدينة أنطاليا.

إمارة الحميد: تقع داخل الهضبة الأناضولية.

إمارة قزل أحمدلي: تقع على ساحل البحر الأسود في منطقة سينوب وقسطموني.

الإمارة العثمانية: ظهرت أولاً كإمارة صغيرة في مقاطعة فريجيا وما جاورها من أراضي بيثينيا، وانحصرت بين إمارتي كرميان وقزل أحمدلي، وتوسعت بعد ذلك حتى بحر مرمرة، وسيطرت على مدن إزنق - نيقية - وملاجنة وبورصة، ودورليوم، وتميزت عن باقي الإمارات في الدور الذي سوف تؤديه على المسرح السياسي داخل آسيا الصغرى وخارجها. وهناك إمارات أخرى أوضحناها على الخارطة في الصفحة المقابلة، - وسيرد تفصيل أشمل وأوسع في أطلس تاريخ الدولة العثمانية -.

تضاف إلى كلمة سلاجقة لفظ (الروم) وهي مأخوذة من تسمية الإمبراطورية الرومانية (البيزنطية). حيث سُمّي السلاجقة أراضي سلطنتهم بهذا الاسم؛ لأنها تأسست على أراضي كانت تتبع الإمبراطورية الرومانية، قبل أن يتم فتحها بواسطة الجيش الإسلامي، وتسمى كذلك السلطنة القونية أو السلطنة الأيقونية في بعض المراجع الغربية القديمة.



الهند الإسلامية في عصر مماليك مصر وبلاد الشام^(١)

قامت الدولة الخلجية في الهند على أنقاض الدولة الغورية في ٢ جمادى الآخرة ٦٨٩هـ / ١٣ من يونيو ١٢٩٠م، حيث قام الخجليون في المدة القصيرة التي حكموا فيها - وهي نحو ثلاثين عاماً - بجلائل الأعمال؛ فتشروا الإسلام في "شبه القارة الهندية" كلها، وردّوا الخطر المغولي بعد أن أضحى هذا الخطر يهدد الحكام المسلمين في دلهي.

وقد وفرت الأموال التي جاءت من الحملات الجنوبية، ونظام الضرائب، إمكانية إعداد جيش كبير للتصدي للمغول، وذلك لما يمتاز به إقليم **غوجارات** من غنى بعد أن أصبح تحت حكم المسلمين. وبذلك تمكن المسلمون بقيادة السلطان الفارس علاء الدين الخلجي من التصدي لعدد من الحملات المغولية. ثم جاء بعد ذلك آل طغلق (آل تغلق) وهم من أبرز السلالات التركية الحاكمة في سلطنة دلهي. إذ قدم مؤسسها غياث الدين من آسيا الوسطى وعمل ضابطاً في سلاح الفرسان. وبصفته قائداً في جيش الهند أحرز النصر على المغول في سبع وعشرين معركة. أما ابنه محمد طغلق فقد كان جندياً لا يعرف الكلل وإدارياً ناجحاً، شجع في بلاطه الشعراء، ورجال العلم، والفنون. وتم تداول العملة النحاسية بقيمة فضية في عهده. ثم حاول نقل حضرته من دلهي إلى ديفاغيري (سميت دولة أباد) في الدكن. وخلفه في الحكم **فيروز شاه** طغلق الذي كان حاكماً جاداً ومخلصاً. وقد نعمت السلطنة بالسلام والثروة طوال حكمه الذي امتد نحو نصف قرن^(٢).

وغزا المغول بقيادة تيمورلنك دلهي (دهلي) عام ٨٠١هـ / ١٣٩٨م، فوضعوا حداً للسلام والعصر الذهبي للسلطنة ونهبوها. وتجزأت بعد ذلك الإمبراطورية الإسلامية في الهند إلى العديد من الممالك الصغيرة المتحاربة التي كان يحكم كل واحدة منها سلطان. وفي عام ٧٥١هـ / ١٣٥٠م تم تأسيس دولة فيجاينجار الهندوسية في هضبة الدكن. وأدّى ذلك إلى خضوع الجنوب للسيطرة الهندية، وأوجد حاجزاً أمام تقدم المسلمين.

كان السلطان **فيروز شاه** - رغم انشغاله بأمور الحكم وشؤون الرعية - مشغولاً بالتأليف، فألف كتاباً في الرياسة والسياسة، ألفه على ثمانية أبواب، كما اخترع السلطان ساعة عجيبة يخرج كل ساعة منها صوت عجيب يترنم ببيت من الشعر، وكانت تستخرج منها أوقات الليل والنهار، ووقت إفطار الصائم، وكيفية الإظلال، وزيادة اليوم ونقصانه باعتبار الفصول.

١ - الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٦، ص ١٢٩.

٢ - أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ١/١٤٨، ١٤٩ بتصرف.

الهند الإسلامية في أواخر العصر العباسي ومدة العصر المملوكي

في عهد المالك (قطب الدين أيبك ١٢٠٦ - ١٢١٠ م)

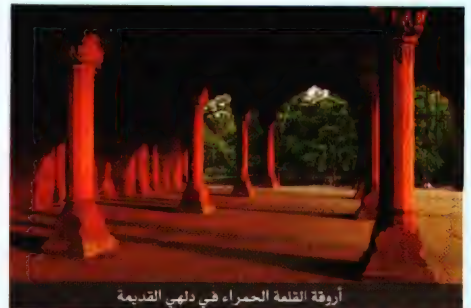
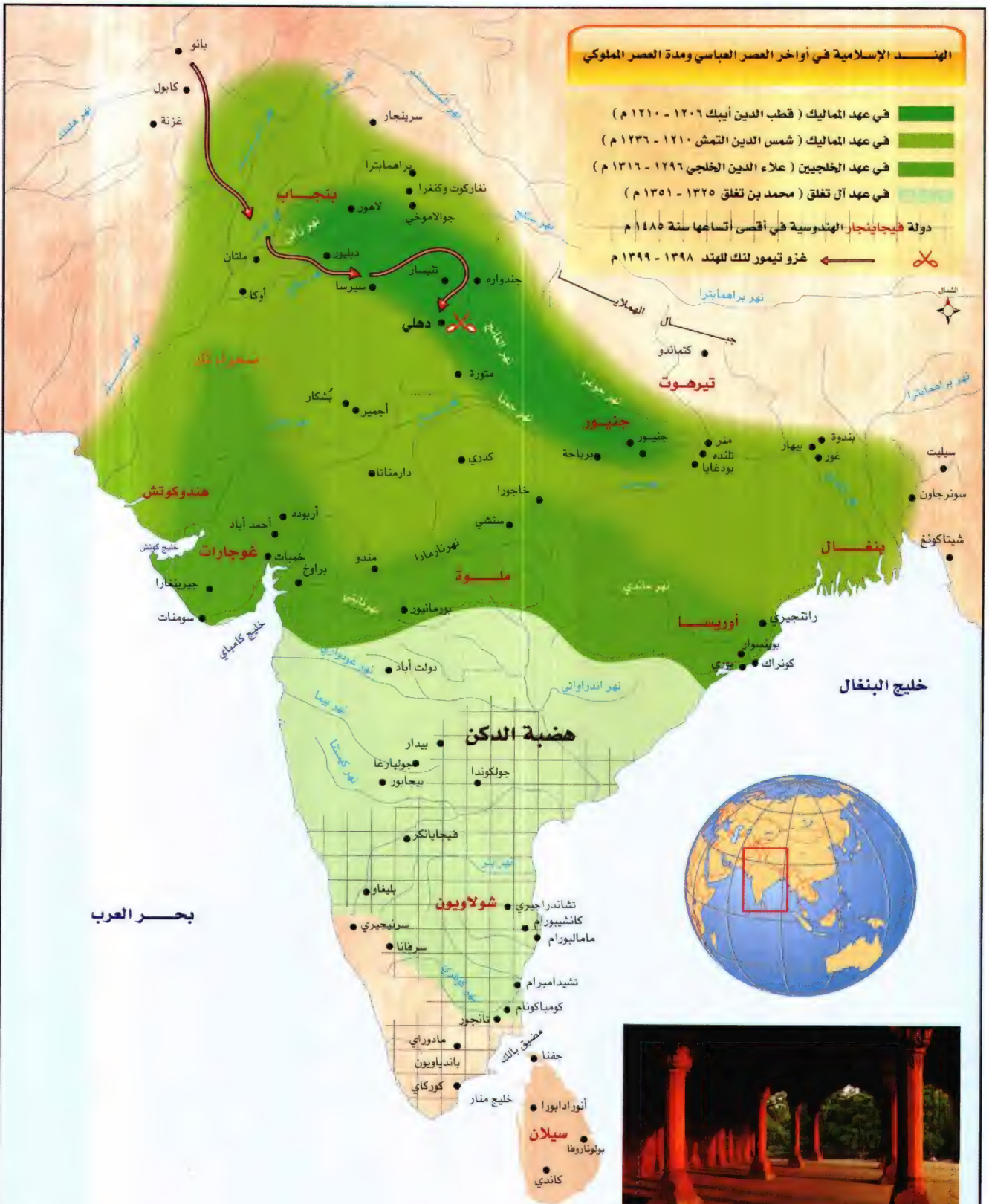
في عهد المالك (شمس الدين التمش ١٢١٠ - ١٢٣٦ م)

في عهد الخليلين (علاء الدين الخليلي ١٢٩٦ - ١٣١٦ م)

في عهد آل تغلق (محمد بن تغلق ١٣٢٥ - ١٣٥١ م)

دولة **فيجاينجار** الهندوسية في أقصى اتساعها سنة ١٤٨٥ م

غزو تيمور لنگ للهند ١٣٩٨ - ١٣٩٩ م



أروقة القلعة الحمراء في دلهي القديمة

بحر العرب

٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠



الباب الثاني



الممالك البرجية

٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م

المماليك البرجية ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م^(١)

هي الدولة المملوكية الثانية وتسمى **بدولة المماليك الجركسية**، تَلَتْ دولة المماليك البحرية مباشرةً عندما قام الأتابك **برقوق الشركسي** فخلَعَ آخرَ ملكٍ من بني قلاوون (الأتراك)، وفَرَضَ نفسه سلطاناً - بالاتفاق مع القضاة وشيخ الإسلام والخليفة - سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م. وأصل ملوك هذه الدولة من الجنس الجركسي الذي يعيشُ في بلادِ الكُرْج - (بضمٍّ أوله وسكون ثانيه كما ذكره ياقوت) - وهي المنطقة الواقعة شمالي أرمينية، بين البحرِ الأسود وبحر الخزر، وتُعرفُ اليومَ بجمهورية جورجيا في منطقة القوقاز.

وكان الرقيقُ الجراكسة كثيرين في الأسواقِ في ذلك الحين (النِّصف الثاني من القرن السابع الهجري)؛ بسببِ كثرةِ السَّبي منهم؛ لتعرضهم لهجماتِ مغول فارس والقبجاق، مما أدى إلى انخفاضِ أسعارهم، إلى جانبِ ما يتصفون به من جمالِ الشكل، وقوةِ البدن، وشجاعةِ الإقدام، ولذلك اتجه السلطانُ المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٣ م) إلى الاستئثارِ منهم، والاعتمادِ عليهم، **وأسكنهم في أبراج القلعة، ولذا عرفوا بالبرجية** تمييزاً لهم عن المماليك الأتراك الذين أسكنوا في قلعة الروضة وعرفوا بالبحرية، -وقد تطرقنا للحديث عنهم في الباب الأول من هذا الأطلس ص ١١ - ١٢-. وبلغ عدد المماليك الشراكسة آنذاك قرابة ٣٧٠٠ نفساً، وقد أسكنهم في أبراج قلعة الجبل، واستمرت هذه الدولة قرابة (١٣٩) عاماً.

قد يتبادر إلى الذهن أن غالبية **المماليك** من الجنس التركي، إذ أطلق كثير من المؤرخين على هذه الدولة اسم (الدولة التركية) والواقع أن فيهم عدة أجناس أخرى، واسم الترك غالب على مجملهم لكثرتهم وتميزهم.

وقد تنوع الأرقاء، فمنهم السود، ومنهم البيض، وهؤلاء الرقيق البيض يطلق عليهم اسم (المماليك)، وهناك فرق بين لفظتي (المماليك) و(العبيد) فلفظة مماليك نفسها تعني ما يملك بقصد تربيتهم والاستعانة بهم كجند أو ما شابه ذلك، بخلاف لفظة (العبيد) التي تعني العبودية، فالعبد يولد من الرقيق، بينما يولد المملوك من أبوين حرين، كما أن العبد يكون أسود، في حين يكون المملوك أبيض، ويتشابه الاثنان في أنهما قد جمعتهما وحدة الغربة والمخاطرة. **الموسوعة العربية العالمية.**

جدول سلاطين الدولة المملوكية ثانياً : المماليك البرجية

م	السلطان	تاريخ الحكم
١	الظاهر سيف الدين برقوق: المرة الأولى	٧٨٤-٧٩٠ هـ / ١٣٨٢-١٣٨٨ م
٢	الصالح حاجي بن شعبان	٧٩٠-٧٩٢ هـ / ١٣٨٨-١٣٩٠ م
٣	الظاهر سيف الدين برقوق: المرة الثانية	٧٩٢-٨٠١ هـ / ١٣٩٠-١٣٩٩ م
٤	الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق	٨٠١-٨١٥ هـ / ١٣٩٩-١٤١٢ م
٥	الخليفة العباسي المستعين	٨١٥ هـ / ١٤١٢ م
٦	المؤيد أبو النصر شيخ الحمودي	٨١٥-٨٢٤ هـ / ١٤١٢-١٤٢١ م
٧	المظفر أحمد بن شيخ	٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م
٨	الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م
٩	محمد بن ططر	٨٢٤-٨٢٥ هـ / ١٤٢١-١٤٢٢ م
١٠	الأشرف برسباي	٨٢٥-٨٤١ هـ / ١٤٢٢-١٤٣٨ م
١١	أبو المحاسن يوسف بن برسباي	٨٤١-٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م
١٢	الظاهر جقمق	٨٤٢-٨٥٧ هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣ م
١٣	المنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م
١٤	الأشرف إينال	٨٥٧-٨٦٥ هـ / ١٤٥٣-١٤٦١ م
١٥	المؤيد أحمد بن إينال	٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م
١٦	الظاهر أبو سعيد خشقدم	٨٦٥-٨٧٢ هـ / ١٤٦١-١٤٦٧ م
١٧	الظاهر يلباي المؤيدي	٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م
١٨	الظاهر تمرغا	٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م
١٩	الأشرف قايتباي	٨٧٢-٩٠١ هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦ م
٢٠	محمد بن قايتباي: المرة الأولى	٩٠١-٩٠٢ هـ / ١٤٩٧-١٤٩٨ م
٢١	الأشرف قانصوه خمسمائة	٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م
٢٢	محمد بن قايتباي: المرة الثانية	٩٠٢-٩٠٤ هـ / ١٤٩٧-١٤٩٨ م
٢٣	الظاهر قانصوه الأشرفي	٩٠٤-٩٠٥ هـ / ١٤٩٨-١٥٠٠ م
٢٤	الأشرف أبو النصر جانبلاط	٩٠٥-٩٠٦ هـ / ١٥٠٠-١٥٠١ م
٢٥	العادل سيف الدين طومان باي الأول	٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م
٢٦	الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري	٩٠٦-٩٢٢ هـ / ١٥٠١-١٥١٦ م
٢٧	الأشرف طومان باي الثاني	٩٢٢-٩٢٣ هـ / ١٥١٦-١٥١٧ م

الظاهر سيف الدين برقوق (حقبتان) ٧٨٤ - ٨٠١ هـ^(١)

هو الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثماني اليلبغاوي الجاركسي، السلطان الخامس والعشرون من سلاطين المماليك في ديار مصر وبلاد الشام، وأول السلاطين الشراكسة (البرجية) إذا لم يُعدَّ السلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير من الشراكسة. وقد سمي هؤلاء بالبرجية لأنهم ينتسبون إلى المماليك الذين كانت ثكناتهم في أبراج قلعة القاهرة.

تسلطن برقوق مرتين (٧٨٤-٧٩١ ثم ٧٩٢-٨٠١ هـ)، وهو يعد صلة الوصل بين سلالتين من سلاطين المماليك، إذ حكم مصر والشام قائداً للعسكر (أتابك العسكر) قبل توليه السلطنة، وكان ذلك في ظل سلطانيين صغيرين من نسل قلاوون من المماليك البحرية (الأتراك).

أخذ برقوق يافعاً من بلاد الشركس (الجركس)، وأصله من قبيلة كسا، وبيع في القرم وجلبه إلى مصر تاجر رقيق معروف يدعى الخواجة فخر الدين عثمان بن مسافر فعرف به، واشتراه بمصر الأمير يلغا العمري الخاصكي من مماليك السلطان الأشرف شعبان في حدود سنة ٧٦٤ هـ/١٣٦٤ م، فأعتقه فلما اغتيل الملك الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ هـ/١٣٧٧ م، نصب ابنه الملك المنصور علي سلطاناً (٧٧٨-٧٨٣ هـ) وكان عمره نحو سبع سنوات.

صعد نجم برقوق، وكوفئ بترقيته من الجندية إلى رتبة أمير طبلخاناه دفعة واحدة (نصيب الأمير فيها أربعون فارساً، وقد يزيد حتى الثمانين بحسب إقطاعه)، ولم تمض أيام حتى غدا برقوق أمير آخور كبيراً (مسؤولاً عن الإسطبل السلطاني)، ثم أتابكاً للعسكر (قائداً للجيش) وصار إليه الحل والعقد مفوضاً من السلطان.

توفي الملك المنصور علي بالطاعون سنة ٧٨٣ هـ/١٣٨١ م، ونُصّب أخوه صلاح الدين أمير حاج سلطاناً، فتلقب بالملك الصالح حاجي، وعمره لا يتجاوز أحد عشر عاماً، وانفرد الأتابك برقوق بتصريف الأمور بعد أن تخلص من شركائه في الحكم وأكثر خصومه، ثم لم يلبث أن تآقت نفسه إلى السلطنة بتشجيع من أنصاره، فقام بخلع السلطان الجديد، **وقلده الخليفة العباسي المتوكل على الله** مقاليد البلاد، وشهد بذلك القضاة الأربعة وشيخ الإسلام. **وتسلم برقوق السلطنة** في التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ هـ الموافق للسادس من تشرين الثاني سنة ١٣٨٢ م، وتلقب بالملك الظاهر. واجهت السلطان برقوق، منذ أول عهده، صعوبات أضعفت موقفه، وأفقدته السيطرة على مقاليد الأمور شيئاً فشيئاً، إلى أن دالت دولته الأولى بعد سبع سنوات من حكمه. فقد أكثر من القبض على الأمراء

من أقرب المقربين إليه أو عزلهم أو نقلهم، حتى أصاب العزل الخليفة نفسه والقضاة، فتغيرت عليه الخواطر وخافه الخاصة والعامة. وكان أخطر ما واجهه ثورة نائبه على حلب الأمير يلغا الناصري، الذي تحالف مع أحد الأمراء المطرودين المعروف باسم «منطاش» وانضم إليهما عدد من الأمراء في بلاد الشام، ومنهم نائب سيس. وسيطر الناصري على كامل سورية، وهزم جيش السلطان عند أسوار دمشق، ودخلت دمشق في طاعته في ربيع الأول ٧٩١هـ/ آذار ١٣٨٩م.

وصلت طلائع الناصري أراضي مصر وعسكرت في الصالحية على مقربة من القاهرة قبل أن يتمكن السلطان برقوق من تجهيز لجيش آخر؛ استعداداً للمعركة الحاسمة، ودارت المعركة شمالي القاهرة وبين أسوار المدينة في التاسع من جمادى الأولى ٧٩١هـ/ أيار ١٣٨٩م من غير نتائج حاسمة، وبدأ السلطان برقوق يفقد رجاله وسلطانه يوماً فيوماً، إلى أن قرر مغادرة قلعته في خاتمة المطاف والاختفاء عن الأعين.

لم يلبث الملك الظاهر أن كشف أمره فقبض عليه وأودع السجن في قلعة الكرك (في الأردن اليوم). وأعيد الملك الصالح حاجي إلى السلطنة مرة ثانية وتلقب بالملك المنصور. وصار يلغا الناصري أتاكب العسكر وبيده الحل والربط، ولكن سرعان ما دب النزاع بين يلغا الناصري وحليفه منطاش، ودارت رحى المعارك بين الطرفين في القاهرة وغيرها، وتمكن منطاش من القبض على ناصية الأمور، وانتهى أمر الناصري. وانتهاز برقوق الفرصة في غمرة الفوضى التي عمت البلاد، ففر من سجنه وجمع حوله قوة من مماليكه وأنصاره ومن البدو العرب استطاع بها، بعد كثير من المغامرات المثيرة، أن يحقق نصره كاملاً ويدخل القاهرة في شهر صفر سنة ٧٩٢هـ/ شباط ١٣٩٠م. ولم يكن في وسع السلطان الصغير الملك المنصور حاجي سوى الانسحاب متخلياً عن السلطنة لبرقوق. بيد أن السلطان برقوق لم يتمكن من عدوّه القديم منطاش إلا بعد سنتين من المطاردة المستمرة.

كان عهد السلطان برقوق حافلين بأحداث مختلفة، أكثرها محاولات تمرد وانشقاق ومنازعات بين كبار أمراء المماليك الأتراك والشراكسة من أجل السلطة، إضافة إلى تفشي الأمراض وكساد الأسواق، وكانت العقود الأخيرة من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي سنوات جذب في تاريخ مصر والشام، ولم يخل الأمر من حوادث مهمة لا يمكن إغفالها. **ففي عهده الأول تواترت الأنباء عن ظهور تيمورلنك** في أواسط آسيا، بعد أن سيطر على مناطق شاسعة منها، واتخذ من سمرقند عاصمة له، وغزا فارس (٧٨٢هـ/ ١٣٨١م)، ثم استولى على تبريز (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م)، وراح يهدد العراق وديار بكر. ثم بروز **الإمارة العثمانية** في آسيا الصغرى في عهده.



مئذنة جامع السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية بالقاهرة

(١) الدولة العثمانية في الأناضول

سيرد التفصيل الأوسع في أطلس تاريخ الدولة العثمانية

تنسب **الدولة العثمانية** إلى قبيلة قابي إحدى القبائل التركية، ومنشؤها بلاد تركستان. وكان سليمان أحد أبناء القبيلة يهيم بقبيلته في آسيا الصغرى بعد موقعة ملاذكرد، وقتل سليمان عند مشارف حلب، وترددت القبيلة بين العودة لموطنها الأصلي، ومواصلة المغامرة، وانقسمت القبيلة في ذلك، فاختار ابنه أرطغرل مواصلة السير، فدخل آسيا الصغرى والتحق بخدمة الأمير السلجوقي علاء الدين الثاني الذي كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين، وساعده في هذا الكفاح، فأعطاه السلطان السلجوقي المستنقعات الواقعة على الحدود البيزنطية، وترك له توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين، فاتخذ شكور عاصمة له، وأصبح ابنه **عثمان** ملازماً له في حروبه وأعماله الإدارية. وفي هذه الأثناء كانت الحروب الصليبية مشتعلة فشغلت جانباً كبيراً من نشاط البيزنطيين مما أتاح فرصة الاستقرار للعثمانيين.

وعندما توفي أرطغرل تولى **عثمان الأول** مكانه بموافقة علاء الدين السلجوقي، وسار على هدي أبيه في مساعدة السلجوقيين وتأييدهم في حروبهم، فزاد علاء الدين في إكرامه ومنحه نوعاً من الاستقلال، وأقطعته كافة الأراضي والقلاع التي فتحها وأجاز له ضرب العملة باسمه، وذكر اسمه في خطبة الجمعة، ومنحه لقب بك. وهكذا اقترب عثمان من الاستقلال التام، وصار زعيم إمارة من أهم الإمارات، واستمر في التوسع حتى استولى من دولة الروم الشرقية على مدينة **قرة حصار**، التي جعلها **عاصمة له**.

وانتهز عثمان فرصة انشغال المغول بحروبهم مع سلاجقة قونية، فسار في فتوحاته ووسع مملكته. وبعد وفاة عثمان الأول جاء ابنه **أورخان** واستولى على عدة مدن، وتم تكوين أول فرقة من طوائف **الانكشارية (العسكر الجديد)**.

من وصية السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية إلى ولده أورخان:

"يا بني؛ إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك يا بني في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين ملجأ، يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك ولا بمالك.. إياك إياك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وبالجهد يعم نور ديننا الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله. يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم، أو سيطرة أشخاص. فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت".



الانكشارية: كلمة تطلق على مجموعة من الجنود المدربين تدريباً عالياً في عهد الإمبراطورية العثمانية. وقد اشتقت كلمة "إنكشاري" في صيغة المفرد من مصطلح تركي معناه "الجندي الجديد" (يطلق عليهم أيضاً اليكنجيرية أو اليكنجيرية من Yen بمعنى جديد و Kerry بمعنى عسكر أي العسكر الجديد). وقد قام أورخان - الذي أسس والده الدولة العثمانية - بتنظيم الانكشارية باعتبارهم حرساً في أواخر القرن الرابع عشر ١٣٢٦م / ٧٢٦هـ. وقد تلقى الجنود دروساً في العقيدة الإسلامية، كما شُغلت الرتب بالعبيد والأهالي الذين وقع عليهم الاختيار وبعض الأسرى. ثم تطور الإنكشاريون - بحلول القرن الخامس عشر الميلادي - ليصبحوا من أقوى الوحدات العسكرية الموجودة في العالم. وقد خدموا الحكام العثمانيين حتى عام ١٢٤١هـ / ١٨٢٦م، حيث ثاروا على السلطان محمود الثاني في الآستانة (أستنبول) ففُضى عليهم.

الدولة العثمانية والفتوحات الأوروبية

لم تكد أوروبا تظهر فرحتها بسقوط السلاجقة الذين أذاقوها مرارة الهزيمة مرّات، وأسروا أباطرتها، وانتزعوا من الروم أعظم ممتلكاتهم في آسيا الصغرى، حتّى ظهر لهم الخطر الإسلامي من جديد؛ ممثلاً في الدولة العثمانية الفتية المجاهدة، فغلبتهم على ما بقي لهم في آسيا، وبقي على العثمانيين أن يعبروا البسفور إلى الشاطئ الأوروبي. وقد نظر الأوروبيون إلى الدولة العثمانية على أنها ممثلة الإسلام وحاملة رايته، ومن ثمّ تكتلت جهودهم لوقف مدّها، ثم إضعافها والإجهاز عليها، كما جندوا أقلام مفكريهم ومؤرّخيهم لتشويه تاريخها وكيال الاتهامات لها.

خلف أورخان بن عثمان الذي توفي عام ٧٦١هـ / ١٣٥٩م، ابنه مراد الأول الذي تخطى المضيق واتجه إلى أوروبا، وهاجم شبه جزيرة البلقان، بعد أن أقر النظام وتغلب على بعض العصاة في آسيا الصغرى. وكانت البلقان وقتها خاضعة لعدد من صفار الحكام. فتساقطوا واحداً بعد الآخر في قبضة العثمانيين. وفي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م، وقعت معركة عنيفة في **قوصوة** بين العثمانيين بقيادة مراد الأول وأحلاف النصارى الأوروبيين التي تكونت من القوات الصربية وقوات من البشناق والمجر والبلغان والألبانيين، وانتصر مراد الأول، غير أن صربياً طعنه غدرًا، وتولى بايزيد الأول مكان أبيه.

وفي عام ٧٩٣هـ، ١٣٩٠م فقد البيزنطيون آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى وهي مدينة آلاشهر. ونتيجة للفتوحات العثمانية، انتشر الخوف والفرع بين الأوروبيين، وقامت مظاهرات دينية للحث على حربهم، وخرج جيش أوروبي بقيادة سجسمند ملك المجر، ضم إليه كتائب من فرنسا وألمانيا، وانتصر الأوروبيون في بادئ الأمر واستردوا الكثير من المدن، ولكن بايزيد الأول أسرع بتجميع شتات جنوده وهزمهم سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م، ثم توالى الفتوحات بفتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ٨٥٧هـ / ١٣٥٤م.



كنيسة آيا صوفيا في (إستنبول) من الخارج والداخل، حيث كانت (مقر الأرثوذكس العالمي)، التي تضاهي (الفاثيكان مقر الكاثوليك العالمي)، والذي فتحها المسلمون في عهد السلطان محمد الفاتح وقام بتغيير اسمها إلى (إسلام بول) أي مدينة الإسلام. واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وظلت كذلك حتى إلغاء الخلافة.

بلاد الشركس

بحر بنطس (البحر الأسود)

الهيئة العامة للغذاء والدواء

100	100	100
-----	-----	-----

البحر الشامي (بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط)

الحوادث
قصة حصار

العثمانيون

دوقية أثينا اليونانية

إمارة المورة البيزنطية



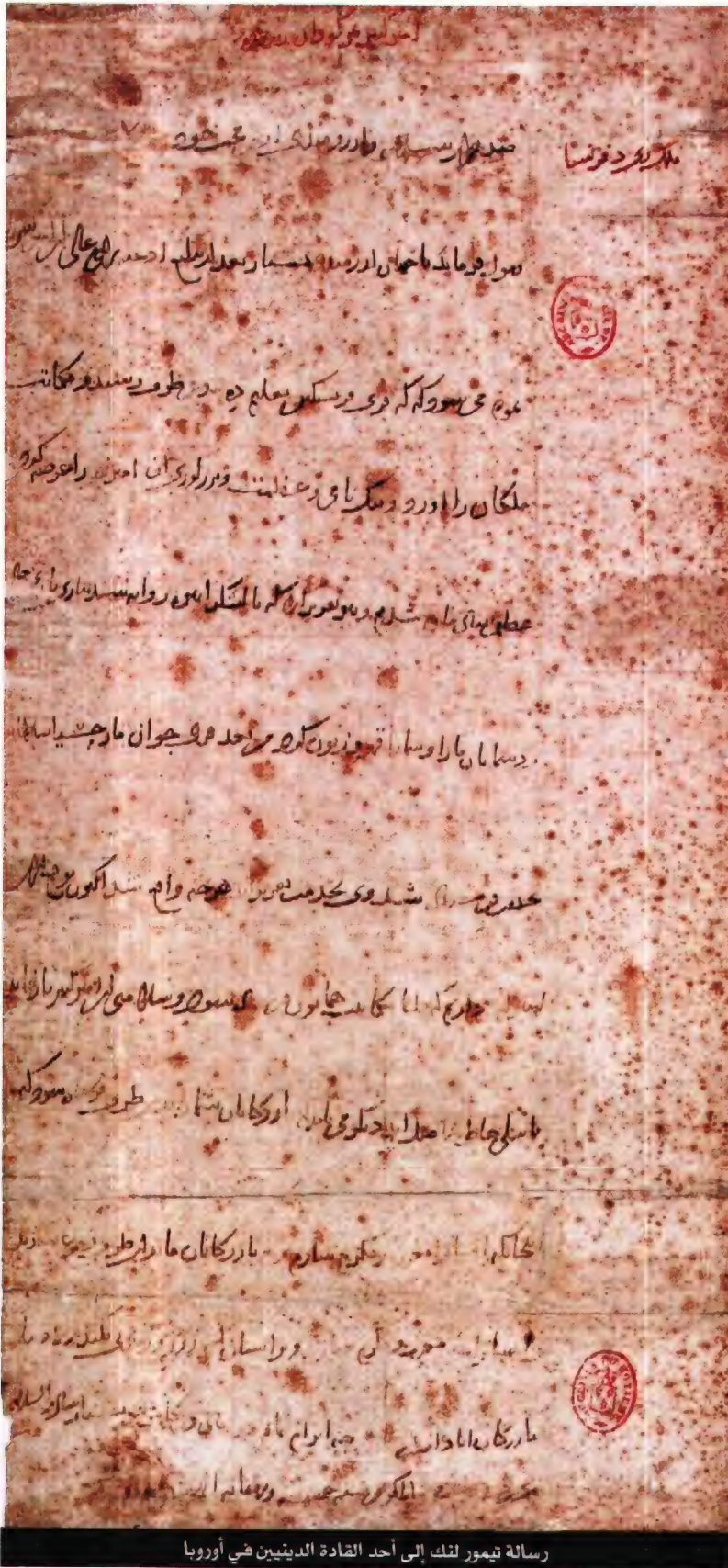
الدولة التيمورية سنة ٧٧١ هـ - ١٣٧٠ م / ٩١١ هـ - ١٥٠٦ م

"تيمورلنك" هو فاتح مغولي شيعي المعتقد، ينتمي إلى الأسر النبيلة في بلاد ما وراء النهر. وكان بوصفه مسلماً يرضى العلماء، وبخاصة أتباع الطريقة النقشبندية. ويُعد "تيمورلنك" أحد أعظم الفاتحين في التاريخ وأشدهم قسوة. ولد "تيمورلنك" (أي الحديد)، في مدينة "كش Kesh" في بلاد ما وراء النهر، لأمير إحدى هذه القبائل. اشتهر ببطشه وتعطشه إلى القتل. وفي عام ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م جلس على عرش (خراسان) وقاعدته (سمرقند)، وقد اجتاح على رأس جحافلِه المنطقة الممتدة من (منغوليا) إلى البحر الأبيض المتوسط، واستطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبة أن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الإسلامي. فقد انتشرت قواته الضخمة في آسيا من (دهلي) إلى دمشق، ومن بحر (آرال) إلى الخليج العربي، واحتل (فارس) و(أرمينيا) وأعالي (الفرات) و(دجلة) والمناطق الواقعة بين بحر (قزوين) إلى البحر الأسود، وفي (روسيا) سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار (الفرات) و(الدون) و(الدينير)، وأعلن بأنه سيسيّطر على الأرض المسكونة ويجعلها ملكاً له، وكان يردد: "أنه يجب ألا يوجد سوى سيد واحد على الأرض طالما أنه لا يوجد إلا إله واحد في السماء" وقد اتصف "تيمورلنك" بالشجاعة والعبقريّة الحربية، والمهارة السياسية، وكان قبل أن يقرر أمر يقوم بجمع المعلومات ويرسل الجواسيس ثم يصدر أوامره بعد صبر وتأن بعيداً عن العجلة، وكان من الهيبة بحيث إن جنوده كانوا يطيعون أوامره أياً كانت.

استولى تيمورلنك على حلب، ودمشق وشرقي الأناضول، ودمر بغداد سنة ١٤٠١ م، ثم انتصر على العثمانيين في

معركة أنقرة وأسر السلطان العثماني بايزيد سنة ١٤٠٢ هـ.

قام تيمورلنك ببناء **سمرقند** وحولها إلى أكبر حواضر العالم. توفي تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م في أثناء إعداده حملة لغزو الصين. لكن بعد وفاته تنازع أحفاده على مملكته إذ تمكن شاه رخ (١٤٠٥/٩ - ١٤٤٧ م) من أن يفرض نفسه وسيطر من قاعدته في هراة على جميع أملاك جده، وتابع سيرته في تثبيت الدولة التيمورية. سقطت بعدها الأناضول ومعها إيران والعراق في أيدي الآق قويونلو (الخروف الأبيض). في أثناء العهود اللاحقة نشطت الحياة الثقافية في العديد من الحواضر في المملكة. كانت سمرقند أكبرها جميعاً، اشتهرت بمرصدها الفلكي الذي قام ببنائه الفلكي والسلطان في نفس الوقت ألغ بك (١٤٠٩ - ١٤٤٩ م). ثم أخذت الحروب الداخلية تدب في جسد الدولة، كانت إمارة سمرقند التي حكمها أبو سعيد (١٤٥١ - ١٤٦٩ م) الاستثناء الوحيد لحالة الفوضى التي عمت المملكة. أزاح الشيبانيون ابنه أحمد (١٤٦٩ - ١٤٩٤ م) عندما دخلوا سمرقند (على مرتين) سنة ١٤٩٧ م ثم ١٥٠٠ م. عاشت **دولة التيموريين** آخر أمجادها في هراة تحت حكم باي قرة (١٤٦٩ - ١٥٠٦ م)، الذي كانت عاصمته مركزاً من مراكز الثقافة آنذاك. انتهى حكمهم سنة ١٥٠٦ م عندما دخل الشيبانيون هراة. قام أحد أحفاد تيمور وهو بابر شاه بتأسيس دولة جديدة (المغول الكبار) أو إمبراطورية المغول الكبرى في الهند.



منمنمة تيمورية



أما **فن التصوير** فقد حقق رقياً أكبر في هرات في أيام السلطان حسين بايقرا ووزيره مير علي شرنوائي. وازدهر التصوير في الوقت نفسه، في شيراز، حيث وضع فيها صور لخطوط دواوين الشعر العاطفي للشعراء الفرس. ولا حظ في صور **المدرسة التيمورية** اندماج الأساليب الفنية للمدرسة العباسية، والمدرستين الفارسية والصينية في رسم الأشخاص، والاعتناء بدقة التفاصيل مع خلفية طبيعية ملونة، وتمتاز هذه الصور بالواقعية والحيوية



العلاقات الخارجية :

لم يُتَح الصراع على السلطة للحكام التيموريين متابعة سياسة خارجية، ثابتة ولكن شاه رخ الذي حكم لمدة طويلة، عدل عن سياسة التشدد مع الصين التي انتهجها والده، وأقلع عن فكرة غزو تلك البلاد، وأوفد إلى الصين سفارتين ٨١١-٨١٢هـ / ١٤٠٨-١٤٠٩م واستقبل عام ٨١٥هـ / ١٤١٢م بعثة صينية، حملت معها قبول الإمبراطور الصيني، من أسرة مينغ Ming، إقرار شاه رخ له بالتبعية بوصفه أن أسرة مينغ الحاكمة هي وارثة أسرة يوان Yuan التي كان قد أسسها الخان «قويلاي» بن تولوي بن جنكيز خان، والتي كانت تدّعي الزعامة على باقي الدول المغولية وما انبثق عنها من ممالك، وكان من نتائج هذه السياسة عودة العلاقات التجارية مع الصين إلى نشاطها السابق^(١).

وحاول شاه رخ أيضاً تجديد النفوذ التيموري في الدولة العثمانية الذي انبثق من معركة أنقرة. ولذلك فقد تلقى من السلطان العثماني مراد الثاني رداً بالإقرار بالتبعية له على رسالة وجهها له شاه رخ ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م يطلب منه فيها ذلك.

وامتدت علاقات شاه رخ مع **دولة المماليك** حقبة طويلة من الزمن بين ٨٣٣-٨٤٨هـ / ١٤٣٠-١٤٤٤م، تبادل فيها الرسائل مع سلاطين المماليك. وبعث بوفوده إلى القاهرة، وطالب شاه رخ بأن يرسل له كتب دينية وتاريخية معينة، ثم طمح إلى أن يرسل كسوة للكعبة، ولما رفض السلطان «برسباي» طلبه أرسل إليه شاه رخ يطالبه بالإقرار بالتبعية له، على نحو ما كان أقر به السلطان فرج لوالده تيمور، ولكن برسباي رفض ورد المبعوث التيموري خائباً. وأخيراً انتهى الأمر بسماع السلطان جقمق عام ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م لشاه رخ بإرسال كسوة للكعبة، واستمر منذ ذلك الوقت قدوم الحجاج من المشرق إلى الحجاز وكان بعضهم يمر بالمدن الواقعة تحت النفوذ التركي^(٢).



ميدان رجستان من معالم سمرقند في عهد "تيمورلنك" حيث كان يقوم بعرض فتوحاته في هذا الميدان

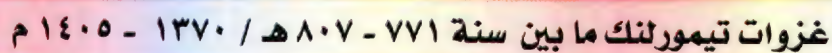
سمرقند: مدينة في أوزبكستان، وهي عاصمة ما وراء النهر التاريخية، سكانها طاجيك (يتحدثون الفارسية لا الطاجيكية). اشتهرت بتخريج علماء الدين.

تقع المدينة في آسيا الوسطى. وأصل الاسم "شمر أبوكرب"، ثم حُرِف الاسم إلى "شمر كنت" ثم عُرِبَت إلى "سمرقند"، ومعناها وجه الأرض.

وقد وصفها "ابن بطوطة" بقوله:

"إنها من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً، مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادى القصارين، وكانت تضم قصوراً عظيمة، وعمارة تُبَيِّن عن همَم أهلها".

ووصفها بعض الرحالة العرب بالياقوتة الراقدة على الضفة الجنوبية لنهر زرافشان.



تبعية الأشراف لحكم الدولة المملوكية



الزحف التيموري على بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م

بدأ تيمورلنك عملياته العسكرية في الأناضول وشمالى بلاد الشام بالإغارة على **سيواس**، التي كانت تحت حكم الأمير سليمان ابن السلطان با يزيد الأول، وتمكّن من دخولها بعد حصار دام ثمانية عشر يوماً، وذلك في (الخامس من شهر محرم سنة ٨٠٣ هـ / آب سنة ١٤٠٠ م) فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وهدم أسوارها وأزال بهجتها، ثم تقدم نحو ملطية في الخامس والعشرين من الشهر المذكور فدخلها ودمرها على عادته^(١).

ثم رأى أن يزحف باتجاه **بلاد الشام** ليستولي عليها قبل أن يصطدم بالعثمانيين ليؤمن جناح جيشه الأيسر. واتخذ من مسألة أطلمش ذريعة للاشتباك بالقوات المملوكية، فأرسل من ملطية، كتابه الأول، إلى **السلطان فرج بن برقوق**، وقد صاغه بأسلوب استعلائي، فنّد فيه تصرف السلطان برقوق الخاطئ معه من قبل، حين أقدم على قتل رسله واعتقل أطلمش، وحذّره من مغبة انتهاجه السلوك نفسه، وتوعده بالانتقام الشديد إن لم يسارع إلى إطلاق سراحه، وإذا فعل ذلك، فإنه سيتركه وشأنه، ويعود إلى بلاده دون التعرض **للدولة المملوكية**^(٢).

حين وصل رسل تيمورلنك إلى **حلب**، قبض عليهم نائبها، وأرسل يعلم السلطان بمجيئهم، إلا أن فرج، الذي اتصف وأعوانه بالحمق السياسي، تصرف تصرفاً شائناً عندما أمر بسجن الرسل، فحرك الغيظ في قلب تيمورلنك، وجعله يترك الأناضول على عجل ويتوجه إلى بلاد الشام^(٣).

وصل تيمورلنك إلى **حلب** بعدما عاث في القرى المحيطة بها سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م وحاصرها. **وجرت بينه وبين المماليك الذين أتوا من كل المدن السورية وأهل حلب مناوشات عدة**. ولكن المماليك، وبعد يومين من القتال، انسحبوا عندما تيقنوا بأن السلطان لن يأتي من القاهرة وتركوا حلب وأهلها لمصيرهم، الذي كان فعلاً فظيلاً. فقد قتل المغول سكان البلد الذين خرجوا أساساً مع المماليك ثم دخلوا المدينة وأجهزوا على من تبقى منهم، حتى أولئك الذين التجأوا إلى الجوامع والخانقاوات والمدارس، واغتصبوا النساء والفتيات والغلمان وقتلوا الأطفال أيضاً بعد أن كانوا قد قضوا على الرجال والفتيان، ثم أولعوا النار في المدينة وقعدوا يقتلون من تبقى حياً من السكان لمدة ثلاثة أيام مروعة. وبنى تيمورلنك برجاً من الرؤوس التي قطعها جنوده، قيل إن عدته عشرين ألف رأس تنظر كلها للخارج، كمن يشهد على الفظائع التي مرت بها قبل اجتازها ويتوعد من تبقى من السكان حياً بسوء المآل.

قتل المغول سكان حلب وقرها الذين خرجوا أساساً مع المماليك ثم دخلوا المدينة وأجهزوا على من تبقى منهم، حتى أولئك الذين التجأوا إلى الجوامع والخانات والمدارس، واغتصبوا النساء والفتيات والعلماء وقتلوا الأطفال أيضاً بعد أن كانوا قد قضوا على الرجال والفتيان، ثم أولعوا النار في المدينة وقعدوا يقتلون من تبقى حياً من السكان لمدة ثلاثة أيام مروعة. وبنى تيمورلنك برجاً من الرؤوس التي قطعها جنوده، قيل: إن عدته عشرين ألف رأس تنظر كلها للخارج، كمن يشهد على الفظائع التي مرت بها قبل اجتيازها ويتوعد من تبقى من السكان حياً بسوء المآل.

بعد مجزرة حلب، فتحت حماة أبوابها لابن تيمور ميران شاه خوفاً من بطش المغول، ولكن اغتيال اثنين من جنده في الليل جعله يعود إلى المدينة ويضع السيف في أهلها ويحرقها بالكامل.

في كانون الثاني ١٤٠١م وصلت جيوش تيمورلنك إلى مشارف دمشق تسبقها أخبار التقتيل والتدمير، وكانت المدينة قد تحصنت وباتت تنتظر وصول السلطان فرج من مصر ليفرج عنها. ومع أن السلطان وحيشه قدموا للدفاع عن دمشق، فإنهم كانوا متنافرين فيما بينهم. كل يتحين الفرص للانقضاض على الآخر. وكان فرج صيباً أهوج يفتقر إلى الحنكة والسياسة وإلى النصحاء الخالص على الرغم من أن بلاطه قد حوى على بعض ألمع مفكري العصر. وكان تيمورلنك على معرفة بالانشقاقات في المعسكر المملوكي وبضعف السلطان وقلة حيلته، فخادعهم بعد ابتداء المناوشات بين الجيشين بأن أظهر انتقمهم والاندحار. ثم عاود الكرة على دمشق بعدما علم بالانسحاب الاعتيادي للأمرء المماليك يتبعهم السلطان وبطانته خلال الليل تاركين وراءهم عتادهم وأثقالهم. ونقتبس من المقرريين وابن تقيي بردي شيئاً من جرائم تيمورلنك الباطني: "فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء مالا يوصف وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار، والتعليق منكوساً، وغم الأنف بخرقه فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهر؛ فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: ليتني أموت وأستريح مما أنا فيه، ومع هذا تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المذبذبة امرأته أو بنته وهي توطأ، وولده وهو يلاطم به، فيصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة والملاط، وكل ذلك من غير ستر في النهار بحضرة الملا من الناس. ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يسمع بمثله؛ منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتشد رأسه بحبل ويلوونه حتى يغوص في رأسه، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تتخلع الكتفتان، ومنهم من كان يربط إبهام يدي المذبذبة وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره، ويفر في منخريه الرماد مسحوقاً، فيقر على ما عنده شيئاً بعد شيء، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدق صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت، ويعاقب ميتاً مخافة أن يتموت، ومنهم من كان يعلق المذبذبة بإبهام يديه في سقف الدار ويشعل النار تحته، ويطول تعليقه، فربما يسقط فيها، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلقه ثانياً."

دام هذا العذاب عشرين يوماً، قتل خلالها أعداد كبيرة من الناس وهرغت المدينة من كل ثرائها، ولكن غل تيمورلنك يشف بما فعله، فاستباحها لجيشه لمدة ثلاثة أيام آخر، ثم قاد منها جمع غفير من الصناع والأعيان والنساء والعلماء ليعود بهم إلى سمرقند، وطرح النار فيما تبقى من البلد لكي يكمل عليها.



٢٥٠

الزحف المغولي بقيادة تيمورلنك على بلاد الشام

لماذا ترك تيمورلنك دمشق بعد مذبحته في سكانها؟

تتوافق أقوال المصادر التيمورية مع أقوال مؤرخي المماليك في وصف أعمال المغيرين في دمشق، وتعلل المصادر الأولى تلك الأعمال بعدالة تيمورلنك التي رأت محاسبة **سكان دمشق** لوقوف أسلافهم إلى جانب معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- وابنه يزيد ضد **علي بن أبي طالب** -رضي الله عنه- وولده **الحسين** -رضي الله عنه-. **والجدير بالذكر أن تيمورلنك كان متشيعاً**. ويبدو أنه كانت هناك عدة دوافع حملت تيمورلنك على الانسحاب من دمشق أهمها^(١):

١- جاء انسحاب الغازي التيموري من دمشق بعد أن حقق غاياته من الاحتلال. فقد أخضع بلاد الشام، وأحرق دمشق؛ فكان عليه أن يعود إلى بلاده.

٢- كانت المواد التموينية في طريقها إلى النفاذ، كما قلّت أعلاف الدواب، لاسيما بعد ما حلَّ **بدمشق وغوطتها** من خراب بسبب الغزو. وقد لمس تيمورلنك ذلك، فأرسل قسماً من قواته إلى فلسطين لجمع الأعلاف من هناك، وشوهدت هذه القرارات في حوران تجمع العيق، وظهرت في جهات الحولة.

٣- كان السلطان **فرج بن برقوق** في هذه الأثناء في القاهرة، يتجهز استعداداً للعودة على رأس جيش جديد إلى بلاد الشام. ولا شك أن أخبار الاستعدادات العسكرية التي كانت تقوم بها السلطات المملوكية في القاهرة، في تلك الآونة، كانت تصل إلى مسامع تيمورلنك، وقد خشي أن يقع هو وقواته بين فكي الكماشة، بين قوات السلطان من الجنوب، وقوات حلفائه الجلائريين حكام بغداد من الشرق، لذلك فضّل أن يسارع بالانسحاب من دمشق.

٤- كان السلطان العثماني بايزيد الأول يجري آنذاك مباحثات مع السلطات المملوكية، لإقامة حلف دفاعي بين الطرفين لمواجهة الخطر التيموري، وقد علم تيمورلنك بأنباء هذه المباحثات، فأراد ضرب العثمانيين منعاً لقيام مثل هذا التحالف، وضم الأناضول إلى إمبراطوريته.

٥- بروز بوادر حركات معادية له في النيابات الشامية. فقد تمكن الأمير دمرداش الحمودي، نائب حلب وقلعتها من التيموريين، وقتل منهم جماعة كبيرة كما تمكن الأمير شيخ الحمودي، نائب طرابلس، من الفرار من الأسر.

لقد كان لإحلال العصبية الجركسية مكان العصبية التركية أعطى قيام دولة المماليك البرجية صيغة خاصة، فإن العامل الخارجي الذي تمثل بغزوة تيمورلنك لبلاد الدولة المملوكية الثانية، أضاف فارقاً كبيراً بين هذه الدولة ودولة المماليك البحرية، إذ إنه على حين بدت دولة المماليك الأولى متماسكة في وقت الحروب حتى انتصرت على المغول في معارك عدة، فإن انقسام أمراء دولة المماليك الثانية أدى إلى هزيمتها أمام تيمورلنك، وأضحى هذا الانقسام القائم على العصبية مظهراً من مظاهر هذه الدولة حتى عهد السلطانة برسباي، الذي تمكن من توحيد الصفوف مرة أخرى، لتواجه الدولة أعداءها في الخارج.

أهم الأحداث الخارجية في عهد المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي

- قام **المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي** بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام، وذلك لإرغام الدويلات التركمانية على الحدود - وأهمها قرمان وذو القدر وأبناء رمضان - على العودة لسابق تبعيتها لدولة المماليك.
- ١- ففي سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م، خرج السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي إلى **طرسوس**، حيث قدم له أمراء التركمان فروض الطاعة، بل إن أمير قرمان رضى أن يسك عملته باسم السلطان المملوكي. ولكن ما كان السلطان المؤيد يعود إلى مصر، حتى نقض التركمان الشروط التي تعهدوا بها.
- ٢- أرسل **المؤيد ابنه إبراهيم** ضدهم سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م، فاستولى على **قيصرية وقونية**، وسك العملة في بلاد التركمان باسم أبيه السلطان المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي. ولم يعد إبراهيم إلى مصر إلا بعد أن عين حاكماً مالياً للدولة المملوكية على تلك الجهات، كما ضم إلى دولة المماليك بعض المدن المهمة مثل **أضنة وطرسوس**. وقد استقبل إبراهيم في مصر استقبالاً حماسياً، ولكنه لم يلبث أن توفي في العام اللاحق، وقيل: إن أباه حقد عليه لما ناله من تقدير، ففس له السم^(١). قلت: وهذا يتنافى مع فطرة الإنسان تجاه الولد؛ ناهيك عن خلق المسلم، وما آفة الأخبار إلا روايتها.



قتاع الحصان وهو يحمل رنكاً مركباً يعود إلى الأمير مقبل الرومي دوادار السلطان مؤيد الشيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١ م) الاتقاق ٥٨,٨ سم، ليون، متحف الفنون الجميلة. مصدر الصورة : كتاب فروسية ١، الفروسية الجزء الأول (فنون الفروسية في تاريخ المشرق والمغرب) عربيه وحرره وعلّق عليه د. شهاب الصّراف، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض.

١- د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ٢٧٢.

الملك الأشرف « برسباي »^(١)

٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢١ - ١٤٣٨ م

هو الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر **برسباي** بن عبد الله الدقماقي الظاهري، السلطان الثاني والثلاثون من سلاطين المماليك (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢١ - ١٤٣٨ م) والثامن بين السلاطين الجراكسة (البرجية) وأولادهم.

ولد في القفقاس (بلاد الشركس)، أخذ صغيراً وبيع في القرم، وبقي فيها حتى اشتراه بعض التجار وقصد به إلى الشام، فلما وصل ملطية اشتراه نائبها الأمير دقماق المحمدي الظاهري فأقام عنده مدة، ثم أهداه الأمير دقماق في جملة مماليك آخرين إلى السلطان الملك الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٧٩١ / ٧٩٢ - ٨٠١ هـ)، ففرقهم الملك الظاهر على أطباق المماليك، وتدرّج في الخدمة إلى أن رقي إلى **أمير طبخانا** (إمرة أربعين مملوكاً) بعد تولي الملك المؤيد شيخ السلطنة (٨١٥ - ٨٢٣ هـ)، واستمر على ذلك بضع سنين، ثم رقي إلى «أمير مئة وتقدمة ألف» في مصر وولّي كشف الجسور بمنطقة الغربية من أعمال القاهرة، ثم ولاه الملك المؤيد نيابة طرابلس سنة ٨٢١ هـ، ولم يلبث أن عزله بعد بضعة أشهر وسجنه في قلعة المرقب لتقصيره في تأديب بعض عصابات التركمان التي كانت تعيث فساداً في أرباض صافيته، ثم أطلق سراحه سنة ٨٢٣ هـ بتوسط الأمير **ططر**، وأنعم عليه بإمرة مئة وتقدمة ألف في دمشق.

مكث برسباي في دمشق حتى مات الملك المؤيد، وخرج نائبها الأمير جقمق عن الطاعة وسجن برسباي في قلعتها، ولكن الأمير ططر أخرجه من السجن، وخلع عليه رتبة دوا دار بعد توليه السلطنة سنة ٨٢٤ هـ وعينه «لالا» لولده الملك الصالح محمد، وعين جاني بك الصوفي أتابكاً للعسكر ومديراً للمملكة. ولم يلبث الخلاف أن دب بين برسباي وجاني بك الصوفي، فكانت الغلبة لبرسباي الذي تخلص من غريمه ثالث أيام عيد الأضحى سنة ٨٢٤ هـ وسجنه في الإسكندرية، واستقر برسباي مديراً للمملكة، وصار لقبه نظام الملك مع الملك الصالح محمد وفوض إليه الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح داود العباسي (٨١٧ - ٨٤٥ هـ) أمور الدولة نيابة عن السلطان الصغير السن. ولم تمض بضعة أشهر حتى كان برسباي قد تخلص من أخطر مزاحميه أو استمالهم إلى جانبه حتى صفا الجوله واستبد بالملك فخلع الملك الصالح وجلس على تخت السلطنة في الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ، وتلقب بالملك الأشرف.

دامت سلطنة الملك الأشرف برسباي ست عشرة سنة وثمانية أشهر، كانت البلاد إبانها عزيزة الجانب، ولكن لم تخل سنوات حكمه من بعض الفتن أو الاضطراب بسبب حوادث تمرد بعض الحكام والأمراء في مصر والشام والحجاز، وقد باءت جميعها بالإخفاق، وكان أكثر ما نفص على الملك

سنة ست وعشرين وثمانمائة

«أهلت وسلطان مصر والشام والحجاز الملك الأشرف برسباي الدقماقي

والأمير الكبير الأتابك بيبغا المظفري، والدوادار الكبير الأمير سودن بن عبد الرحمن، وأمير سلاح الأمير جقق، وأمير مجلس الأمير أقبغا التمرآزي، وأمير أخور الأمير قصروه نوبة النوب الأمير أزبك، والوزير أستاذار الأمير أرغون شاه، وكاتب السر علم الدين داود بن عبد الرحمن بن الكويز، وناظر الخاص صاحب بدر الدين حسن بن نصر الله، وقاضي القضاة الشافعي علم الدين صالح بن البلقيني، ونائب الشام الأمير تنبك العلالي ميق، ونائب حلب الأمير تنبك البجاسي، ونائب طرابلس الأمير أينال النورزي، ونائب صفد الأمير مقبل الدوادار، ونائب حماة شار قطلوا.

شهر الله الحرام أوله الأربعاء: في ثالث عشرينه: قدم الركب الأول من الحجاج، وقدم المحمل ببقية الحاج من (الحج)، وكانت سنة مشقة إلى الغاية، توالى فيها الأمطار الخارجة عن الحد، زيادة على يوم، وأتت سيول مهولة، مع غلاء الأسعار بمكة، فبيع الحمل الدقيق بخمسة وثلاثين ديناراً، وبيعت وبية شعير في الأزل بمخمسين مؤيدياً، فيكون الأردب الشعير على ذلك بألفين ومائة درهم من نقد القاهرة، وكثر موت الجمال، ومشت النساء والصفار عدة مراحل، ومات كثير من الناس، واشتد الحر، ثم اشتد البرد، ومع وفي ثامن عشرينه: أعيد زين قاسم بن البلقيني إلى نظر الجوالي؛ عوضاً عن صدر الدين أحمد بن المعجمي على مال التزم به. وفيه أنعم على الأمير جانبك الخازندار بإمرة طبلخاناه، من جملة إقطاع الأمير فارس نائب الإسكندرية.

كان شهر صفر أوله الخميس: في ثامن عشره: جمع السلطان الأمراء، والقضاة، ومباشريه، وأحضر جماعة من التجار، وأنكر حال الفلوس، وذلك أنها كما تقدم غير مرة أنها هي النقد الرائج بأرض مصر، فينسب إليها أثمان المبيعات، وقيم الأعمال، ثم لما ضرب الملك المؤيد شيخ الدراهم المؤيدية، رسم أن تنسب قيم الأعمال وأثمان المبيعات إليها، فعمل بذلك مدة من أيامه حتى مات. فعادت قيم الأعمال وأثمان المبيعات تنسب إلى الفلوس كما كانت قبل المؤيدية، وحدث في الفلوس مع ذلك ما لم يكن يعهد منذ ضربت، وهو أنه خلط فيها قطع الحديد، وقطع النحاس، وقطع الرصاص، من أجل أنها تؤخذ وزناً لا عدداً، وتغافل الحكام عن إنكار ذلك، فتمادى الحال على هذا من بعد موت المؤيد، حتى صارت القفة من الفلوس التي وزنها مائة رطل لا يكاد يوجد فيها قدر عشرين رطلاً من الفلوس، وإنها هي - كما قدم - ذكره ما بين نحاس، وحديد، ورصاص. وانفتح للصيارفة ونحوهم من ذلك باب ربح، وهو أنهم صاروا ينقون الفلوس، ويبيعونها لمن يحملها إلى **الحجاز واليمن وبلاد المغرب** كل قطار بسبعمائة درهم، فلما بلغ السلطان ذاك، أراد أن يضرب فلوساً فاختلّفوا عليه في مقدار وزنها، فأشار بعضهم أن يكون كل ستين فلساً بدرهم أشرفي، وأشار آخرون أن تكون أوزانها مختلفة فيها ما زنته مثقال، وفيها ما زنته غير ذلك، فجمع الناس كما تقدم ليقوي عزمه على ما يمضيه، فما زالوا به حتى رجع عن تغيير المعاملة بالفلوس التي بأيدي الناس خوفاً من وقوف أحوال الأسواق لعنت العامة. فاستقر الرأي على أن نودي بأن يكون سعر الفلوس المتقاة من الحديد والرصاص والنحاس بسبعة دراهم كل رطل، ويكون سعر هذه القطع بخمسة دراهم الرطل، فامتثل الناس ذلك، وصارت الفلوس صنفين بسعيرين مختلفين ومشى الحال على هذا.

في حياته فرار غريمه جاني بك الصوفي من سجن الإسكندرية سنة ٨٢٦ هـ واختفاؤه مدة طويلة جداً من دون أن يعرف مكانه حتى قتل قبل وفاة السلطان بمدة يسيرة على يد أولاد قره يولك زعيم **الآق قويونلو**، وقد انعكس ذلك على تصرفات الملك الأشرف، فابن تغري بردي يشير إلى البلاء والعقوبات التي حلت بالناس بعد أن سمع السلطان بهرب جاني بك، وأن هذا البلاء استمر طوال سلطنته، كذلك شهدت البلاد في عهده تفشي الوباء أكثر من مرة، كان أصعبها وأشدّها **تفشي الطاعون** - انظر المستند التاريخي في الصفحة المقابلة - في أكثر البلاد سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٣٠ م، ذلك الطاعون الذي مات فيه الألوف يومياً واستمر نحو أربعة أشهر.

أما على الصعيد الخارجي، فقد كانت علاقات الدولة المملوكية بجيرانها في هذه الحقبة تتأرجح بين الموالاة التامة والعداء الشديد، وقد عاصر برسبای في حكمه السلطان **شاه رخ بن تيمورلنك** والسلطان العثماني **مراد بن عثمان** في بورصة والأمير **صارم الدين القرمانی** في قونية وعثمان ابن طر علي المعروف باسم قره يولك زعيم الآق قويونلو، وناصر الدين من أبناء دلغادر «ذو القادر» في مرعش، وكان هؤلاء يناصبون الدولة المملوكية العداء في غالب الأحيان، ويعيثون فساداً على تخوم الدولة مما اضطر الملك الأشرف إلى إرسال تجاريد أكثر من مرة لردعهم، بل إنه قاد غزوة بنفسه لتأديب عثمان قره يولك سنة ٨٣٦ هـ، فاستولى على **الرّها**، وحاصر **آمد** حاضرة قره يولك، أما قره يوسف زعيم **القره قويونلو** وأولاده فكانوا أقرب إلى الموالاة.

لقد نجح السلطان برسبای في المدة التي قضاها في الحكم - وهي نحو سبعة عشر عاماً - في إشاعة الأمن والاستقرار، والقضاء على الثورات والفتن، التي شبت في البلاد، والضرب على أيدي الخارجين على النظام، كما فعل مع ثورة طائفة المماليك الأجلاب، وهم الذين جاءوا إلى مصر كباراً، وكانوا قد عاثوا في الأرض فساداً لتأخر رواتبهم في عامي (٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م)، (٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م)، وقد مكّنه ذلك الاستقرار الذي نعمت به البلاد من القيام بغزو جزيرة قبرص.

كان الأشرف برسبای جليلاً مهاباً، منقاداً للشرع، مقرباً للفقهاء، وافر العقل؛ لم يشرب الخمر قط، عارفاً بأحوال المملكة، يتصدى للأحكام بنفسه، وكان محباً للصيد ماهراً في الرماية؛ محباً لجمع المال كثير المصادرات، وهو أول سلاطين مصر الذين حصلوا العشور من التجار، وكان يتاجر بالغلل، وأمر بمنع التعامل بالنقود الإفرنتية المشخصة، (التي تسك في بلاد الفرنج وعليها صورة)، وسك نقوداً ذهبية باسمه عرفت بالأشرفية والبرسباهية، وكانت من أجود الأنواع، ودام تداولها زماناً طويلاً من بعده.

سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة

« فيها كان **الطاعون العظيم** الذي لم ندرك بمثله بمصر وقرأها، بل

وبغالب البلاد الشامية، حسبما ذكرناه في ترجمة الملك الأشرف هذا في وقته.

وكان هذا الطاعون أعظم من هذه الطواعين كلها وأفظعها، ولم يقع بالقاهرة ومصر بعد الطاعون العام الذي كان سنة تسع وأربعين وسبعمائة نظير هذا الطاعون، وخالف هذا الطاعون الطواعين الماضية في أمور كثيرة:

منها أنه وقع في الشتاء وارتفع في فصل الربيع، وكانت الطواعين تقع في فصل الربيع وترتفع في أوائل الصيف، وأشياء غير ذلك ذكرناها في محلها.

وفيهما توفي القاضي شرف الدين أبو الطيب محمد ابن القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله الغزي الأصل، المصري، في ليلة الأربعاء سابع عشر ربيع الأول، ودفن بالصحرَاء، ومات بغير الطاعون، ومولده في ليلة السبت حادي عشرين ذي القعدة سنة سبع وتسعين وسبعمائة، ونشأ بالقاهرة واشتغل يسيراً وخدم الأمير ططر موقعاً عدة سنين، فلما تسلطن رشحه لنظر الجيش فلم يتم له ذلك، **وولي نظر الكسوة**، ونظر أوقاف الأشراف، ثم نظر دار الضرب إلى أن مات. وكان شاباً كريماً وفيه محبة لأهل العلم والفضل والصلاح، إلا أنه كان فيه حدة مزاج وبادرة مع تدين وتحشم.

وتوفي الأمير سيف الدين أزيك بن عبد الله المحمدي الظاهري برقوق الدوادر الكبير، بالقدس بطلاً، في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر ربيع الأول، وهو أحد المماليك الظاهرية برقوق وترقى إلى أن صار أميراً مائة ومقدم ألف بدمشق، ثم قبض عليه الملك المؤيد شيخ بعد واقعة نوروز وحبسه سنين، إلى أن أطلقه في أواخر دولته، وأنعم عليه بإقطاع هين بدمشق أمير عشرة.

فلما أن صار الأمر إلى الأمير ططر أنعم عليه بإمرة طبلخانة بديار مصر، ثم صار أميراً مائة ومقدم ألف، ثم رأس نوبة النوب بعد الأمير قصروه من تمرّاز في أوائل الدولة الأشرفية، ثم نقل إلى الدوادرية الكبرى بعد سودون من عبد الرحمن، لما نقل إلى نيابة دمشق بعد عصيان تنبك البجاسي، فدام في الدوادرية إلى أن اشيع عنه أنه يريد الوثوب على السلطان، ولم يكن لذلك صحة، فأخرجه السلطان إلى القدس بطلاً، ومسفره الأمير قراخجا الحسني رأس نوبة،

فدام بالقدس إلى أن مات.

الحملة المملوكية لفتح قبرص

اتخذ القبارصة من جزيرتهم مركزاً للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرقي البحر المتوسط وتهديد تجارة المسلمين، فقام "بطرس الأول لوزنجان" ملك قبرص بحملته الصليبية على **الإسكندرية** في سنة (٧٦٧هـ = ١٣٦٥م)، - انظر صفحة ١٥٣ من هذا الأطلس - وأحرق الحوانيت والخانات والفنادق، ودنس المساجد وعلق القبارصة عليها الصليبان، واغتصبوا النساء، وقتلوا الأطفال والشيوخ، ومكثوا بالمدينة ثلاثة أيام يعيثون فيها فساداً، ثم غادروها إلى جزيرتهم، وتكررت مثل هذه الحملة على **طرابلس الشام** في سنة (٧٩٦هـ = ١٣٩٣م).

وظلت غارات القبارصة لا تنقطع على الموانئ الإسلامية، ولم تقلح محاولات سلاطين المماليك في دفع هذا الخطر والقضاء عليه، وبلغ استهانة القبارصة بهيبة **دولة المماليك** واغترارهم بقوتهم أن اعتدى بعض قراصنتهم على سفينة مصرية سنة (٨٢٦هـ = ١٤٢٣م)، وأسروا من فيها، ولم تقلح محاولات **السلطان برسباي** في عقد معاهدة مع "جانوس" ملك قبرص، تضمن عدم التعدي على تجار المسلمين.

وتمادى القبارصة في غرورهم، فاستولوا على سفينتين تجاريتين، قرب **ميناء دمياط**، وأسروا من فيهما، وكانوا يزيدون على مائة رجل، ثم تجاوزوا ذلك فاستولوا على سفينة محملة بالهدايا كان قد أرسلها السلطان برسباي إلى السلطان العثماني "مراد الثاني"، عند ذلك لم يكن أمام برسباي سوى التحرك لدفع هذا الخطر، والرد على هذه الإهانات التي يواظب القبارصة على توجيهها لدولة المماليك، واشتعلت في نفسه نوازع الجهاد، والشعور بالمسؤولية، **فأعد ثلاث حملات لغزو قبرص**، وذلك في ثلاث سنوات متلاحقة.

صلح قبرص في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه

اتجه الأسطول الإسلامي في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - من سواحل بلاد الشام، بقيادة عبد الله بن قيس إلى **قبرص**، وسار إليها أيضاً أسطول إسلامي آخر من مصر؛ بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فانتزعها المسلمون عام ٢٨هـ من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني. وقد صالح أهل قبرص المسلمين على :

- ١- ألا يقوموا بغزو المسلمين .
- ٢- وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم.
- ٣- أن يدفع القبارصة جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة .
- ٤- أن يختار المسلمون بطريقاً لقبرص .



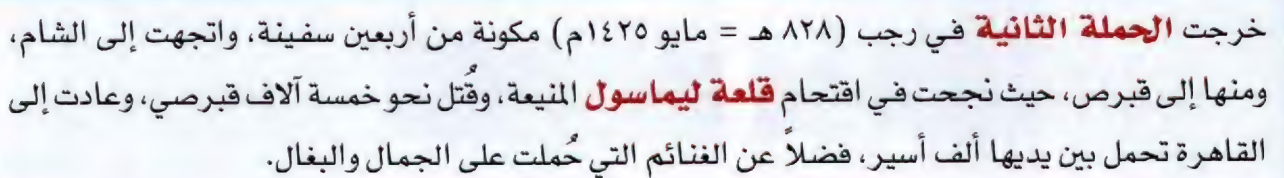
خرجت الحملة الأولى في سنة (٨٢٧ هـ = ١٤٢٤ م)، وكانت حملة صغيرة نزلت قبرص، وهاجمت ميناء "ليماسول"، وأحرقت ثلاث سفن قبرصية كانت تستعد للقرصنة، وغنموا غنائم كثيرة، ثم عادت الحملة إلى مصر سالمة.

موقع جزيرة قبرص الجغرافي



قبرص Cyprus جزيرة تقع في الجزء الشرقي من البحر المتوسط، وهي ثالث أكبر جزيرة من جزر البحر المتوسط بعد صقلية وسردينيا، إذ تبلغ مساحتها نحو ٩٢٨٠ كم^٢، ولاتبعد جزيرة قبرص عن تركيا سوى ٧٠ كم، وهي المسافة الفاصلة بين رأس كورماكي تي القبرصي الشمالي، ورأس أنامور التركي الجنوبي، ولكنها تبعد عن سورية ١١٠ كم، وهي المسافة الفاصلة بين ساحل اللاذقية ورأس سانت أندرياس القبرصي الشرقي.

والجزيرة ذات شكل غير منتظم، لكثرة الخلجان (خليج مورفو، خليج خريسوخو، خليج إبيسكوبي، خليج أكروتيري، خليج لارنكا، وخليج فاماغوستا) والرؤوس (رأس سانت أندرياس، رأس كورماكي تي، رأس بافوس، رأس غاتا، ورأس غريكو وغيرها). يبلغ طول الجزيرة الأعظمي من الغرب إلى الشرق نحو ٢٢٦ كم، واتساعها الأعظمي من الشمال إلى الجنوب نحو ٩٦ كم. وحيث يزيد معدل اتساعها على ٦٤ كم في الجزء الأكبر من امتدادها إلى الغرب من خط طول ٣٣°٥٠؛ فإنها تضيق شرقي هذا الخط مباشرة إلى أقل من ١٦ كم متخذة شكل لسان بمنزلة شبه جزيرة كارباس، ممتدة باتجاه الشمال الشرقي بطول ٧٤ كم تقريباً؛ لتنتهي في رأس سانت أندرياس.





لقطات متعددة لقلعة ليماسول القبرصية المحصنة التي اقتحمها المسلمون



استهدف السلطان المملوكي «برسباي» في الحملة الثالثة فتح صقلية وإخضاعها لسلطانه، فأعد حملة أعظم من سابقتها وأكثر عدداً وعُدّة، فأبحرت مائة وثمانون سفينة من رشيد في (٨٢٩ هـ = ١٤٢٦ م)، واتجهت إلى ليماسول، فلم تلبث أن استسلمت للقوات المصرية في (٢٦ شعبان ٨٢٩ هـ = ٢ يوليو ١٤٢٦ م)، وتحركت الحملة شمالاً في جزيرة قبرص، وحاول ملك الجزيرة أن يدفع القوات المصرية، لكنه فشل وسقط أسيراً، واستولت القوات المصرية على العاصمة «نيقوسيا»، وبذا دخلت الجزيرة في طاعة دولة المماليك.

اقتحام القوات المملوكية جزيرة قبرص في الحملة الثالثة

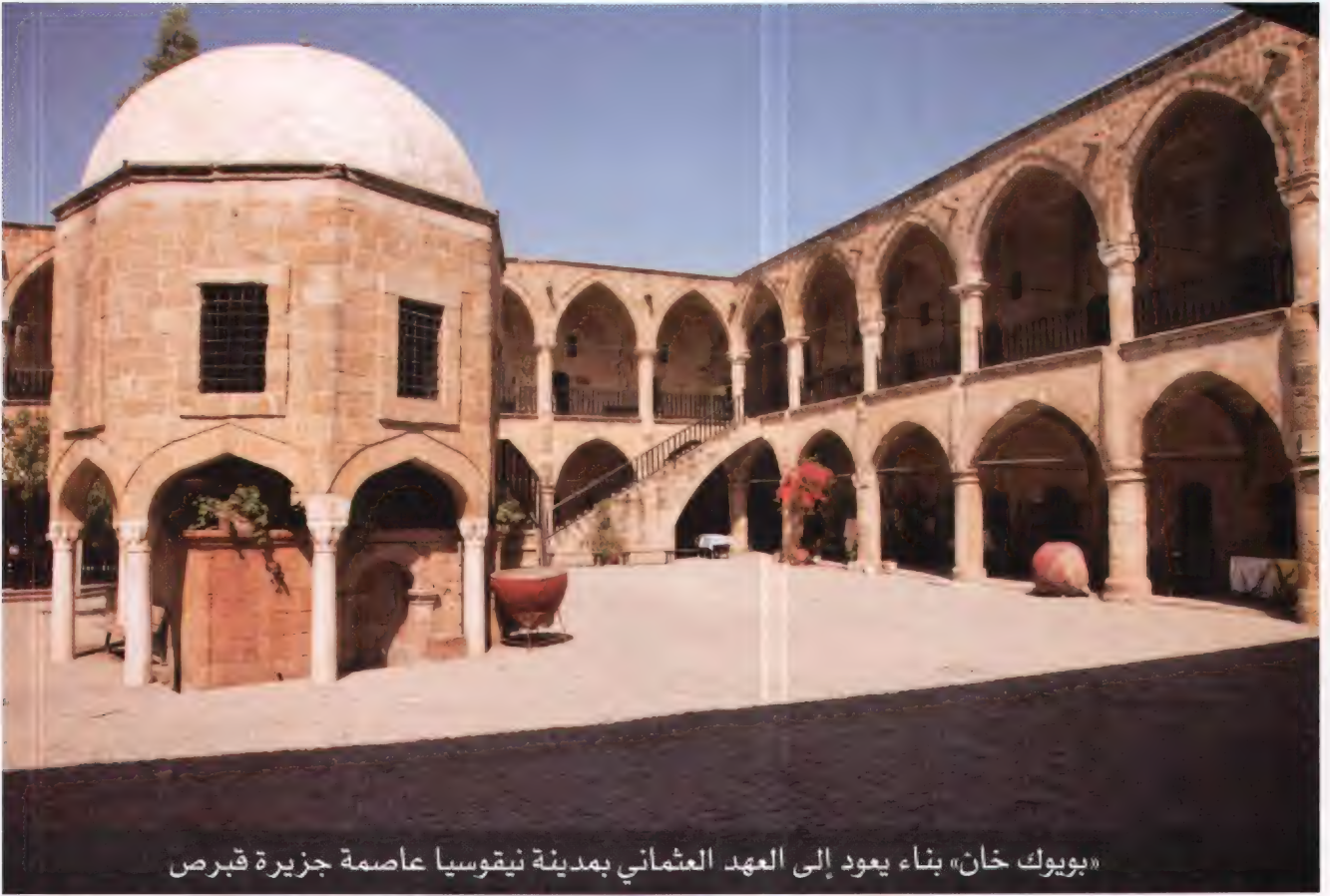
بعد أن سيطر المماليك على الجزيرة كلها ووقع ملكها في الأسر. سيق إلى مصر حيث افتُدي بمئتي ألف دينار، على أن يقبل بالخضوع للسلطان المملوكي وأن يدفع جزية سنوية (عشرين ألف دينار)، واستمر الأمر على ذلك إلى ما بعد وفاة الأشرف برسبائي. وخشي صاحب رودس أن يحل به ما حل بملك قبرص فبعث يقدم فروض الطاعة ويقبل أن يكون نائباً للسلطان في جزيرته.



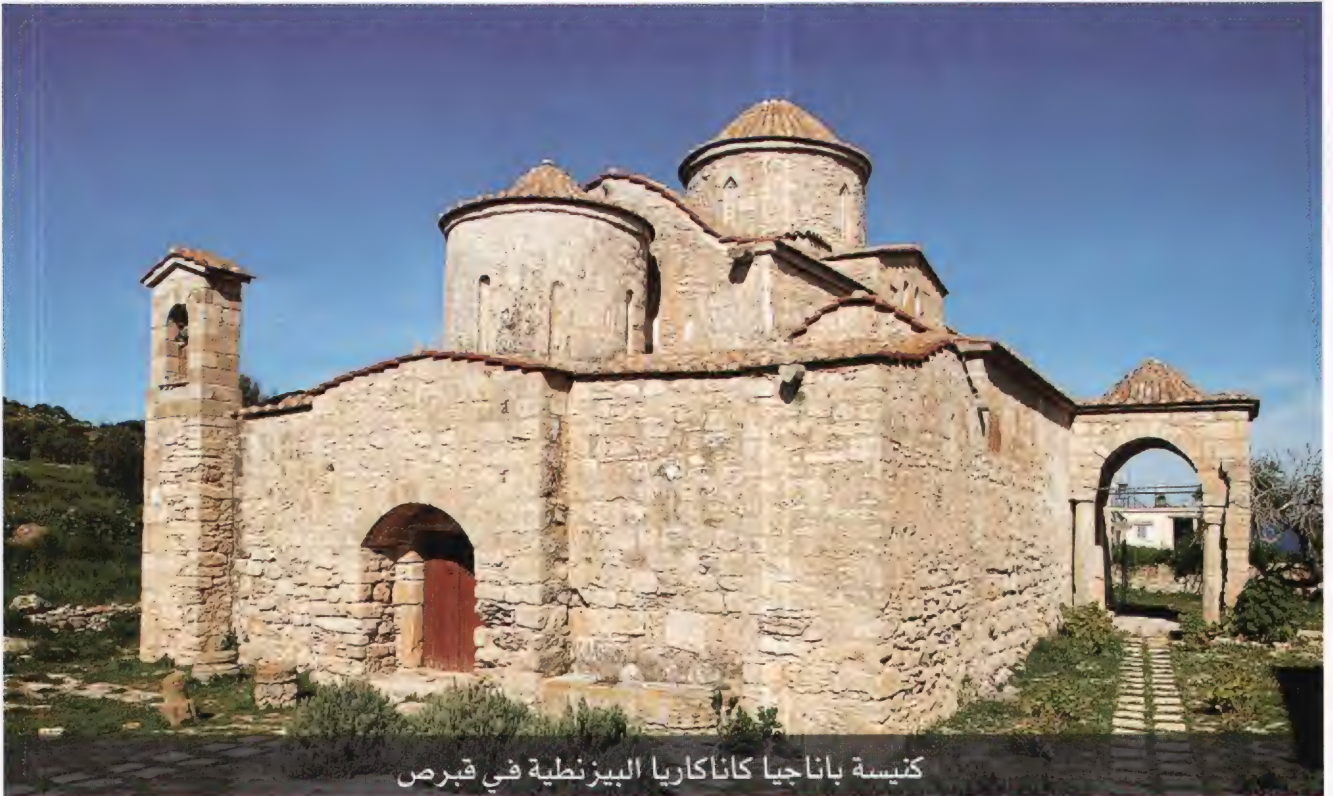
احتفلت **القاهرة** العاصمة المملوكية برجوع الحملة الظافرة التي تحمل أكاليل النصر، وشقّت الحملة شوارع القاهرة التي احتشد أهلها لاستقبال الأبطال في (٨ شوال ٨٢٩ هـ = ١٤ أغسطس ١٤٢٦ م)، وكانت جموع الأسرى البالغة ٢٧٠٠ أسير تسير خلف الموكب، وكان من بينها **الملك جانوس وأمرأؤه**. استقبل السلطان المملوكي (برسبائي) بالقلعة ملك قبرص، وكان بحضرته وفود من أماكن مختلفة، مثل: شريف مكة، ورسول من آل عثمان، وملك تونس، وبعض أمراء التركمان، **فقبل جانوس الأرض بين يدي برسبائي**، واستعطفه في أن يطلق سراحه، فوافق السلطان على أن يدفع مائتي ألف دينار فدية، مع التعهد بأن تظل قبرص تابعة لسلطان المماليك، وأن يكون هو نائباً عنه في حكمها، وأن يدفع جزية سنوية، واستمرت جزيرة قبرص منذ ذلك الوقت تابعة لمصر، حتى سنة (٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م) التي سقطت فيها دولة المماليك على يد السلطان العثماني "سليم الأول".



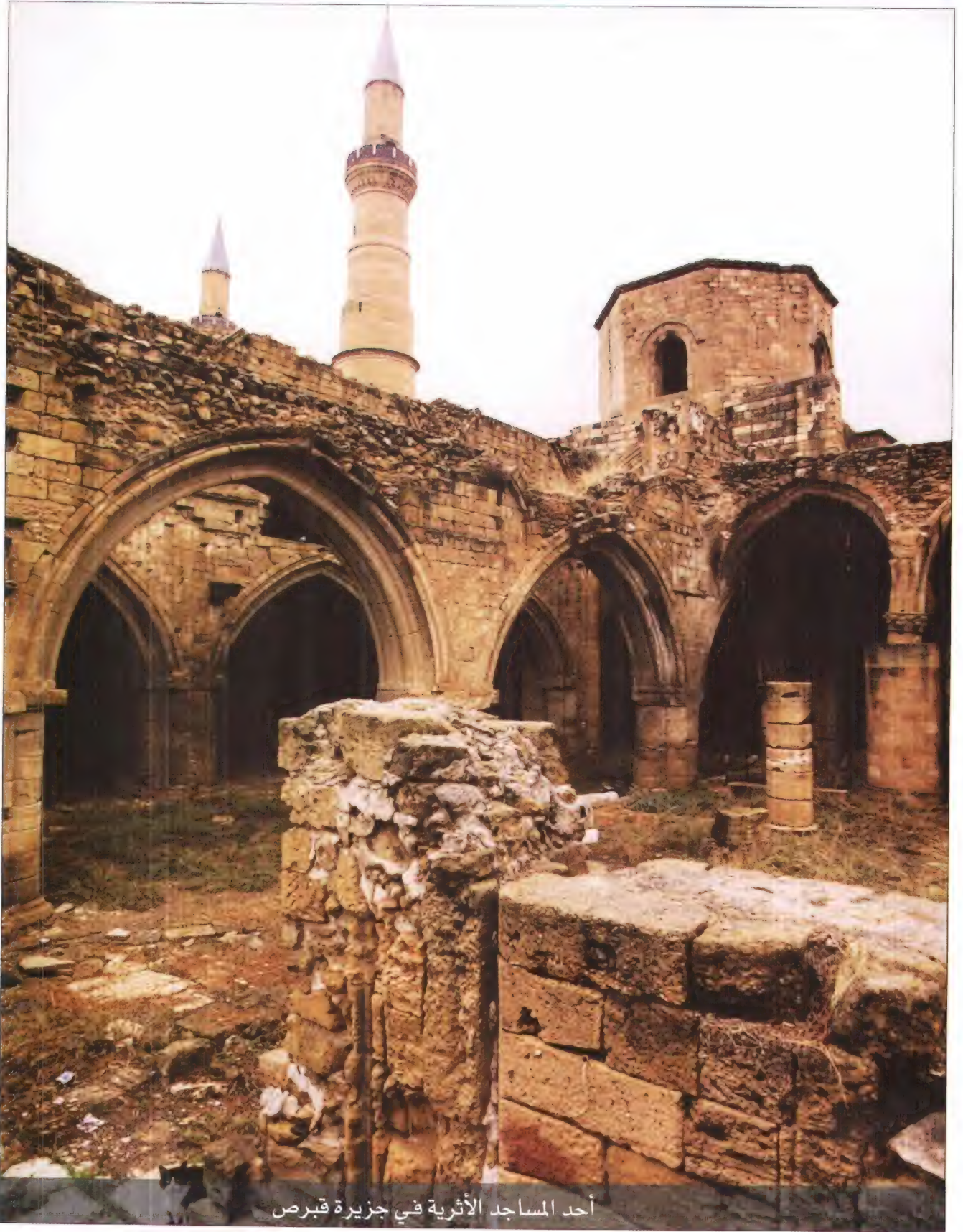
دينار مملوكي يعود إلى عهد السلطان الأشرف برسبائي



«بويوك خان» بناء يعود إلى العهد العثماني بمدينة نيقوسيا عاصمة جزيرة قبرص



كنيسة باناجيا كاناكاريا البيزنطية في قبرص



أحد المساجد الأثرية في جزيرة قبرص

جامع الأشرف برسباي بالخانكة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م



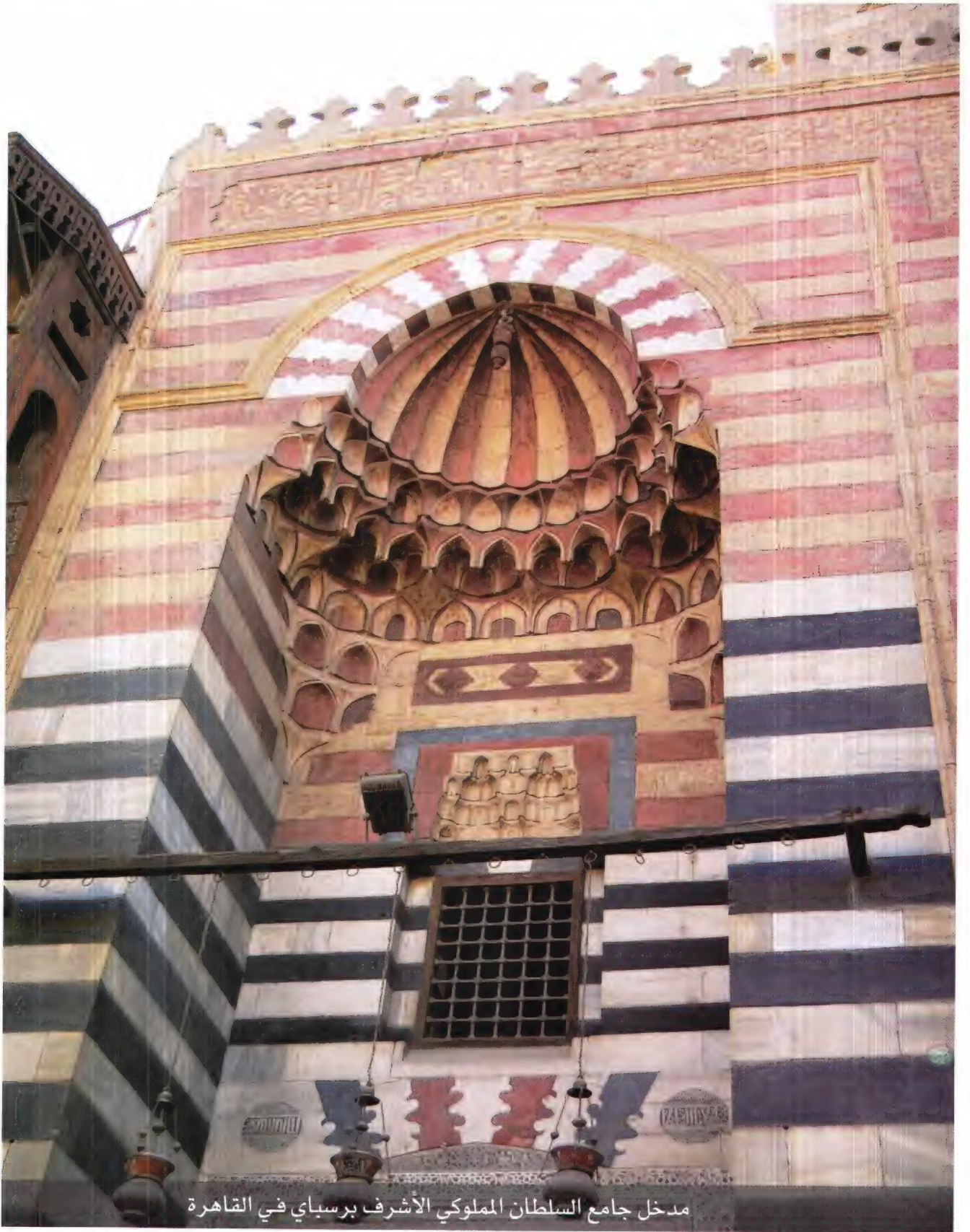
الوجهة الرئيسية
لوحة ١١٧
جامع الأشرف برسباي
(الخانكة)
(١٤٣٧ م / ٨٤١ هـ)
Plate 117
THE MOSQUE OF AL-ASHRAF BARSBAY
(Khanka)

جامع السلطان الأشرف برسباي من أهم المعماريات في العصر المملوكي، كما هو من أهم رموز مدينة الخانكة الحالية.

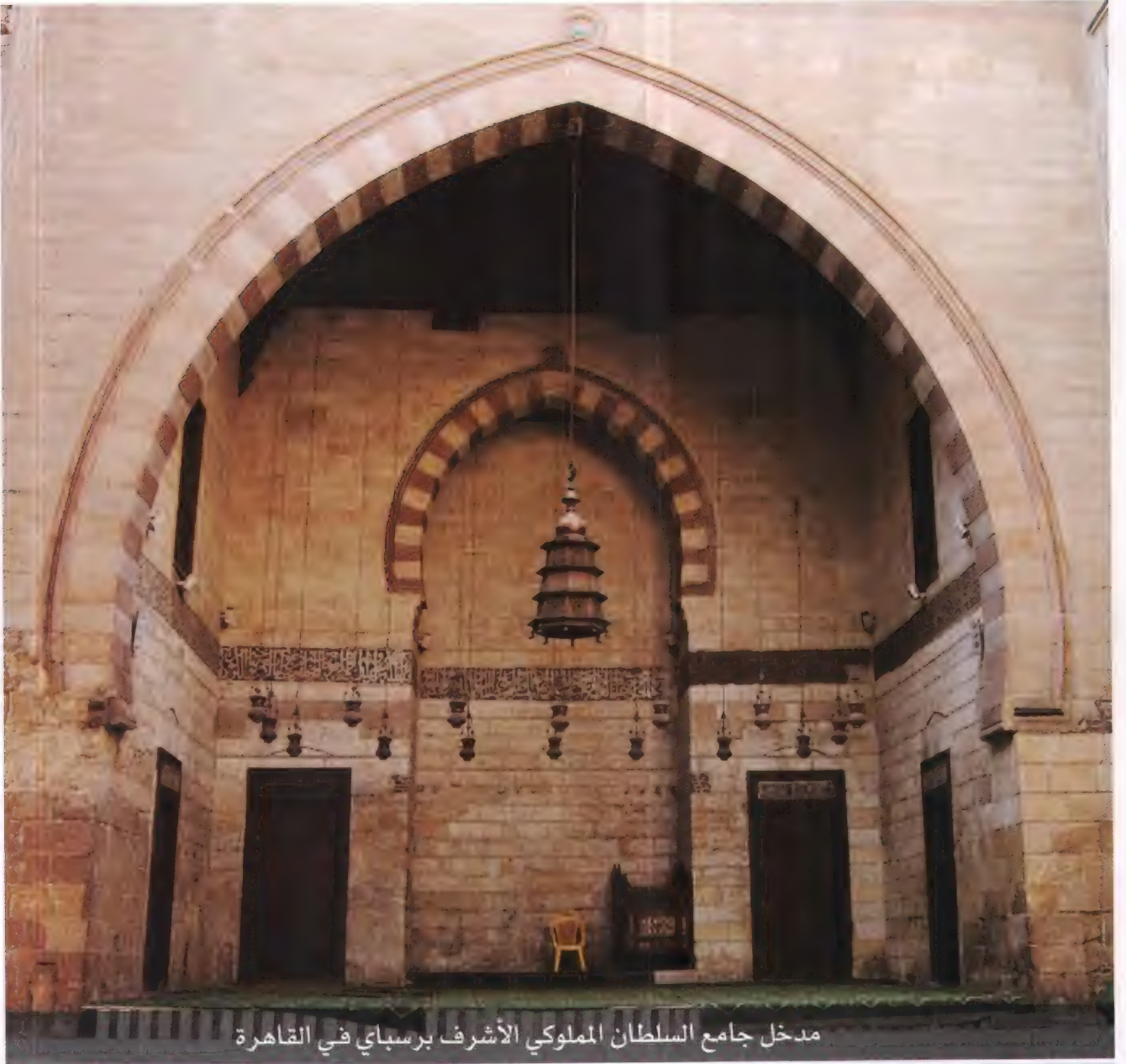
وهذا الجامع هو ثالث المساجد التي أنشأها السلطان المملوكي الأشرف برسباي، شيده ببلدة الخانكة التي تقع شمالي القاهرة، وعلى بعد ٢٢ كم منها تقريباً. وكان الفراغ من بنائه سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م.

وهو جامع فسيح يتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة؛ أكبرها رواق القبلة الذي يشتمل على ثلاثة صفوف من العقود المحمولة على أعمدة رخامية، ويتكون كل من الرواقين الجانبيين من صفين كما يتكون رواق المؤخرة من صف واحد، هذا ويغطي رواق القبلة سقف من الخشب على شكل مربعات، وطبال منقوشة، ويكسو الجزء السفلي من حوائطه وزرة من الرخام الملون، يتوسطها محراب رخامي يقوم إلى جواره منبر من الخشب طعمت حشواته بالنسج.

والوجهة الرئيسية تشرف على الطريق العام وبها المدخل الذي تغطيه مقرنصات جميلة، ويحلى صدره أشربة من الرخام الأبيض والأسود بأعلاها طراز مكتوب به تاريخ الفراغ من عمارة هذا الجامع سنة ٨٤١ هـ، وإلى يمين المدخل سبيل يعلوه كتاب، وإلى يساره تقوم مئذنة مكونة من ثلاث طبقات مماثلة لمئذنة مسجده بشارع المعز لدين الله العبيدي، وللجامع ثلاث جهات أخرى بمنتصف الوجهة الغربية، منها مدخل آخر، وكان لهذا الجامع دورة مياه منفصلة عنه لازالت محتفظة بمعالم تخطيطها القديم. وقد تداركت إدارة حفظ الآثار العربية بجمهورية مصر العربية هذا الجامع وهو في حالة تصدع شديد، فقامت بترميمه وإصلاحه إصلاحاً شاملاً بحيث أصبح كما هو الآن (انظر الصور بعد الإصلاحات).



مدخل جامع السلطان المملوكي الأشرف برسباي في القاهرة

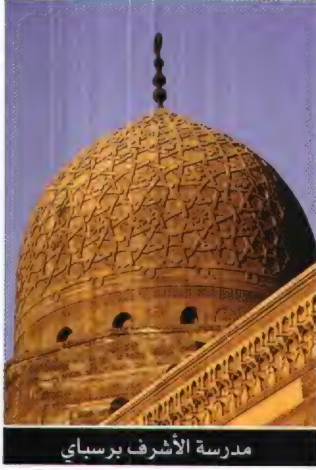


مدخل جامع السلطان المملوكي الأشرف برسباي في القاهرة

أئمة جامع الأشرف برسباي:

تولى مشيخة الجامع الأشرف العديد من العلماء منذ تشييده في عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي، حيث خطب فيه العلماء الذين ذاع صيتهم خلال مدة حكم السلطان الأشرف برسباي، مثل: المؤرخ الشيخ تقي الدين أحمد المقرئ (ت ٨٤٥ هـ)، والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، فضلاً عن الإمام العلم جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) الذي تولى مشيخة الخانقاة لحقبة طويلة. بعد ذلك تعاقب العديد من الأئمة على مشيخة هذا المسجد. ولا زال الجامع -بفضل من الله تعالى- حتى يومنا هذا يحظى برموز العلم الديني في جمهورية مصر العربية.

مجمع أو مدرسة الأشرف برسباي:



مدرسة الأشرف برسباي

اسم المنشئ: السلطان الملك الأشرف برسباي الدقماقي الظاهري.
تاريخ الإنشاء: سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م، وتم الانتهاء منه سنة ٨٣٥ هـ.
الموقع: تقع المدرسة بقصبة شارع المعز لدين الله العبيدي في قلب القاهرة، وتجاورت فيه مع العديد من المدارس الإسلامية الأخرى، مثل: المدرسة المنصورية، ومجموعة النحاسين، ومجموعة الغوري، واتخذت مدرسة «الأشرف برسباي» موقعاً متوسطاً ومتميزاً بينها، بالإضافة لذلك فإن الموقع شاهد على شق شارع جوهر القائد - الموسكي - في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي، والذي مر على أنقاض جزء منها.

أهمية المدرسة: تعد مدرسة الأشرفية من أعظم المدارس المملوكية، فهي تعبر عن عصر من أبهى عصور الإسلام، وهو عصر السلاطين المماليك البرجية، الذي شهد مجداً ورخاء غير مسبوقين، والمبنى عبارة عن منشأة خيرية عظيمة، فهي أنشئت لتضم العديد من الوظائف بين طياتها، فيها السبيل لسقاية المارة وابن السبيل، يعلوها الكتاب لتعليم الأيتام من الأطفال ليتعلموا القراءة والكتابة وحفظ كتاب الله، هذا بالإضافة إلى كسوتهم وإعطائهم منحة مالية تكفيهم السؤال، وتحثهم على دوام الحضور، بالإضافة للمدرسة التي تعلم الدين الإسلامي. وكان يؤمن للدارسين والمدرسين الإقامة والطعام مع إعطائهم مرتباً مالياً شهرياً، وهذا كله يقع ضمن إطار كفالة نظام الوقف الذي وفده الواقف من خلال أراض زراعية ومنشآت خيرية للصرف على هذه المنشأة.

تاريخ المدرسة: للمدرسة قيمة كبيرة، فلقد تزامن انشاؤها مع فتح جزيرة قبرص على يد منشئها «الأشرف برسباي»، وتم قراءة كتاب النصر والفتح بها. وأراد «الأشرف برسباي» وضع علامة بارزة من علامات العمارة الإسلامية تخليداً لفتح الجزيرة، فأقام منشأة عظيمة لم يبخل عليها من جمع كلاسيكيات الفن المملوكي بها.

العمارة: تم تخطيط المدرسة على النظام السائد في العصر الذي يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به أربع إيوانات، أكبرها إيوان القبلة، كما تضم قبة ضريحية، وسبيلاً وكتاباً، وسكناً لشيخ المدرسة بالإضافة للخدمات والمرافق والخلوي. وللمدرسة مئذنة تعلو المدخل تتكون من بدن مربع، بنهايته حطات من المقرنصات تحمل الشرفة الأولى التي تلتف حول البدن المستدير المزخرف بميممات متقاطعة، وبنهاية هذا البدن حطات من المقرنصات تحمل الشرفة الثانية التي تلتف حول الجوسق الذي تعلوه قمة على هيئة القبة البصلية يتوجها هلال. دينا وادي، جريدة الشرق الأوسط، العدد ٩٦٧٩.

بعد أن قضى السلطان الأشرف برسباي في الحكم نحو سبعة عشر عاماً، توفي في (ذي الحجة ٨٤١ هـ = مايو ١٤٣٧ م)، بعد أن ارتبط اسمه بالجهاد ضد الصليبيين، وأضاف إلى دولته جزيرة قبرص، وهو ما أضفى على سلطنته رونقاً وشهرة. وكانت **وفاة الملك الأشرف برسباي** بعلّة المرض الذي طال أمده وأعجز الأطباء عن علاجه. حيث أوصى بولاية العهد لابنه **الملك العزيز يوسف**، ودفن بمقبرته إلى جانب المدرسة التي عمرها في صحراء الجيزة، وخلف أموالاً وتحفاً وخيولاً وسلاحاً، وعمر غالب القرى في قبلي مصر وبحريها؛ بعد أن أصابها الخراب في أيام الناصر فرج والمؤيد شيخ لكثرة الفتن، كما أنشأ المدارس في مصر، والسبيل وصهرج الماء في الجامع الأزهر، وحفر الكثير من الآبار على طريق الحج من مصر والشام إلى الحجاز.

أبرز الدول التي عاصرت المماليك البرجية (الشراكسة)

القرافونلو (دولة الخروف الأسود)
٨١٣ - ٨٧١ هـ / ١٤١٠ - ١٤٦٧ م .

نشأت هذه الإمارة قبل ظهور إمارة الآق قوينلو بنحو نصف قرن، وجذورهما واحدة. سكن أفرادها البلاد الواقعة شمالي بحيرة وان، واستقرت أملاكهم في بعض جهات أرمينيا، وأذربيجان، واتخذوا تبريز عاصمة لهم.

أسس هذه الإمارة قرا محمد يوسف. وأشهر أمرائها ابنه قرا يوسف. ت ٨٢٣ هـ، الذي ضم أذربيجان إلى أملاك الإمارة. وكانت له اصطدامات مع الآق قوينلو في منطقة ديار بكر، كما هزم أحمد الجلائري وضم العراق، وتوسع في ناحية الغرب حتى قارب حلب. وكان لجوء هذا الزعيم التركماني إلى بلاد العثمانيين أحد الأسباب التي حملت تيمورلنك على محاربة السلطان العثماني بايزيد.

كانت علاقتها مع الدولة المملوكية أقرب إلى الصداقة منها إلى العداء، بل إنهم وقفوا معهم في أثناء غزو تيمورلنك لبلاد الآق قوينلو.

سميت بالخروف الأسود لوضعها رسم خروف ذي لون أسود على علمها.

الآق قوينلو (دولة الخروف الأبيض)
٨٧١ - ٩١٣ هـ / ١٤٦٧ - ١٥٠٨ م .

قبيلة القطيع الأبيض، أسرة تركمانية وفدت من أواسط آسيا نتيجة غزوات المغول على بلاد خوارزم، واستقرت في ديار بكر، واتخذت في بادئ الأمر مدينة **آمد** عاصمة لها.

مؤسس هذه الأسرة هو بها الدين قرا عثمان البيندري، ولقب قراييك. تعاون مع تيمورلنك في أثناء غزوه لمناطق غربي آسيا، وقد منحه أرضاً في أرمينيا ومنطقة الفرات الأعلى، كما نصّبه حاكماً على **سيواس** بعد أن استولى على أملاك القاضي برهان الدين أحمد.

توسعت الإمارة بعد ذلك على يد أميرها أوزون (حسن الطويل) ت ٨٨٢ هـ، وبحكم موقعها على حدود الدولتين المملوكية والعثمانية، فقد أقامت علاقات معهما تراوحت بين العدائية والسلمية، إلا أن العلاقات العدائية مع الدولة المملوكية كانت الغالبة.

سميت بالخروف الأبيض لوضعها رسم خروف ذي لون أبيض على علمها.

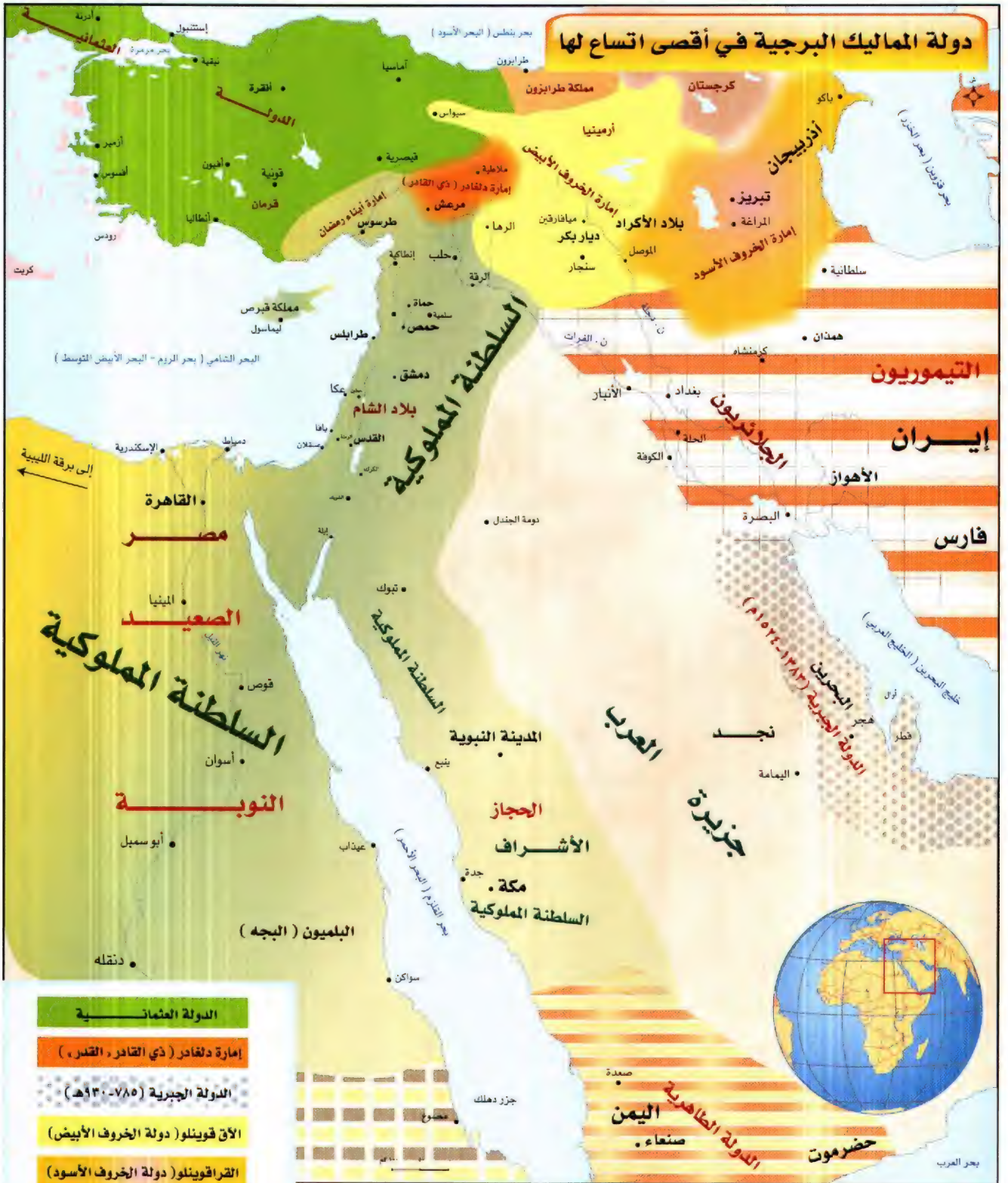
الدولة الجلائرية: ٧٢٧ - ٨١٤ هـ / ١٣٢٧ - ١٤١١ م .

الجلائريون أو الجلاييون -نسبة إلى قبيلة جلائر Jalayir المغولية- وهم سلالة حاكمة بسطت سلطتها على العراق وأذربيجان وخوزستان، منذ منتصف القرن الثامن الهجري / منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. عندما بدأت الدولة الإيلخانية بالتداعي فالتسقوط.

اتخذت قبيلة جلائر من محيط مدينة «خجند»، الواقعة على ساحل سيحون مستقراً لها.

كان للجلائريين علاقات مع أكثر الدويلات التي نشأت في إيران بعد سقوط الدولة الإيلخانية. وكانت هذه العلاقات في الغالب علاقات عدائية تحكمها فيها رغبة كل دولة منها في القضاء على الأخريات أو توسيع أملاكها على حساب هذه الدويلات.

إضافة لهذه العلاقات العدائية، كانت للجلائريين علاقات مع تركمان الشاة السوداء الذين كانت منازلهم حول بحيرة وان (أقصى الحدود الشرقية لتركيا)، وقد حاول هؤلاء بعد سقوط الدولة الإيلخانية أن يوسعوا مساحة المناطق الخاضعة لنفوذهم باتجاه الجنوب نحو أملاك الجلائريين في أذربيجان والعراق، فاستولوا على الموصل سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م، أما عن علاقة الجلائريين بالدولة المملوكية فإن حسن الكبير عمل على الاستفادة من موقف العداء التقليدي الذي كانت تقفه الدولة المملوكية من الإيلخانيين الذين كانوا قد استولوا على بغداد وقضوا على الخلافة العباسية.



الظاهر سيف الدين جقمق العلائي ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٧ - ١٤٥٣ م

هو الظاهر سيف الدين جقمق^(١) الرابع والثلاثون من ملوك الترك، والعاشر من ملوك الشراكسة. اشتراه (الأشرف سيف الدين إينال العلائي)، وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق، فأعتقه واستخدمه. حبس في أيام الملك الناصر فرج، ثم أطلق وولي أعمال في دولتي الملك المؤيد شيخ، والظاهر ططر، إلى أن كان (أتابك) العساكر في دولة الأشرف برسباي. ولما مات الأشرف وولي ابنه العزيز يوسف استمر جقمق أتابكاً ومدبراً للدولة. وقام بعض المماليك فخلعوا العزيز، وولوه السلطنة، فانظم له الأمر إلى أن توفي بالقاهرة.

كان وقتئذ أتابكاً للسلطنة وعمره ٦٩ عاماً. استهل حكمه بالقضاء على الثورات الداخلية في السلطنة **كثورة حلب** وثورة الأمير قرقيش، فاستتب له الأمر في الحكم دون اضطرابات داخلية.

حسن علاقاته مع الممالك الإسلامية المجاورة، فسمح لشاه رخ بكسوة الكعبة المشرفة من الداخل مما سبب غضباً شعبياً عاماً، جعله يتراجع عن ذلك فيما بعد. كما تزوج إحدى أميرات آل عثمان، واحتفل بفتحهم لمدينة القسطنطينية (الفتح العظيم) سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م.

حاول إخضاع وفتح **جزيرة رودس** التي أصبحت قاعدة **للفرسان الأستباريين الصليبيين** بعد إخضاع جزيرة قبرص في عهد السلطان برسباي سنة ١٤٢٦ م. وقد سير إلى الجزيرة **ثلاث حملات بحرية**، حيث فشلت **الحملة الأولى عام ١٤٤٠ م**، وفشلت **الحملة الثانية في عام ١٤٤٣ م**، ونجحت **الحملة الثالثة بدخول الجزيرة وتدمير مدنها وإيقاع الخسائر الفادحة بين الفرسان الأستباريين؛ مما أرغمهم على اللجوء لطلب عقد الصلح، فقبل السلطان جقمق ذلك وعادت جيوشه إلى مصر.**

كان الظاهر جقمق ملكاً عظيماً جليلاً، ديناً متواضعاً، كريماً هدأت البلاد في أيامه من الفتن، وكان فصيحاً بالعربية، متفقهاً، له مسائل في الفقه يرجع إليه فيها، وكانت فيه حدة وأذى بعض العلماء. قيل: إنه توفي ولم يقتل. وقيل: قتل في القلعة عام ٨٥٤ هـ ودفن بتربته في المدرسة الجقمقية إلى جوار باب الجامع الأموي الشمالي. وقيل: اشتد المرض على السلطان جقمق سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م، فتنازل عن العرش لابنه فخر الدين عثمان، وتوفي في ليلة الثلاثاء ٣ صفر ٨٥٧ هـ بعد حكم دام ١٤ عاماً وعشرة أشهر.

١- مخطوطة كتاب (أعلام الشراكسة - الجزء الثاني)، فيصل حبوط خوت أبزاخ، عمان - الأردن - ٢٠٠٨ م.



رودس : هي جزيرة يونانية. تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، في منتصف المسافة بين جزر اليونان الرئيسة وقبرص. وهي من أبعد الجزر الشرقية بالنسبة لليونان وبحر إيجه. تبعد عن غربي تركيا بحوالي ١٨ كم. في سنة ٢٠٠١ بلغ عدد سكانها ١١٧,٧٩٢ نسمة، منهم ٥٥ إلى ٦٠ ألف يعيشون في مدينة رودس. يقدر عدد المسلمين ب ٣٥٠٠ مسلم.



قال ابن كثير عن فتح رودس: "ثم دخلت سنة ثلاث - أي ٥٢ هـ - وفيها افتتح المسلمون - وعليهم جنادة بن أبي أمية - جزيرة رودس، فأقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شيء على الكفار، يعترضون لهم في البحر ويقطعون سبيلهم، وكان معاوية يدر عليهم الأرزاق والأعطيات الجزيلة، وكانوا على حذر شديد من الفرنج، يبيتون في حصن عظيم عنده فيه حوائجهم ودوابهم وحواصلهم، ولهم نواطير على البحر ينذرونهم إن قدم عدو أو كادهم أحد، وما زالوا كذلك حتى كانت إمرة يزيد بن معاوية بعد أبيه، فحولهم من تلك الجزيرة، وقد كانت للمسلمين بها أموال كثيرة وزراعات غزيرة". يقول البلاذري عن جنادة بن أبي أمية: "وجنادة أحد من روي عنه الحديث، ولقي أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل، ومات في سنة ثمانين".

جزيرة رودس اليونانية من الفضاء الخارجي

فرسان الأستارية

فرسان الأستارية (أو فرسان القديس يوحنا) فرقة عسكرية صليبية أو جماعة دينية صليبية محاربة ساهمت بشكل بارز في الحروب الصليبية، **أقامت بجزيرة رودس.**

نشأت في جزيرة مالطة، وعرفت باسم فرسان القديس يوحنا الأورشليمي، وقد انبثقت عن الجماعة الأم الكبيرة والمشهورة باسم فرسان المعبد التي كان لها شهرة أيام الحروب الصليبية وهي غير منظمة مالطة. ذات سيادة التي تأسست كهيئة خيرية من قبل بعض التجار الإيطاليين عام ١٠٥٠م لرعاية النصارى في الأراضي المقدسة^(١). فتم في تلك الحقبة إنشاء مستشفى القديس يوحنا في القدس لهذه الغاية إضافة إلى دير ومدرسة. وكان الفرسان دائمي الإغارة على سواحل المسلمين؛ خاصة سواحل ليبيا وتونس لقربهما من مالطة، ولقد احتل فرسان مالطة منطقة برقة سنة ٩١٦هـ، **غير أن المماليك لم يلبثوا أن أخرجوهم منها**، وفي نفس السنة احتلت قوة إسبانية مدينة طرابلس الليبية بقيادة ترونافار وقتل خمسة آلاف مسلم، وأسر ستة آلاف، وفر باقي سكان المدينة. وظلت طرابلس من سنة ٩١٦هـ حتى سنة ٩٣٦هـ تحت أسر الاحتلال الأسباني.

وبدأ ظهور فرسان مالطة عام ١٠٧٠م، كهيئة داعمة، أسسها بعض الإيطاليين، لرعاية مرضى النصارى، في مستشفى (قديس القديس يوحنا) قرب كنيسة القيامة ببيت المقدس في فلسطين، وظل هؤلاء يمارسون عملهم في ظل سيطرة الدولة الإسلامية، وقد أطلق عليهم اسم فرسان المستشفى أو **الأستارية باللغة الإيطالية Hospitaliers** تمييزاً لهم عن هيئات الفرسان التي كانت موجودة في القدس آنذاك، مثل: فرسان المعبد، و"الفرسان التيوتون" وغيرهم، إلا أنهم ساعدوا الغزو الصليبي فيما بعد.

وكان التزايد الكبير في أعداد الوافدين النصارى إلى مدينة القدس قد زاد في بداية القرن الحادي عشر لاتجاه بعض الإيطاليين للحصول على حق إدارة الكنيسة اللاتينية من حكام المدينة المسلمين، وكان يلحق بهذه الكنيسة مستشفى للمرضى والحجاج يسمى مستشفى "قديس القديس يوحنا" كذلك استطاع تجار مدينة "أما لفي" ١٠٧٠م تأسيس جمعية داعمة في بيمارستان قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس للعناية بالأجانب.

١ - تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للزاوي.



خريطة جزيرة (رودس) وهي من ضمن مجموعة رسومات خرائط العالم المثيرة للدهشة تعود لعامي ١٥١٣ و ١٥١٧م. قام برسمها العالم ورسام الخرائط والادmirال العثماني (ضابط الأسطول البحري) أحمد محيي الدين بيري، الذي عرف عالمياً باسمه الذي قام بتوقيع عدد من أعماله التي أدهشت العديد من حول العالم بها، وهو (بيري ريس Piri Reis)، أو كما تترجم في بعض المراجع "الرئيس بيري" وقد كان بيري مكلفاً من قبل السلطان العثماني سليم الأول الذي كان قائداً ومراقباً للفتوحات العثمانية آنذاك.

ومن اسم المستشفى أطلق عليهم اسم **فرسان الأستارية في اللغة العربية**، ولم يلبث أولئك الأستاريين أن دخلوا تحت لواء النظام الديري البندكتي المعروف في غربي أوروبا، وصاروا يتبعون بابا روما مباشرة بعد أن اعترف البابا باسكال الثاني بتنظيمهم رسمياً في ١٥ فبراير ١١١٣ م، وهكذا أصبح نظامهم يلقي مساندة من جهتين: تجار أمالفي، وحكام البروفانس في فرنسا.

وعندما قامت الحروب الصليبية الأولى ١٠٩٧ م، وتم الاستيلاء على القدس أنشأ رئيس المستشفى (جيرارد دي مارتيز) تنظيمًا منفصلاً أسماه "رهبان مستشفى قديس القدس يوحنا" وهؤلاء بحكم درايتهم بأحوال البلاد قدموا مساعدات قيمة للصليبيين؛ وخاصة بعد أن تحولوا إلى نظام فرسان عسكريين بفضل ريموند دي بوي (خليفة مارتينز)، الذي أعاد تشكيل التنظيم على أساس عسكري مسلح باركه البابا (نوست الثاني) ١١٣٠ م، حتى قيل: "إن الفضل في بقاء مدينة القدس في يد الصليبيين واستمرار الحيوية في الجيوش الصليبية يعود بالأساس إلى فرسان الأستارية بجانب فرسان المعبد، وقد كان تشكيل تنظيم الأستاريين ينقسم إلى ثلاث فئات:

فرسان العدل الذين هم من أصل نبيل (نبلاء)، وأصبحوا فرساناً.

القساوسة الذين يقومون على تلبية الاحتياجات الروحية للتنظيم.

إخوان الخدمة، وهم الذين ينفذون الأوامر الصادرة إليهم.

وهذا فضلاً عن الأعضاء الشرفيين ويسمون الجوادين الذين يساهمون بتقديم الأموال والأموال للتنظيم، وبفضل عوائد هذه الأملاك وكذلك الهبات والإعانات (عُشر دخل كنائس بيت المقدس كان مخصصاً لمساعدة فرسان القديس يوحنا)، أخذ نفوذ الفرسان ينمو ويتطور، حتى أصبحوا أشبه بكنيسة داخل الكنيسة.

بعد هزيمة الصليبيين في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م على يد صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - هرب الفرسان الصليبيون إلى البلاد الأوروبية. وبسقوط عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م، طُرد الصليبيون نهائياً من الشام، واتجهت هيئات الفرسان إلى نقل نشاطها إلى ميادين أخرى:

السيد الأكبر وكبار فرسان المستشفى في القرن ١٤ م. اتجه الفرسان التيوتون نحو شمالي أوروبا، حيث ركزوا نشاطهم الديني والسياسي قرب شواطئ البحر البلطيك.

نزع (الداوية) أو فرسان المعبد إلى بلدان جنوبي أوروبا وخاصة فرنسا، حيث قضى عليهم فيليب الرابع فيما بعد ١٣٠٧ - ١٣١٤ م.



مرتسم لجنود الأسبترية في العصور الوسطى

استهدف السلطان المملوكي (جقمق) **جزيرة رودس**، وحينما علم (لاستيك)، رئيس الفرسان بالمحادثات التي جرت العاهلين المملوكي والعثماني الخاصة بالجزيرة، فقام ليدفع هذا التحالف. فأجرى اتصالات عاجلة مع السلطان مراد الثاني، وعرض عليه تجديد المعاهدة القديمة بين العثمانيين والأسبترية، فرفض السلطان العثماني ذلك، فتحول عندئذ إلى السلطان المملوكي (جقمق)، فأراد أن يستوثق من جانبه، فأرسل مندوباً عنه إلى القاهرة ليوقف على استعداداته. وفعلاً علم هذا المندوب باستعدادات الممالك العسكرية، فأخذ يحصن الجزيرة، واستعد للمجابهة العسكرية. نقولا زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة

فرسان الأستبارية (المستشفى) الذين ظل وجودهم حتى اليوم، فقد اتجهوا في البداية إلى مدينة صور، ثم إلى المرج (في ليبيا حالياً)، ومنها إلى عكا ثم **ليماسول** في **قبرص** ١٢٩١م.

ومن قبرص استمر فرسان الأستبارية في مناوشة المسلمين عن طريق الرحلات البحرية ومارسوا أعمال القرصنة ضد سفن المسلمين، إلا أن المقام لم يطب لهم هناك، فعمد رئيسهم (وليم دي فاليت) للتخطيط **لاحتلال رودس وأخذها من العرب المسلمين** وهو ما قام به أخوه وخليفته (توك دي فاليت) في حرب صليبية خاصة (١٣٠٨ - ١٣١٠م) ليصبح اسم نظام الفرسان الجديد يسمى (النظام السيادي لروودس) أو (النظام السامي لفرسان رودس). وفي رودس أنشأ تنظيم الأستباريين مراكزه الرئيسية، وازدادت قوته ونفوذه خاصة بعد أن تم حل تنظيم فرسان المعبد، وآلت بعض ثرواته للأستباريين.

ولأن **أرض رودس** كانت بمثابة نقطة إستراتيجية مهمة، فقد عمد الأتراك المسلمون بدورهم للاستيلاء عليها، خصوصاً مع تزايد قرصنة الصليبيين لسفنهم، وذلك بعد حصار وضغط متواصلين (أهم حصارين ١٣١٠، ١٤٨٠م) مما أجبر رئيسهم فيليب ري ليل آدام على الاستسلام في ١٥٢٢م، والهجرة عن الجزيرة في أول يناير ١٥٢٣م بين عدة مدن منها: (سيفيل إسبانيا) و(كاندي سيلان) و(روما إيطاليا)، إلى أن منح الملك (شارك كنت) للأستباريين السيادة على جزيرة مالطا في ٢٤ مارس ١٥٣٠م، وبجانب سيادتهم على مالطا (بوثيقة شارك كنت) كانت لهم السيادة كذلك على عدة جزر صغيرة تابعة لمالطا مثل (دي جوزوا وكومين).



شواهد قبرية مكتوبة باللغة العربية نقشرة قديمة في جزيرة رودس



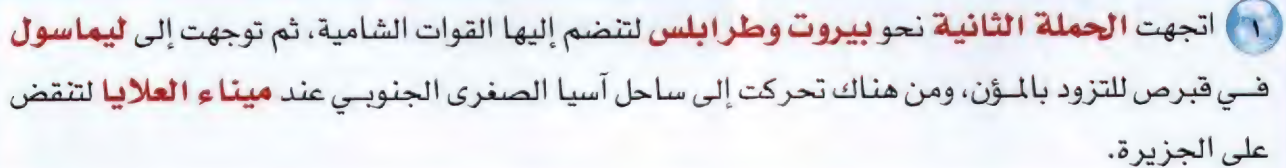
السيد الأكبر وكبار فرسان الأستبارية في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي

الحملة المملوكية الأولى على رودس سنة ٨٤٣ هـ = ١٤٤٠ م



وصلت الحملة الأولى إلى جزيرة رودس، وهناك وجد المسلمون أن الفرصات الأسبتيارية على أتم الاستعداد لمواجهة الهجوم. ودارت بين الطرفين معارك بحرية وبرية عدة انتهت بفشل الحملة في اقتحام الجزيرة، فانسحبوا في أثناء الليل عائدين إلى مصر، حيث كانت الحملة صغيرة، لم تستطع أن تقوم بعمل يسترعي الانتباه ومنيت ببعض الخسائر، مما دفع السلطان جقمق لإعداد حملة ثانية كبرى عهد بقيادتها إلى الأمير إينال العلائي.

١ تكونت الحملة الأولى من خمس عشرة سفينة حربية على متنها ١٠٠٠ محارب، بقيادة الأمير تغري برمش السلاح دار، ويونس المحمودي أمير آخور. خرجت الحملة من دمياط، واتجهت إلى قبرص للتموين بوصفها قاعدة مملوكية حيث قدّم لها الملك حنا الثاني المؤن والذخائر. ثم توجه الأسطول إلى جزيرة رودس.



الحملة المملوكية الثالثة على رودس سنة ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ م



١ اتجهت الحملة الثالثة نحو رودس مباشرة بقيادة إينال العلائي للقوات البرية، والأمير تمر باي قائداً للأسطول، وانضمت إليها قوات نيابات بلاد الشام حتى أضحى عدد أفرادها ١٥٠٠ رجل، دون أن تمر بقبرص وآسيا الصغرى، وتمكن المسلمون من إنزال قواتهم إلى البر، حيث جرى قتال عنيف، وحاصروا العاصمة.

الملك الأشرف قايتباي ٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م

هو السلطان **قايتباي الأشرف** المحمودي الظاهري أبو النصر سيف الدين، جركسي الأصل، جلبه إلى مصر التاجر محمود بن رستم سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م، فاشتره الأشرف برسباي، ثم انتقل ملكه إلى الظاهر جقمق، ولذلك يُنسب إلى الأشرف برسباي وإلى تاجره محمود وإلى الظاهر جقمق؛ فيقال: الأشرف في المحمودي الظاهري، ثم أعتقه الظاهر جقمق، واستخدمه في جيشه، فأخذ يترقى في المناصب حتى وصل إلى العرش، وصار سلطاناً لمصر عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م، ومن ثمّ فهو الحادي والأربعون من سلاطين المماليك في الديار المصرية، والخامس عشر من سلاطين دولة المماليك البرجية أو الجركسية^(١).

كانت مدّة حكمه عامرة بالأمور العظام والحروب، وقد واجه في بداية حكمه جملة من الصعوبات والعقبات، منها فرار السلطان السابق «تمر بغا» من سجنه بدمياط إلى بلاد الشام، ومنها إلى حلب، فعمل قايتباي على القبض عليه وإعادته إلى سجنه، ومنها خلو الخزائن من الأموال التي كان يحتاجها لإعداد جيشه لمواجهة الأخطار الخارجية، فتجاوز هذه المشكلة حتى وصل ما أنفقه على جيوشه ما يقارب سبعة ملايين وخمسمئة وستين ألف دينار، عدا ما كان ينفقه على الأمراء والجند عند عودتهم من جبهات القتال. ومن الأخطار التي واجهها قايتباي استيلاء سوار بن سليمان بن الناصر التركماني على أملاك الدولة في شمالي بلاد الشام والبلاد الحلبية، واستيلائه على قلعة إياس، فوجه إليه قايتباي جيوشاً عدة باءت بالإخفاق، إلى أن وجه إليه حملة كبيرة عام ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م، فهزمت سواراً وجنوده، واستعادت شمال البلاد الشامية والحلبية، وحُوصر سوار وجنوده في قلاعهم حتى استسلموا، فسيقوا إلى مصر، وهناك تمّ شنق سوار^(٢).

ومن تلك الأخطار إغارة ملك العراقيين حسن الطويل على أملاك الدولة في الشام، فساق إليه جيشاً قوياً بقيادة الأمير يشبك الدوادر، فهزمه، وتابع يشبك مسيره، وأحمد فتنة حدثت في حماة سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م، ثم سار إلى شرقي الفرات، ولكنه أصيب بهزيمة كبرى عند حصاره مدينة الرُّها، وقُتل أمامها هو وكثير من جنوده، وكادت البلاد الشامية والحلبية أن تفلت من يد مصر لولا أن تدارك قايتباي الخطر، وبعث بحملة جديدة بقيادة أذربك بن ططخ، فأعادت الأمن في تلك البلاد.

ولم يلبث قايتباي بعد ذلك أن واجه عدوًّا جديداً أخذ يطغى على أملاك الدولة، ويغير على أطرافها، وهذا العدو هو العثمانيون الذين لم يكتفوا بالعدوان على البلاد، بل قاموا بتحريض عليّ دولات أخي سوار على الثورة على السلطان، وعاونوه على ذلك، فحاربه السلطان، وسيّر إليه جنداً من مصر وحلب فهزموه

١ - ٢، عمار النهار، الموسوعة العربية، سوريا.

بعد موت "الظاهر جقمق" ازدادت تصرفات جنود المماليك سوءاً، وكثرت ثوراتهم مما أدى إلى ظهور نزاع اكتسب في هذه الفترة صفة جديدة غدا فيها السلطان أضعف من أن يحافظ على سلطته أو أن يمرعه دون ميزة تميزه، فحكم على هذا المنوال "المنصور عثمان بن جقمق" لمدة (٤٣ يوماً)، ثم تم عزله وتولى عرش السلطنة "أحمد بن إينال" (١٤٦١ م) حيث حكم لعدة أشهر، ثم استولى على الحكم "خشقدم" (٨٦٥-٨٧٢ هـ / ١٤٦١ - ١٤٦٧ م)، ثم حكم "بلياي" عدة أشهر، ثم "الظاهر تمرغا" (الثور الحديدي) لعدة أشهر، ثم "خير بك" الذي تسلم الحكم فقط ليلة واحدة، إلى أن وصل إلى الحكم "قاياباي" (٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م).

قال ابن تغري بردي واصفاً حال بعض سلاطين المماليك: «وهؤلاء آست في الماء وأنف في السماء، لا يهتدي أحدهم لمسك لجام الفرس، وإن تكلم تكلم بنفس، ليس لهم صناعة، إلا نهب البضاعة، يتقوون على الضعيف، ويشرّهون حتى في الرغيف، جهادهم الإخراق بالرئيس، وغزوهم في التبن والدريس، وحظهم منقام، ولا مروءة لهم والسلام. انتهى». النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، ص ٢٤٨.

مرتسم لجندي مصري من القرن الخامس عشر الميلادي بلباسه العسكري وهو مدمج بكامل أسلحته التقليدية.



شر هزيمة، وكانت هذه الحادثة هي بدء النزاع الذي وقع بين المماليك والعثمانيين، والذي نما في المستقبل حتى أفضى إلى السيطرة العثمانية^(١).

حارب السلطان قايتباي العثمانيين أكثر من مرة، وانتصر عليهم مرات عدّة، فمثلاً خرجت إليهم جيوشه عام ٨٩٣ هـ/١٤٨٧ م، بقيادة أزبك بك، وألحقت بهم هزيمة منكرة، وخرجت إليهم حملة أخرى عام ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م، فوصلت في زحفها إلى بلاد العثمانيين نفسها في آسيا الصغرى^(٢).

كان لقايتباي محاسن كثيرة، منها أعماله العمرانية في مختلف بقاع الدولة المملوكية، فقام ببناء المساجد والمدارس والربط والزوايا، وقام بتجديد كثير من هذه المؤسسات الدينية والعلمية وإصلاحها، واهتم أكثر ما اهتم بالأراضي المقدسة في الحجاز، فشيّد جامع الخيف في منى، وقام بإعمار مسجد نمرة في عرفة من جديد، وأعاد بناء الحرم النبوي الشريف عام ٨٨٦ هـ/١٤٨١ م، بعد أن شبت فيه النار، وأنشأ بمكة المكرمة مدرسة جليّة بجانب المسجد الحرام عند باب السلام، وبنى بجانبها رباطاً لطلبة العلم والفقراء، وأنشأ مدرسة بديعة في المدينة المنورة، وعمّر درجاً للمزدلفة، وأنشأ العديد من برك المياه هناك، وأعاد الحياة لعين عرفة بعد انقطاعها أكثر من قرن، وأجرى إليها المياه، كما قام بإصلاح بئر زمزم.

وبنى بمصر -وبالقاهرة تحديداً- عدداً من المساجد والمدارس والزوايا، وشيّد مدرسة بدمياط، وقام بإصلاح الجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص وجامع قايتباي وتجديدها، وبنى في بيت المقدس مدرسة، ومثلها في غزة، إضافة إلى رباط للمتصوفة. توفّي قايتباي، بعد أن اشتد عليه المرض، وبعد أن حكم البلاد تسعاً وعشرين سنة تقريباً^(٣).



منظر عام لمنى أيام
الحج، ويظهر مسجد
الخيف والذي أمر
بتشييده السلطان المملوكي
قايتباي في عهده، مصدر
الصورة (أنجلويشي)

ص ٤٤ .

١ - عمار النهار، الموسوعة العربية، سوريا.

٢ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

٣ - عمار النهار، الموسوعة العربية، سوريا.



مرتسم لجندي مملوكي من حلب يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي

السلطان الأشرف قايتباي والدول التركمانية

بدأت علاقة المماليك بالتركمان منذ عهد السلطان المؤيد شيخ حينما أغار على **تركمان تلك المناطق** ١٤١٨ - ١٤١٩ م، لكن زعيم إمارة الآق قوينلو (دولة الخروف الأبيض) **أوزون حسن**، أغار هو الآخر على حدود الدولة المملوكية، مما جعل برسباي يرسل حملة لتخريب **الرها** التابعة لحكم أوزون حسن سنة ١٤٢٠ م، وأدبت التركمان دون أن يكون لها الأمر الحاسم في المنطقة.

ومع ازدياد **تدخل العثمانيين** في هذه الدويلات التركمانية جعل بعضها تعاود التحرش بالحدود الشمالية لدولة المماليك. وحينما تولى **قايتباي** السلطنة، أعد حملة (٨٧٦-٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م) ووضع على رأسها الأمير **يشبك الدوادار** الذي اصطدم مع تركمان إمارة **دلفادر (ذو القادر)**، وتمكن من إنزال الهزيمة بشاه سوار، والاستيلاء على قلعة **عينتاب وأضنه وطرسوس**. والقبض على شاه سوار وإرساله إلى القاهرة، في حين أخذ الأمير يشبك الدوادار يعمل على تنظيم شؤون هذه الإمارة، فعين على **مرعش و البستان** أخاه شاه بداق، الذي كان هواه في الأصل مع المماليك، بينما كان هوى شاه سوار مع العثمانيين، ثم قفل راجعاً إلى مصر. حيث استقبلت هذه الحملة في مصر استقبالاً حافلاً. في حين أمر السلطان **قايتباي** بشنق **شاه سوار** على باب زويلة. ثم ما لبث حسن الطويل أوزون زعيم دولة الآق قوينلو (دولة الخروف الأبيض) أن هاجم أعمال **حلب**، فجرد السلطان حملة أخرى بقيادة يشبك الدوادار سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م اصطدمت بجيش زعيم إمارة الآق قوينلو عند منطقة **البيرة** على نهر الفرات وانتصرت عليه.

بعد هذا الانتصار حصل خلاف بين حسن الطويل وابنه محمد أغورلو. واستجارت زوجة حسن الطويل وأم أغورلو بالسلطان **قايتباي** في **القاهرة**، ليحل الخلاف بين ابنها وزوجها فوعدها خيراً، كما انتشر وباء الطاعون في هذه الفترة في **العراق** ومات فيه الألوف، حسب ما ذكر ابن آجا الحلبي قاصد السلطان إلى حسن الطويل فهدأ النزاع بين الطرفين.

وفي (سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م) جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة في **حماة**، قتل فيها نائب **حماة** الأمير **أزدمر ابن أزبك** وذلك في معركة بينه وبين **سيف** أمير عرب أل فضل الذي خرج عن الطاعة، فعين السلطان الأمير **يشبك** على رأس حملة للخروج إلى **حماة**، وكان **يشبك** طلب الخروج لخلاف بينه وبين جليان السلطان ولتزيين بعضهم له فكرة السيطرة على **العراق**، ولما استقرت الحملة بقيادة **يشبك** في **حلب** علم بأن سيف أمير أل فضل الذي خرج بسببه قد هرب إلى **الرها** فقوي عزمه على ملاحقته وبالتالي تحقيق الهدف الذي خرج من أجله وهو إخضاع **إمارة الآق قوينلو** مستغلاً فرصة الفوضى التي عمت تلك الإمارة عقب وفاة حسن بك الطويل سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م، ولكن حاكم **الرها** **بايندر** نائب يعقوب بك بن حسن الطويل تصدى للجيش المملوكي، وأنزل به الهزيمة، وأسر قائد الحملة الأمير **يشبك الدوادار** وقتله. كما قتل الكثير من الأمراء المماليك مما دعا السلطان **قايتباي** أن يوقع **الصالح** مع يعقوب بك بن حسن الطويل.



قلعة السلطان قايتباي بالإسكندرية

تقع هذه القلعة في نهاية جزيرة فاروس بأقصى غربي الإسكندرية. وشيدت في مكان فنار الإسكندرية القديم الذي تهدم سنة ٧٠٢هـ أثر الزلزال المدمر الذي حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وقد بدأ السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي بناء هذه القلعة في سنة ٨٨٢هـ وانتهى من بنائها سنة ٨٨٤هـ. وكان سبب اهتمامه بالإسكندرية كثرة التهديدات المباشرة لمصر من قبل خصومها.

وتأخذ هذه القلعة شكل المربع تبلغ مساحته ١٥٠م × ١٣٠م، يحيط به البحر من ثلاث جهات. وتحتوي هذه القلعة على الأسوار والبرج الرئيس. وتنقسم الأسوار إلى سور داخلي وآخر خارجي. فالسور الداخلي يشمل تكتلات الجند ومخازن السلاح. أما السور الخارجي للقلعة فيضم في الجهات الأربعة أبراجاً دفاعية ترتفع إلى مستوى السور باستثناء الجدار الشرقي، الذي يشتمل على فتحات دفاعية للجنود.

ويتخذ البرج الرئيس في الفناء الداخلي شكل قلعة كبيرة مربعة الشكل طول ضلعها ٣٠م وأرتفاعها ١٧م وتتكون القلعة من ثلاث طوابق، وتوجد في أركان الأبراج الأربعة أبراج نصف دائرية تنتهي من أعلى بشرفات بارزة تضم فتحات لرمي السهام على مستويين، ويشغل الطابق الأول مسجد القلعة الذي يتكون من صحن وأربعة إيوانات وممرات دفاعية، تسمح للجنود بالمرور بسهولة خلال عمليات الدفاع عن القلعة. وكان لهذا المسجد مئذنة ولكنها انهارت مؤخراً.

أما الطابق الثاني فيحتوي على ممرات وقاعات وحجرات داخلية. ويضم الطابق الثالث حجرة كبيرة (مقعد السلطان قايتباي) يجلس فيه لرؤية السفن على مسيرة يوم من الإسكندرية، يغطيه قبو متقاطع، كما يوجد في هذا الطابق قرن لإعداد الخبز البر المصنوع من القمح، وكذلك طاحونة لطحن الغلال للجنود المقيمين في القلعة. وقد جدد السلطان قانصوة الغوري القلعة، وزاد من حاميتها، وقد أهملت هذه القلعة في فترة الحكم العثماني لمصر.



بُنيت أسوار القلعة من الحجر، وتحيط بالبرج الرئيس من جميع جهته ما عدا الجهة الشمالية، ويتخلل هذا السور من الداخل مجموعة من الحجرات المتجاورة أعدت كتكتلات للجند، وهي خالية من أي فتحات، ما عدا فتحات الأبواب وفتحات مزاحل خصصت لتكون فتحات للتهوية من ناحية، وفتحات للدفاع من ناحية أخرى.



قلعة قايتباي بالإسكندرية والتي تأخذ شكل المربع تبلغ مساحتها ١٥٠×١٣٠م، يحيط بها البحر من ثلاث جهات



مسجد القلعة الذي يتكون من صحن وأربعة إيوانات وممرات دفاعية

حركة النهضة الأوروبية في أواخر العصور الوسطى

حركة النهضة: هي حركة إحياء التراث القديم، أما بمعناها الواسع؛ فهي عبارة عن ذلك التطور القديم في كل من الفنون والآداب والعلوم، وطرق التعبير، و الدراسات، وما صاحب ذلك من تغير في أسس الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، والسياسية.

أما عصر النهضة: فهو مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهي القرون ١٤ - ١٦، ويؤرخ لها بفتح العثمانيين للقسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث الإغريق والرومان. كما يدل هذا المصطلح على التيارات الثقافية والفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن الرابع عشر م، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا وهولندا وإنكلترا وإلى سائر أوروبا. وقد ازدهرت النهضة الإيطالية إذ وجدت لها أنصاراً يصرفون عليها المال الوفير، مثل أسرة ميديشي في فلورنسا، وسفورا في ميلانو، والباباوات في روما. وقد بلغت البندقية ذروة عظمتها الثقافية في أواخر القرن السادس عشر الميلادي.

ومن أعظم شخصيات النهضة في المجال الفني ليوناردو دافينشي، ومايكل أنجلو، ومكيافيلي، وغيرهم، وقد كان لهذه الحقبة تأثير واسع في الفن والعمارة وتكوين العقل الأوروبي الحديث، وعودة واعية للأنماط الكلاسيكية، واتسمت هذه الفترة باكتشاف أراضي وشعوب جديدة من خلال ظهور طائفة كبيرة من الرحالة والمستكشفين والملاحين، منهم الأمير هنري الملاح، وكرستوفر كولومبوس، وفاسكو دا غاما.

من نتائج النهضة الأوروبية:

١- انحلال الإقطاع: سار نظام الإقطاع في عصر النهضة على طريق التلاشي والزوال نتيجة موت عدد كبير من أمراء الإقطاعيين في الحروب الصليبية، وانصراف بعض الإقطاعيين إلى ممارسة التجارة، فتحرر الفلاحون والأقنان ولم يتمكن من بقي من الإقطاعيين من مقاومة التغيرات التي حصلت نتيجة النهضة.

٢- ظهور الدول الحديثة: عبر تطوير أساليب الحكم، وقد ساعدتهم في ذلك الأفكار الجديدة، مثل أفكار المفكرين مكيافيلي الإيطالي وجون رودان الفرنسي والانجليزي هوبس، وتدفق الثروات الناتجة عن الكشوفات الجغرافية الكبرى، واستغلال مناجم الذهب والفضة للقارة الأمريكية، خاصة من طرف إسبانيا والبرتغال في البداية. فساندت الطبقة المتوسطة الملوك على استتباب الأمن والنظام، والقضاء على

الإقطاع فضلاً عن تكون الرأي العام ونمو اللغات المحلية وظهور الروح القومية، ولقد كان لهذه العوامل أثرها الفعال في قيام الدول الأوروبية الحديثة.

٣- **إحياء الدراسات القديمة:** استهوت الدراسات الإغريقية واللاتينية عقول الكثيرين من الأوروبيين وقد وجدوا معظم مجلداتهم في الكنائس والأديرة، فعكفوا على دراستها، وترجمتها إلى اللغات المحلية مما فتح نوافذ المعرفة أما غالبية الشعب للمرة الأولى.

الحضارة الإسلامية: نشأت في بيئة عذراء، ومن قبائل هي أقرب للفطرة من الشعوب المجاورة لها، ثم صاغها الوحي فأخرجت زرعاً «يَعِجُّ الزُّرْعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ» الفتح ٢٩، هذه النبتة الأصيلة، زاد عطاؤها ونما خيرها، حينما وجدت الأبناء الأوفياء الذين رعوها حق رعايتها، حتى تفيأ العالم بأسره ظلها الوارف، وخيرها المتدفق. فقد كانت العصور الوسطى عصور جهل وظلام، باستثناء البلاد الإسلامية التي نعمت بهذه الحضارة الزاهية؛ **فالحضارة الإسلامية؛** حضارة قامت على التوحيد والإيمان بالله وكتبه واليوم الآخر، وتتمثل الأخلاق وتنتهج الوضوح والصدق وهي أمور انسلخت منها الحضارات الأخرى فتعرت من الفضائل التي لا تقوم بغير هاتيك المقومات وغدت منها مفلسة. **لذلك رأت أوروبا في عصورها المظلمة الخروج من هذا الظلام الدامس بالتعرف على هذه الحضارة الزاهية والنهل منها،** فأصبحت بغداد ودمشق وبيت المقدس والقيروان وفاس وقرطبة وصقلية؛ قبلة طلاب العلم ورواد المعرفة من كل أرجاء الدنيا. إن هذا النور الذي استمر شعاعه أكثر من ألف سنة، يدعونا إلى التساؤل المنطقي: ما الذي تغير حتى عاد المسلمون فانتكسوا؟ وكيف حط التخلف رحاله في ديارنا بعد أن ظلت الحضارة الإسلامية أولى الحضارات تقدماً ورقياً على مدى قرون عديدة؟ إن الإجابة على ذلك يكمن في "البعد عن منهج الله تعالى".



حركة الكشوف الجغرافية

الكشوف الجغرافية: هي استكشاف الأوروبيين لمناطق جديدة في العالم لم تكن معروفة لهم من قبل في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين عبر مجموعة من الرحلات البحرية التي قام بها بحارة مهرة توافرت لديهم الجرأة وحب المغامرة والرغبة في الاستكشاف ، وساعدهم على تحقيقها الدعم والتشجيع من قبل الحكومات الأوربية آنذاك ، و الاستفادة من علوم من سبقهم من الأمم في مجالات الجغرافيا وعلوم الملاحة البحرية.





فردناند ماجلان (١٤٨٠-١٥٢١م)

ماجلان (١٤٨٠-١٥٢١م)
 ديو هرناندس (١٤٨٠-١٥٢١م)
 سيبان دي الكو (١٥٢١-١٥٢٢م)
 هرنانس دريك (١٥٢٢-١٥٢٣م)



فاسكو داجاما (١٤٦٠-١٥٢٤م)

ديو كاو (١٤٨٥-١٤٨٦م)
 بارتولوميو (١٤٨٧-١٤٨٨م)
 فاسكو داجاما (١٤٨٧-١٤٨٨م)



كروستوفر كولومبس (١٤٥١-١٥٠٦م)

الرحلة الأولى (١٤٩٢-١٤٩٣)
 الرحلة الثانية (١٤٩٣-١٤٩٦)
 الرحلة الثالثة (١٤٩٦-١٥٠٠)
 الرحلة الرابعة (١٥٠٠-١٥٠٢م)



ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م)

مكتشفون قرتسيون
 (١٢٧٨-١٢٨٠م)



ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٧٧م)

ابن بطوطة (١٣٢٤-١٣٥٥م)
 طريق الحرير



المكتشفون الروس بيرينج (١٦٨١-١٧٢١م)
 فينوس بيرينج (١٧٢١)
 فينوس بيرينج (١٧٢٨-١٧٢٩)
 فينوس بيرينج (١٧٢١)



بيرينج

تسمان (١٦٠٣-١٦٥٩م)
 كوبروس ترويس (١٦٠٥-١٦٠٦)
 لويس ترويس (١٦٠٦-١٦٠٧)
 ايل تسمان (١٦١٢-١٦١٣)



تسمان

بارنتز (١٥٩٧-١٥٩٨م)
 ولیم بارنتز (١٥٩٦-١٥٩٨م)
 سيمون دونيف (١٦١٨)
 نكروود نيكسول (١٨٧٨-١٨٧٩)



بارنتز

المكتشفون الإنجليز: جيمس كوك
 الرحلة الأولى (١٧٦٨-١٨١١)
 الرحلة الثانية (١٧٧٢-١٧٧٥)
 الرحلة الثالثة (١٧٧٦-١٧٧٩)



جيمس كوك

جون كوت (١٤٩٧)
 مارتن فروبيشر (١٥٧٦)
 هنري هسن (١٦١٠-١٦١١)
 جون فرانكيس (١٨٤٧-١٨٤٨)
 رود أمونسين (١٨٩٣-١٨٩٤)



هنري هسن

دوافع الكشف الجغرافية :

- (١) رغبة الأوروبيين في البحث عن طرق تجارية لا تمر بأراضي المسلمين بهدف حرمانهم من مصادر القوة الاقتصادية المتمثلة في العائدات التجارية الأمر الذي يؤدي إلى ضعفهم اقتصادياً وعسكرياً.
- (٢) محاولة الأوروبيين للالتفاف حول العالم الإسلامي، ومن ثم سهولة القضاء عليه؛ وذلك لفشل أوروبا في الغزو المباشر؛ نظراً لوجود الدولة المملوكية والعثمانية اللتان وقفتا ولقرون عديدة سداً حائلاً بين الصليبيين والعالم الإسلامي، فكانت رحلة كريستوفر كولمبوس التي ادّعى فيها اكتشافه للعالم الجديد، كان يتحدث آنذاك عن نوايا لاحتلال بيت المقدس؛ ثم ساهم الصراع الديني بين الكاثوليك والبروتستانت في الهجرة والاستيطان في الأرض الجديدة التي اغتصبوها من سكانها الأصليين.
- (٣) رغبة دول أوروبا في السيطرة على بلاد جديدة، وتوسيع ممتلكاتهم فيها والسيطرة على مقوماتها الاقتصادية خاصة بعد الزيادة الكبيرة في أعداد السكان في البلدان الأوروبية.
- (٤) رغبة البرتغاليين في الوصول إلى مملكة الحبشة والتحالف معها ضد المسلمين من أجل حصارهم اقتصادياً وعسكرياً.
- (٥) دعم الكنيسة الأوروبية والبابا على وجه التحديد لحركة الكشف الجغرافية حيث أصدرت البابوية مراسيم حق ملكية الأقاليم المكتشفة للملك البرتغال والأسبان ووعدت المغامرين بالغفران.
- (٦) الرغبة في الحصول على منتجات الشرق من المعادن النفيسة والعطور والبخور والأقمشة الحريرية والمسك والتوابل مباشرة دون المرور بأراضي المسلمين.
- (٧) حب المعرفة الجغرافية والاستفادة من كل تراث المسلمين سواء على صعيد الكتب الجغرافية والخرائط. والرغبة في تأكيد نظرية كروية الأرض التي اقتصت بها مجموعة من البحارة المغامرين نتيجة تقدم البحث العلمي في أوروبا وإطلاعهم على علوم من سبقهم .

من الجغرافيين المسلمين

الشيخ الشريف الإدريسي : هو محمد بن عبد الله بن إدريس، عاصر ملك صقلية وألف له كتابه المشهور (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، ثم قام برسم خريطة العالم بطريقة علمية غير مسبوقة، توفي عام ٥٦٠ هـ .



كان طريق **رأس الرجاء الصالح** معروفاً للمسلمين قبل فاسكو دا غاما، ولكنهم لم يكونوا بحاجة للمرور منه، حيث كانت دولهم تطل على البحر المتوسط والبحر الأحمر، وسيطرون على طرق التجارة العالمية؛ بفضل موقعهم الجغرافي المميز دون الحاجة إلى الالتفاف من طريق رأس الرجاء الصالح.



أثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح على الملاحة في موانئ الدولة المملوكية*

بعد أن **تمكن البرتغاليون** من الوصول إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ م. فقد أخذت التجارة الشرقية التي كانت تصل من المحيط الهندي - الذي كان أشبه بوعاء العسل، بما فيه من خيارات - تتحول إلى طريق رأس الرجاء الصالح، بحيث لم تعد الإسكندرية في أواخر العصر المملوكي المركز الرئيس الذي تتجمع فيه السلع الشرقية، فيشتريها البنادقة وغيرهم. ولما أصبح البرتغاليون يتحكمون في منابع هذه السلع من أرجاء المحيط الهندي بعد حركة الكشف الجغرافية، لم تعد هناك حاجة إلى وساطة الإسكندرية أو البندقية. تلك الوساطة التي أدت إلى ارتفاع أثمانها في الأسواق الأوروبية. إذ كان ثمن **قنطار الفلفل** على سبيل المثال يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ بندقية في قاليقووط (كلكتا)، ويصبح ثمنه بعد وصوله إلى الإسكندرية ٨٠ بندقية، في حين صار يباع في لشبونة البرتغالية بعد الكشف الجغرافية بسعر يتراوح بين ٢٠ و ٤٠ بندقية، أي أن أسعار السلع انخفضت بواقع نصف قيمتها على أكثر تقدير. كما أن السفن البرتغالية وفرت على المستهلك الأوروبي مشقة الوصول على السلع الشرقية حتى من لشبونة التي أصبحت مركزاً لتجميع هذه السلع وتسويقها، إذ صارت السفن البرتغالية تنقل السلع الشرقية مباشرة إلى مناطق الاستهلاك مثل إنجلترا والأراضي المنخفضة وغيرها من الدول الأوروبية.

وهكذا ذبلت مدينة الإسكندرية وغيرها من ثغور الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز وأقفرت أسواقها بعد أن انصرف عنها التجار الأوروبيون نتيجة لتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين. ويقول ابن إياس عن مدينة الإسكندرية في حوادث سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م، عندما زارها السلطان الغوري، إنها أصبحت: في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض. فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال. فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر، فتلاشى أمر المدينة، وآل أمرها إلى الخراب، حتى قيل طلب الخبز، فلم يوجد بها، ولا الأكل، ووجد بعض الدكاكين مفتحة والبقية لم تفتح. وواضح من كل ما تقدم أن تدهور الأحوال الاقتصادية في مدينة الإسكندرية وفي مصر كلها عدة تضافرت لتهدد قواعد الدولة هزاً عنيفاً، حتى فقدت أسباب رخائها وثروتها.

وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط عقب **وصول البرتغاليين** إلى الهند

* الدكتور فاروق عثمان أباطة، تحول التجارة العالمية عن عالم البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح وأثره في العلاقات التجارية بين الإسكندرية والبندقية في مطلع العصر العثماني (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م).



خارطة قديمة لرأس الرجاء الصالح تعود إلى عام ١٨٨٨م

طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ م، من أبرز عوامل التدهور الاقتصادي وفي نهايتها من ناحية التوقيت الزمني، مما جعل هذا الحدث الهام أشبه بالقشة التي قصمت ظهر البعير. ولا شك في أن البنادقة بوجه خاص قد أحسوا بمدى خطورة تحول التجارة عن مصر وعالم البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين في سنة ١٤٩٨ م، والذي أدى إلى فقدانهم لمصدر هام من مصادر ثروتهم الناتجة عن اشتغالهم بالتجارة العالمية آنذاك. لهذا، فإن البنادقة أخذوا يراقبون مشروعات البرتغاليين وتحركات سفنهم، ويحاولون من جانبهم إقناع سفراء ملوك الهند في لشبونة بعدم مقدرة البرتغاليين على نقل السلع الشرقية دون مساعدة مالية من البندقية. كما حرص البنادقة على تكوين تحالف مع الممالك لمواجهة النشاط التجاري البرتغالي الذي سيطر على طريق رأس الرجاء الصالح وحوّل التجارة العالمية إليه. ولهذا جاءت سفارات البندقية الدبلوماسية المتكررة إلى بلاط السلطان المملوكي قونصوه الغوري، وأشهرها سفارة "باندتو سانوتو" (Benedotto Sanuto) إلى الغوري في سنة ١٥٠٣ م. وأشار هذا السفير على السلطان الغوري بأن يبعث برسله إلى أمراء الهند لحملهم على قطع علاقاتهم بالبرتغاليين وإقفال موانئهم في وجه السفن البرتغالية. كذلك طلب السفير من الغوري أن يعمل على تخفيض الأثمان الباهظة التي تباع بها التوابل في الإسكندرية حتى يستطيع البنادقة منافسة خصومهم في الأسواق الأوربية.

غير أن السلطان الغوري رأى أن يبعث برسالة إلى بعض الدول الأوربية، لتعمل هذه الدول على وقف حملات البرتغال على الهند، وهدد باتخاذ إجراءات عنيفة ضد المسيحيين في بلاده، ولا سيما بالقدس. بل إنه هدد كذلك بإغلاق الأماكن المقدسة، وقام بحمل هذه الرسالة راهب إسباني فرانسكاني في بيت المقدس اسمه الأخ مورو (Moro)، وكلفه الغوري بالمرور في طريقه بالبندقية. فقصده هذا الراهب إلى روما حيث التقى البابا يوليوس الثاني في ربيع عام ١٥٠٤ م وأحسن البابا لقاءه ووعدته بالكتابة إلى ملك البرتغال لوقف إرسال الحملات الحربية إلى الهند. وقد أتم هذا الراهب جولته في بلاط كل من إسبانيا والبرتغال دون أن يكون لمهمته الدبلوماسية أي جدوى. وعندما زاد إحساس البندقية بخطورة الموقف، أرسلت سفارة دبلوماسية أخرى إلى الغوري في سنة ١٥٠٤ م، وتركزت مهمتها حول تقديم عروض أحسن وأقوى للسلطان نظراً لاطراد عجز البنادقة عن مقاومة البرتغاليين الذين غمروا أسواق أوروبا بالمنتجات الشرقية. مما سبب في أزمة اقتصادية خانقة عند الممالك والبنادقة.



رأس الرجاء الصالح (Kaap die Goeie Hoop)

كاب دي جوي هوب) هو رأس من اليابسة في القارة الإفريقية بالقرب من كيب تاون يمتد في المحيط الأطلسي، ويشبه في شكله الرأس المحذب. كانت تمر منها السفن التجارية المتوجهة من وإلى آسيا.

وهناك اعتقاد خاطئ بأن رأس الرجاء الصالح يقع في أقصى جنوب القارة الأفريقية وأنه يفصل بين المحيط الأطلسي والمحيط الهندي، ولكنه في الحقيقة يقع على بعد ١٥٠ كم (٩٠ ميل) شرق عن هذه النقطة والتي تسمى برأس أقولاس.



طابع بريدي من رأس الرجاء الصالح يعود لعام ١٨٥٥ م



رأس الرجاء الصالح أو رأس العواصف كما أسماه الرحالة البرتغالي دياز

يُعد رأس الرجاء الصالح معبراً معروفاً لدى الكثير من البحارة العرب والصينيين والهنود في العصور الوسطى، ولكن أول من سمى هذا الرأس بهذا المسمى، ووصف جغرافيته، كان المستكشف البرتغالي بارثولوميو دياز عام ١٤٨٨م. حينما أطلق على هذا المكان (برأس العواصف) لكثرة العواصف التي واجهته هناك. أما الذي أطلق اسم رأس الرجاء الصالح هو ملك البرتغال جون الثاني وذلك للتعبير عن ابتهاجه باكتشاف طريق بحري إلى الهند يغني أوروبا عن سلوك طريق القوافل البرية المعرض للخطر.

هذا الطريق اكتشافه من أهم أسباب انهيار الدولة المملوكية لأنه حول حركة التجارة العالمية إليه بدلاً من مرورها بدول الخلافة، وهكذا قال الرحالة ماجلان عندما اكتشف هذا الطريق : "اليوم لفنا الحبل حول عنق المسلمين ولم يبق إلا جذبة ليختنقوا" والغريب أن من ساعده هو عربي مسلم وهو الرحالة ابن ماجد وساعده بالخرائط التي كانت عند المسلمين من أيام الفتوحات الإسلامية وماجلان هو مبشر مسيحي وقد قتل في الفلبين في أحد المعارك على يد القائد المسلم الرفض للتنصير "لابولابو".



نقطة رأس الرجاء الصالح في جنوب القارة الإفريقية



كانت التوابل والبهارات في العصور الوسطى في أوروبا تساوي وزنها ذهباً

من ضمن دوافع البرتغاليين في السفر إلى شواطئ إفريقيا السوداء هو البحث عن التوابل من فلفل أسود، وزعفران، وزنجبيل، وكبش القرنفل، والقرفة، وجوزة الطيب، ... إلخ. وكذلك الأمر بالنسبة لكريستوفر كولومبوس الذي أنطلق منذ عام ١٤٩٢م في سفينته بحثاً عن الذهب والتوابل والبهارات. وكان يأمل بذلك أن يصل إلى شواطئ الهند للحصول عليها. وكان الإسبانيون والبرتغاليون يريدون السيطرة على الطرق التجارية للتوابل والبهارات. وبالتالي كسر احتكار التجار العرب في العصر المملوكي لهذه المواد الثمينة والمرغوبة في أوروبا.

قنصوه الغوري (٩٠٦هـ - ١٥٠١م / ٩٢٢هـ - ١٥١٦م)



السلطان قنصوه الغوري

على الرغم من الفتن والأخطار الخارجية: فإن الغوري أبدى اهتماماً بالبناء وتحديث الجيش، فقد أمر بإعادة تخطيط ميدان القلعة، وأنشأ قصرًا وبحيرة في الغرب منه، واهتم بقصور القلعة ومبانيها، وأمر ببناء مدرسة وجامع بالشرابية، وعمل لنفسه مدفنًا وفوقه قبة لاتزال قائمة حتى اليوم، وأنشأ بستانًا عظيمًا حمل إليه من الشام أنواعاً عدة من الأزهار والرياحين وأشجاراً من مختلف الثمار، وأمر ببناء مستودع للماء وفندق لنزول الحجاج في مدينة العقبة ومخازن للودائع ورصيف لرسو السفن، وأصلح طريق العقبة إلى المدينة، وحفر آباراً؛ ليشرب الحجاج، وأمر بصنع مكاحل ثقيلة ومتوسطة وخفيفة للدفاع عن مصر، (والمكحلة أقرب الأشياء إلى المدافع في العصر الحديث)، وحشد الصناع المختصين حيث تمكنوا من عمل سبعين مكحلة، جربت عام ١٥١٢م في حضرة الغوري بمنطقة الريدانية خارج القاهرة، ولم يخطئ منها سوى واحدة أو اثنتين.

غطاس نعمة، الموسوعة العربية، مج ١٥، ص ١٥٠.

هو أبو النصر، سيف الدين قنصوه الغوري، سلطان مصر، جركسي الأصل من مماليك السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢. ٩٠١هـ) أعتقه وجعله من جملة مماليكه الجمدارية (المماليك الذين يعاونون السلطان على لبس ملابسه)، ثم رقاه، فجعله في حرسه الخاص، فأمر عشرة، ورقى زمن السلطان محمد بن قايتباي (٩٠١. ٩٠٤هـ) إلى أمير مئة، فمقدم ألف، وولي حجابة الحجاب بحلب، ثم ببيع بالسلطنة بقلعة الجبل سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م بعد اختفاء السلطان العادل طومان باي عن الأنظار لانفضاض أمرائه وأجناده من حوله، ولقب قنصوه بالملك الأشرف.

كان أول عمل قام به بعد توليه السلطنة العثور على السلطان العادل طومان باي (الأول) وقتله حتى لا يثير عليه الفتن، ثم وقعت **فتنة المماليك** سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م لعجز قنصوه الغوري عن دفع نفقة البيعة التي اعتاد المماليك أن يتقاضوها لدى ولاية كل سلطان جديد، ولخلو الخزانة من المال؛ فقد استمهلهم بعض الوقت، فلما فقدوا الأمل نزلوا إلى الشوارع، ونهبوا البيوت والمتاجر، ولم يتوقفوا حتى وعدهم بالدفع، وقد تكررت هذه الفتنة ثانية سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م عندما رشق المماليك الجلبان (المماليك الذين جلبوا حديثاً) الناس بالحجارة وطالبوا بمئة دينار لكل واحد، وعندما رُفض مطلبهم نهبوا الدكاكين، ولم تهدأ فتنتهم إلا عندما بلغهم أن الأمراء قد تجمعوا ليمسكوا بهم.

وفي سنة ٩٠٧هـ **خرج الجازاني أحد أمراء مكة** عن الطاعة، وتحالف مع يحيى بن سبع أمير ينبع، وهاجموا الحجاج، واستولوا على مكة، ونهبوا سكانها؛ فأرسل الغوري حملة بقيادة قيت الرجبى أسرت الجازاني، وقتلته، ولكن يحيى استمر على تمرده حتى سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م عندما أرسل الغوري حملة قضت عليه، كما بعث بحملة إلى بلاد الشام للقضاء على فتنة أهاجها العرب.

الصراع المملوكي البرتغالي

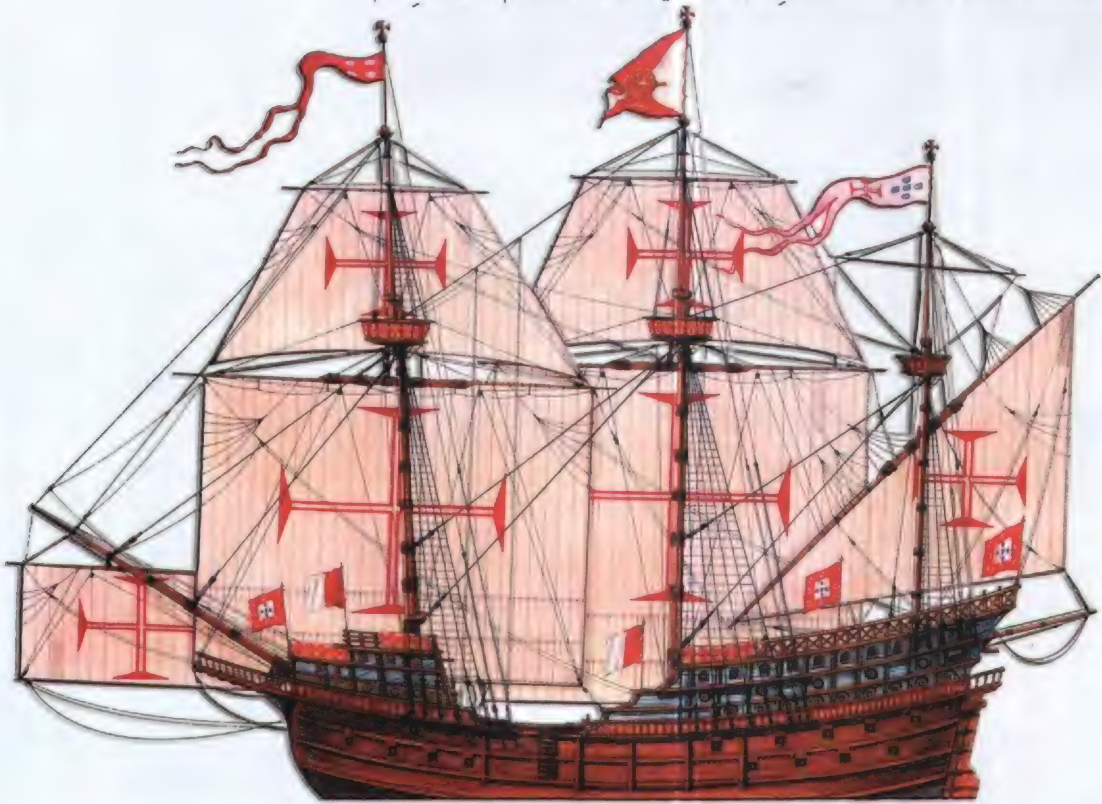
إضافة إلى الفتن الداخلية السابقة كان على السلطان قنصوه الغوري مواجهة أخطار خارجية، فمنذ بداية القرن السادس عشر الميلادي **وصلت سفن البرتغاليين إلى الهند**، كما ذكرنا في الصفحات السابقة:

حيث أعلن البرتغاليون أنهم سيدمرون **الأماكن المقدسة في مكة والمدينة**، ويزيلون معالم الإسلام! وكان هذا أحد الدوافع التي جعلت العثمانيين يتجهون إلى الشرق الإسلامي لحماية هذه المقدسات. **وعقد البرتغاليون محادثات مع ملكة الحبشة النصرانية "إليني"** التي كتبت إلى ملك البرتغال "عمانويل" تقول: "السلام على نويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة"، لقد بلغ مسامعنا أن سلطان مصر - **يقصد السلطان الغوري** - جهز جيشاً ضخماً ليثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند، ونحن على استعداد لمواجهة هجمات الكفرة...". واحتل البرتغاليون **كلكتا** سنة (٩٠٦هـ / ١٥٠٠م) بعد استكمال اكتشافهم لطريق رأس الرجاء بثلاث سنوات، ثم احتلوا بعض الموانئ العربية؛ مثل: **عدن** و**جزيرة هرمز**، كما احتلوا ميناء **مصوع** على المدخل الإفريقي للبحر الأحمر، وبذلك تحكموا في مضيق هرمز وباب المندب، ومنعوا سفن المسلمين وتجارهم من المرور. وتكدست السلع والحاصلات في **موانئ مصر كالإسكندرية ودمياط**، لا تجد أحداً من التجار الغربيين لينقلها إلى أوروبا أو يشتريها منهم، واستنجد التجار المسلمون وأمراء المسلمين في الهند وسواحل بلاد الغرب بالسلطان المملوكي **قنصوة الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢هـ / ١٥٠٠ - ١٥١٦م)** لينقذهم من هذا البلاء، وأرسل الغوري تحذيراً إلى البابا في روما موجهاً عن طريقه إلى جميع القوى الأوروبية، ليمنعوا ملاحيتهم وقراصنتهم من التعرض للمسلمين وتجارهم، ولكن تحذيره لم يلق استجابة لديهم، فأتخذ عدة خطوات عملية منها: تقوية أسطوله في البحر الأحمر، ومكاتبة ملوك الهند ليتحالفوا معه ضد هذا الخطر. د. محمد عبد الحميد الرفاعي، صراع الممالك الجراكسة مع القوى الخارجية، موقع الألوكة.

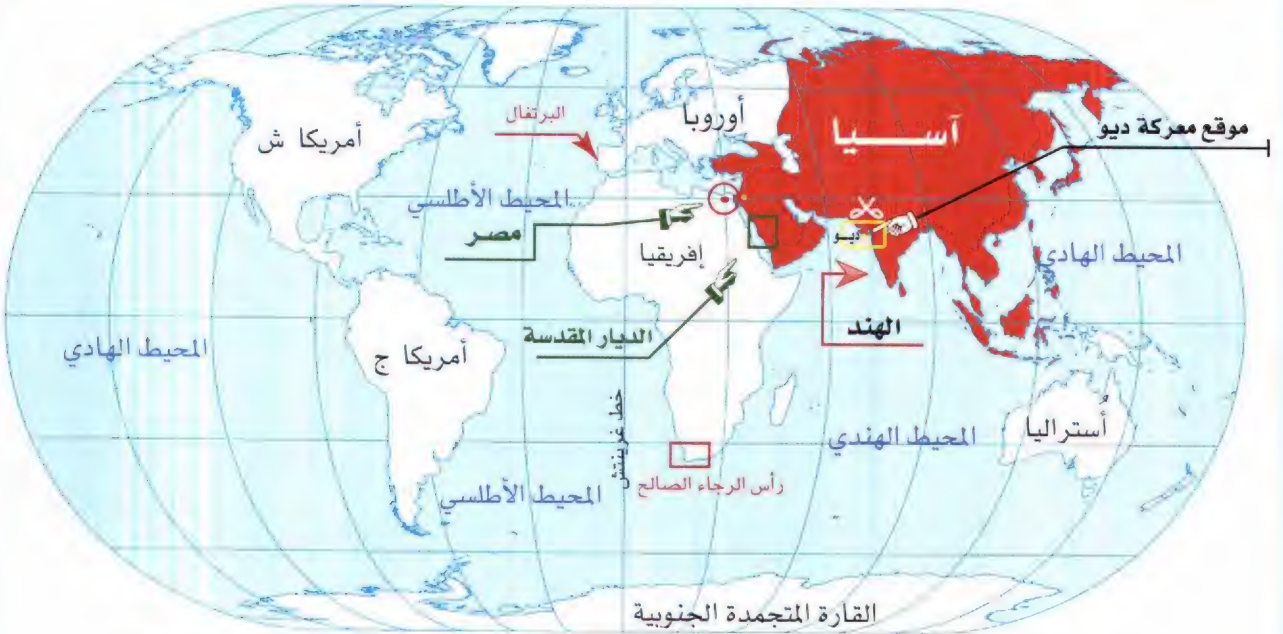


استعد السلطان الغوري لجولة حاسمة مع البرتغاليين، فأعد عدته لمعركة بحرية ضد البرتغاليين، وجّهز لذلك خمسين غراباً؛ أي: سفينة، وولّى عليها أمير البحر **حسين الكردي**، ووجهه إلى **الهند**، فالتحّم مع سفن البرتغاليين غربي الهند سنة (٩١٤هـ / ١٥٠٨م) فهزمهم، لكنهم ما لبثوا أن حشدوا له قواهم وأساطيلهم، وخاضوا ضده جولة أخرى فانتصروا عليه وحطموا الأسطول المصري في موقعة "**ديو**" البحرية قرب جزيرة صغيرة في مياه الهند، تحمل هذا الاسم وتقع شمالي بومباي. وكانت هذه الموقعة فصل الخطاب في الصراع المملوكي البرتغالي، ونتج عنها ضياع مركز مصر التجاري، وتحقيق **المآرب الصليبية في إضعاف دولة المماليك الإسلامية** من الناحية الاقتصادية تمهيداً للقضاء عليها، وازدادت بعدها جرأة القراصنة الفرنج، وتعددت غاراتهم على الموانئ المصرية، والسفن المملوكية عند دمياط والطينة (بين الفرما وتيس) وغيرهما، ولم يكن في مقدور الغوري أن يرد عليهم، فلجأ إلى تهديد الرهبان والقساوسة الموجودين في القدس إذا لم يتوقف الفرنج عن اعتداءاتهم.

وتفاقم خطر البرتغاليين في البحار الإسلامية، حتى قيص الله لهم القوة الإسلامية الفتية؛ الممثلة في العثمانيين لتردهم على أعقابهم وتحمي ديار الإسلام من كيدهم.



سفينة برتغالية تعود إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر الميلاديين



موقع معركة ديو البحرية بين المماليك والبرتغاليين سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م



لم ينس المماليك واجبه الديني تجاه الأماكن المقدسة، فانتقل حسين الكردي بعد هزيمة «ديو» إلى مدينة وميناء «جدة»، حيث بدأ في تحصينها حتى لا يستولي عليها الصليبيون البرتغاليون، ومنها يغيرون على مكة والمدينة، وبالفعل نجحت خطة الكردي في ردع البرتغاليين عن الإغارة على الأماكن المقدسة. ومع الفشل المتكرر للبرتغاليين في اقتحام عدن تشجع السلطان قنصوة سنة ٩١٩ هـ وأرسل أسطولاً جديداً إلى جنوبي البحر الأحمر تحت قيادة الرئيس سليمان الذي انطلق إلى جدة، وهناك انضم إليه القائد حسين الكردي، وانطلقت الحملة نحو الجنوب وطردت البرتغاليين من مدينة زيلع الصومالية، ثم استقرت الحملة في جزر «قمران» بعد طرد البرتغاليين منها سنة ٩٢١ هـ، بعد أن دخل المماليك في حربهم الطويلة ضد العثمانيين، والتي انتهت بسقوط الدولة المملوكية سنة ٩٢٣ هـ.

الدولة الصفوية في إيران: ٩٠٧-١١٤٨هـ/١٥٠١-١٧٢٢ م

يعود نسب الصفويين إلى صفى الدين الأردبيلي الذي يقال: بأن نسبه ينتهي إلى موسى الكاظم الإمام التاسع عند الاثنا عشرية، والتزمت الأسرة الصفوية في بداياتها طريق التصوف في موطنها **أردبيل**. ومع ازدياد عدد أتباعهم ومريديهم اختلفوا مع حاكم المنطقة، فلجأوا إلى منطقة ديار بكر في تركيا الآن، وصاروا من رعايا حسن أوزون، وصاهر زعيمهم أوزون بالزواج من ابنته، وصار قائداً لجيوشه، وأثمر هذا الزواج على إسماعيل الصفوي، الذي صار الشاه إسماعيل فيما بعد. تمكن إسماعيل من أن يعيد جمع أفراد أسرته وأتباعه، ويقيم في **تبريز** التي باتت عاصمته، وانطلق يوسع دولته، حتى وصلت حدودها ما بين نهر جيحون إلى خليج البحرين (الخليج العربي) ومن أفغانستان إلى الفرات، واحتل بغداد عام ١٥٠٨م، وبذلك صارت العراق جزءاً من مملكة الصفويين فيما بعد.

كانت الدولة الصفوية سنية تتبنى المذهب الحنفي كأغلب المسلمين في تلك المنطقة وقيل الشافعي؛ ولكن مع توسع الصراع مع الدولة العثمانية اتخذ الشاه إسماعيل الصفوي المذهب الجعفري الشيعي مذهباً لدولته، و اللغة الفارسية لغة رسمية، وقاد حملات تشييع للناس، وعندما دخل العراق زار كربلاء والنجف، وهناك زار مراقد الأئمة وأمر بهدم أضرحة الأولياء من أهل السنة، وأيقظ الصراع المذهبي الطائفي بين السنة والشيعية، وطور في طقوس التشيع. توسع الصراع أكثر بين الصفويين والعثمانيين، حيث زحف السلطان سليم الأول نحو الدولة الصفوية عام ١٥١٤م واندلعت معركة جالديران (تشانديران) التي انتصر فيها العثمانيون وجرح الشاه إسماعيل، وفر من تبريز وأعاد العثمانيون سيطرتهم على **بغداد**، ولكن ما لبث أن عاد الصفويون بقيادة الشاه طهماسب الأول ليحتلوا بغداد عام ١٥٢٤م، فجهز السلطان سليمان القانوني حملة ضد الصفويين انتهت بعودة بغداد إلى سلطان العثمانيين عام ١٥٣٤م.

بعد الشاه عباس الأول المتوفى عام ١٦٢٨م من أهم حكام الصفويين وقد قام بنقل عاصمته إلى أصبهان واهتم بالفنون والعمارة والآداب. وبعد وفاته بدأ اضمحلال الدولة الصفوية حتى سقطت في عهد الشاه نادر شاه عام ١٧٣٦م.

أسس الشيخ صفى الدين الأردبيلي (١٢٥٢-١٣٢٤م) طريقتَه الصوفية في أردبيل (أذربيجان) سنة ١٣٠٠م.

أصبحت **أردبيل** عاصمة دينية ثم سياسية لأتباعه (مع تحولها إلى حركة سياسية). تحول أبناء هذه الطائفة منذ منتصف القرن الـ١٥ م إلى المذهب الشيعي. نجح الصفويون في الوصول إلى الحكم (على بعض المناطق) في أثناء زعامة جنيد (١٤٤٧-١٤٥٠ م) ثم حيدر (١٤٦٠-١٤٨٨ م)، والذين استطاعا إنشاء تنظيم سياسي وتكوين وحدات خاصة من الجيش، أو القزلباش (القلز باش أو الرؤوس الحمراء نسبة إلى التاج أو العمامة الحمراء، التي يرتديها أتباع الطريقة الصفوية، وترتبط العمامة بأشْي عشرة لفة تلميحاً للأئمة الاثني عشر).



علاقات المماليك المصريين بالدولتين الصفوية والعثمانية في مطلع القرن ١٦ م

في الوقت الذي كانت فيه **الدولة المملوكية** في مصر تسير في طريق الزوال والاضمحلال بسبب انتقال طرق التجارة الدولية عن موانئها الرئيسية في بلاد الشام ومصر، كانت الدولتان **الصفوية** و**العثمانية** تتموان وتتوسعان بصورة سريعة، وعلى حساب الدولة المملوكية بالذات. وفي الوقت نفسه تعرضت الدولة المملوكية لخطر آخر من قبل البرتغاليين الذين لم يهددوا موارد الدولة الأساسية المتأتية من التجارة الدولية وبالانقطاع، بل هددوا سيادة هذه الدولة في عقر دارها.

لقد كان على الدولة المملوكية أن تواجه جميع هذه القوى مستخدمة في ذلك جميع وسائلها المتاحة سواء أكانت حربية أم دبلوماسية، وهذا ما عملته بالذات تجاه الدولتين الصفوية والعثمانية من جهة، ودولة البرتغال من جهة أخرى. فعندما كانت الدولة الصفوية تتوسع على حساب الدولة المملوكية في بلاد الشام، وقفت الدولة المملوكية منها موقفاً مناوئاً، وازداد هذا الموقف المناوئ بعد أن علمت مصر بوجود حلف عدائي بين **الصفويين والقوى الأوروبية للقضاء على الدولة المملوكية**. وقد أدى هذا الأمر إلى توقف الاتصالات الدبلوماسية بين هاتين الدولتين عام ٩١٧ هـ / ١٥١١ م، ولم تتجاوز إلا في عام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م، وذلك عندما خسر الصفويون في نزاعهم مع العثمانيين، فأرادوا أن يحسنوا في علاقاتهم مع المماليك.

وعلى النقيض في العلاقات المملوكية - الصفوية التي بدأت عدائية وانتهت ودية، فإن العلاقات المملوكية - العثمانية بدأت ودية وانتهت عدائية. وليس أدل على ذلك من قيام العثمانيين بتقديم المعونات البحرية المختلفة زمن السلطان بايزيد الثاني للسلطان المملوكي قنصوه الغوري، لمساعدته في الوقوف في وجه الخطر البرتغالي في البحار العربية الجنوبية.

إلا أن هذه العلاقات الحسنة سرعان ما تحولت إلى علاقات عدائية، وذلك لما ساد في الأوساط العثمانية من الشكوك بوجود تعاون (صفوي - مملوكي) ضد الدولة العثمانية، الذي كان من نتيجته غزو العثمانيين لبلاد الشام ومصر والقضاء على الدولة المملوكية.

فخلاصة الأمر فإن الدولة المملوكية كانت في موضع حرج إزاء قوى عديدة فما كان عليها إلا أن تجابهها جميعها، وهذا ما حدث بالفعل^(١):

(١) إن الدولة المملوكية بعد أن أحست بحراجة موقفها إزاء الدولتين الطامعتين، حاولت أن تتلمس مختلف الأساليب لتجنب خطرهما، مستخدمة في ذلك الوسائل الدبلوماسية قدر الإمكان، ولم تلجأ إلى الأساليب الأخرى إلا حينما تكون مضطرة لذلك، وذلك في حربها مع العثمانيين عام ١٥١٦ م.

(٢) إن الدولة العثمانية في توسعها على حساب الدولة المملوكية لم تكن مدفوعة بالعلاقات العدائية الآتية التي حدثت بين الدولتين، بل يبدو أنها كانت جزءاً من الخطة العثمانية في التوسع على حساب مناطق الوطن العربي في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ومن بينها بلاد الشام ومصر.



اشتهرت الفنون في العصر الصفوي في القرن ١٦ م، وبرز منها فن المِثْمَنَات: وهي الصورة المزخرفة في مخطوط. وقد سبقتها المخطوطات البيزنطية وأعقبها العثمانية والهندية وفي هذه اللوحة جزء من سجادة الصيد الفارسية الشهيرة. متحف الفن التطبيقي - فيينا - النمسا.

الدولة الطاهرية في اليمن ٨٥٥-٩٢٣هـ / ١٤٥١-١٥١٧م

ورثت **الدولة الطاهرية** مناطق نفوذ الدولة الرسولية، وهي معظم اليمن باستثناء مناطق الجبال الشمالية، التي تنافس عليها الأئمة الزيديون. والموطن الأصلي لبني طاهر هو **منطقة جَبْن من بلاد رداع**، حيث كانت لهم الرياسة فيها، وقد توصلت العلاقة بين بني طاهر ودولة بني رسول في أواخر الدولة الرسولية بمصاهرة تمت عام ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م بين الملك الظاهر الرسولي وابنة كبير آل طاهر الشيخ طاهر بن معوضة، ثم صار آل طاهر ولاية لآل رسول في جهاتهم، بل وامتد حكمهم إلى **عدن** في أحقاب لاحقة، وعندما أيقن آل طاهر من أن أمر الرسوليين إلى زوال لا محالة، أعدَّ الشيخ علي بن طاهر بن معوضة الملقب بالمجاهد الذي سيقدر له مع أخيه عامر الملقب بالظافر أن يكون أول ملوك دولة الطاهريين - حملة لحرب الملك الرسولي المسعود في عدن، ولكنه عاد من حملته خائباً، ولم يتمكن من القضاء على خصمه المسعود، ثم أعد نفسه إعداداً أفضل، فكرر حملته على عدن في العام ٨٥٨هـ / ١٤٥٣م، وتمكن هذه المرة من طرد المسعود منها، فتوجه إلى بلاد موزع، ومنها إلى مدينة حيس **بصحبة المماليك**، الذين أرادوا دخول عدن ثانية معه، لكنه خلع نفسه هناك كملك، ليبقى في الساحة الملك المؤيد، الذي دخل عدن إثر انسحاب الطاهريين الطوعي منها إلى **المقرنة** مقر حكمهم لمزيد من الاستعداد، ثم أعادوا الكرة الأخيرة في شهر رجب من العام نفسه، وتمكنوا من دخول عدن، وأسروا المؤيد هناك آخر ملوك دولة بني رسول، وكان الأخوان المجاهد، والظافر من آل طاهر، يحكمان معاً دون تقدم أحدهما على الآخر^(١).

وقد أمضى الطاهريون سني حكمهم كغيرهم من الدول التي سبقتهم في تثبيت حكمهم في **تعز وعدن** وجهات تهامة، **حيث المماليك يفرضون إرادتهم هناك** بالتعاون مع بعض القبائل كالمعاذبة، كما مد الطاهريون سلطتهم إلى **الشحر** في حضرموت بعد أن حاول ملك الشحر غزو عدن، فردوه على أعقابهم، ووليها بالنيابة عن الطاهريين أسعد بن إسماعيل النهمي، بل وتمكن من السيطرة على صنعاء وثبت فيها نائباً له، في وقت كان **الأئمة الزيديون** فيه في حالة كمون إثر صراعاتهم الدامية فيما بينهم. ولم يلبث أن نشطوا ثانية فسيطروا على جهات متفرقة، وكانت صنعاء خاضعة لنفوذ الإمام المؤيد، وهو ما دعى الملك الطاهري الظافر إلى التحرك صوب صنعاء لاستعادتها، وفي المجابهة بين قوات الظافر والأمير الزيدي على صنعاء سقط الملك الظافر قتيلاً في الميدان عام ٨٧٠هـ / ١٤٦٦م، وهو ما أقتع أخوه الملك المجاهد بالتخلي عن طموحه للاستيلاء على صنعاء، فتركها وما حولها للأئمة الزيديين، الذين رغبوا هم أيضاً عن مد نفوذهم إلى الجهات السفلى من اليمن.

الدولة الطاهرية ٨٥٥ - ٩٢٣ هـ / ١٤٥١ - ١٥١٧ م

كانت آخر المعارك بين الطاهريين وخصومهم من الغزاة وأعوانهم قرب صنعاء لقي فيها الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب حتفه وذلك عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م، بعد حكم دام ثلاثة عقود، لتنتهي بموته الدولة الطاهرية بعد خمس وستين عاماً،

كان للحصار **البرتغالي** على سواحل اليمن تداعياته السياسية الخطيرة على الدولة الطاهرية، فقد ضعفت قوتها العسكرية ونفوذها السياسي من ناحية، وطلفت على السطح عدد من القوى المحلية أو المعارضة السياسية من ناحية أخرى، التي تكالبت عليها وكانت من أقواها هو الإمام الزيدي شرف الدين بن يحيى ابن شمس الدين المتوفى سنة (٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م) الذي كان من أشد الخصوم السياسيين لعامر بن عبد الوهاب الطاهري.

اليمن

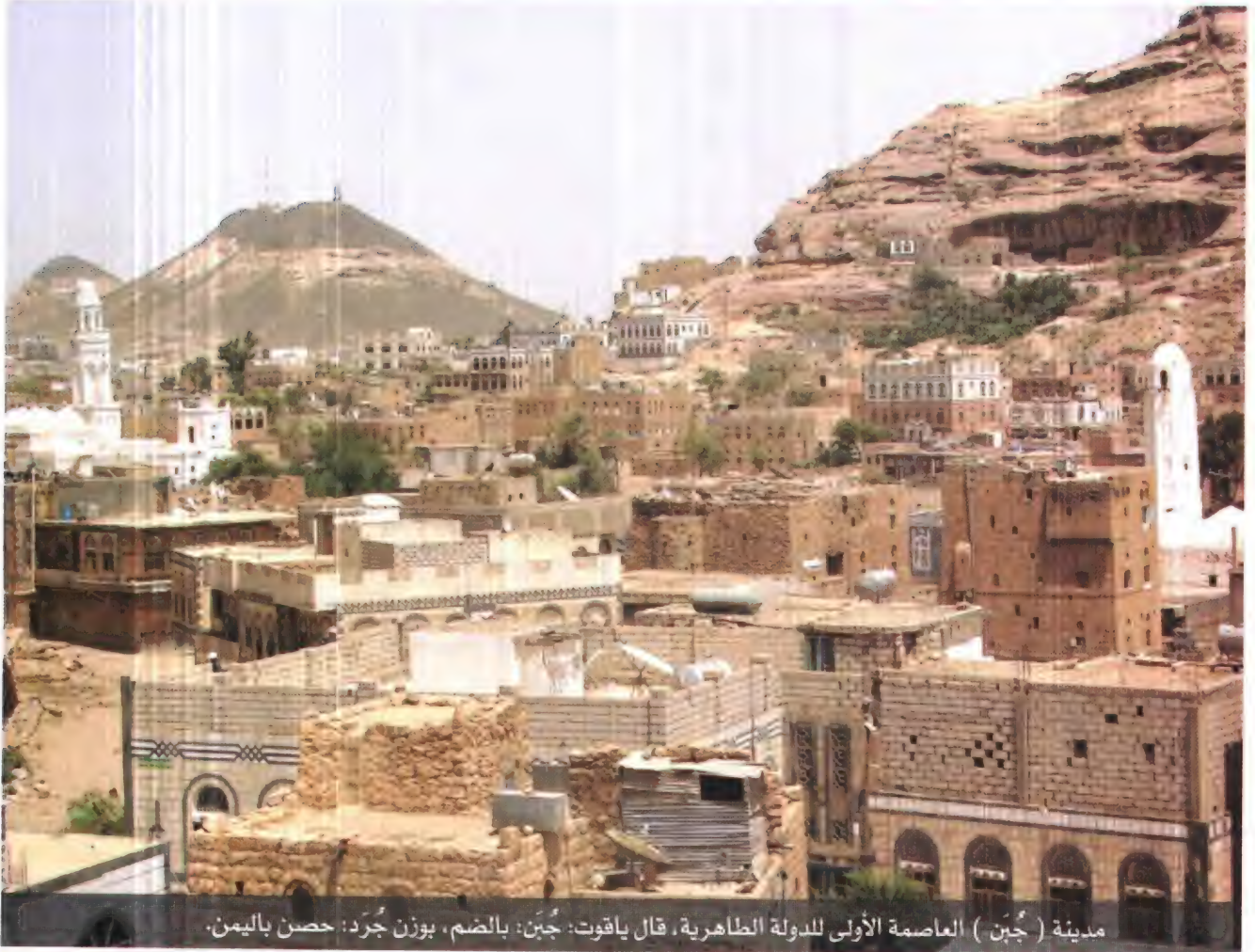
حضر موت



لعبت رسالة الإمام الزيدي شرف الدين، لقائد **قوات المماليك** حسين الكردي الم رابط في **جزيرة كمران** دوراً في التعجيل بنهاية الطاهريين، فقد طلب القائد المملوكي من الطاهريين أن يجهزوا معه قوة **لمحاربة البرتغاليين** الغازين للسواحل الإسلامية، إلا أن الطاهريين رأوا عدم إجابة هذا الطلب، وعلى إثر ذلك قرر المماليك النزول بقواتهم إلى السواحل اليمنية لمقاتلة الطاهرية، وهو بالضبط ما أراده الإمام شرف الدين، وقد نزل المماليك إلى الساحل اليمني بأسلحتهم الجديدة، مثل المدافع والبنادق، والتي لا عهد للناس بها، وهي البنادق التي وصفها ابن الديبع ووصف فزع الناس منها، ودارت الحرب بين الطاهريين من جهة، والمماليك ومن تعاون معهم مثل الإمام شرف الدين وبعض القبائل من جهة أخرى، وقد كانت المعارك مع ما يرافقها من سلب ونهب سجلاً تخللتها حالات مفاوضات وصلح قصير الأمد، مع خلافتين بين أفراد القوة الغازية، وكانت ساحات القتال بلاد **تهامة** و**تعز** و**رداع** و**المقرنة** و**صنعاء**.

وبعد الملك المجاهد الذي وافته منيته عام ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م بعد حكم دام خمسة وعشرين عاماً قضاها في توطيد الحكم ومقاتلة المتمردين - سلم الحكم لابن أخيه عبد الوهاب بن داود الطاهري الملقب بالمنصور، وفي عهده انتقلت عاصمة الطاهريين من **جُبْن برداع** إلى عدن حيناً وتعز حيناً آخر. أمضى الملك المنصور أحد عشر عاماً في الحكم، صرف معظمها في تثبيت حكمه في جهات تهامة بالذات، حيث قام بتصميم نظام لتوزيع مياه وادي زبيد بالعدل، كما بنى عدداً من المدارس والمساجد وأصلح ما تخرب منها .

وخلف الملك المنصور عبد الوهاب ابنه عامر الذي لقب بالظافر، وقد لقي معارضة من أسرته فجرت حروب كثيرة بينهما، سيطر خصومه خلالها على حصن **جُبْن**، وأخذ عامر بن عبد الوهاب بجيش من مقره في **تعز** ضد خصومه، وكانت الغلبة له في كل المعارك التي استنزفت الجانبين رجالاً ومالاً، وتمكنت خلال هذه الحرب القبائل التهامية من استغلال الضعف والتمرد ثانية على الدولة الطاهرية، لكنها اضطرت للخضوع ثانية بعد أن وجه إليها الملك عامر بن عبد الوهاب جيشاً قضى على كل تمرد فيها، فأمنت السبل وعم السلام، **وأخذ الملك عامر بن عبد الوهاب يطمح في السيطرة على صنعاء وتوحيد اليمن تحت حكمه**، فتقدم إلى ذمار التي صارت مدخلاً للسيطرة على البلاد الواقعة تحت حكم الأئمة الزيديين، وتمكن من الاستيلاء عليها عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩١ م. وبعد أن وطّد أقدامه في **ذمار** والجهات الساحلية تحرك الملك عامر بن عبد الوهاب عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م نحو صنعاء بجيش ضخم جداً، تمكن به من حصار صنعاء ودخولها بعدئذٍ دخول الفاتحين، ووقع الإمام الوشلي، الذي يسميه مؤرخ الرسولين ابن الديبع، رئيس أهل البدعة ومؤسس الفتنة، وقع مع أمراء حربه أسرى ونقلوا إلى تعز، حيث حددت إقامتهم، **أما الملك الطاهري فقد أقام في صنعاء يسير أمورها، ويخضع ما تبقى من حصونها وقلاعها، ليسيطر على معظم اليمن**، وعاد إلى تعز في العام اللاحق، في الوقت الذي أعلن فيه طامح جديد **من الأئمة هو الإمام شرف الدين نفسه إماماً جديداً**، وأخذ يدعو لنفسه في منطقة الجبال **بحجة**، ويبحث عن الأعوان لحرب الطاهريين الذين أعدهم أعداء جائرين لله، **بل إنه أخذ بمراسلة من سماهم الغزاة الكرماء، وهم المماليك الشراكسة، الذين أخذوا يجوبون البحر الأحمر وسواحل اليمن لمجابهة قوة البرتغاليين النشطة هي الأخرى في سواحل البحر الأحمر والعربي، والتي أخذت تهدد عدن وجزيرة كمران**^(١).



مدينة (جَبْن) العاصمة الأولى للدولة الطاهرية، قال ياقوت: جَبْن: بالضم، بوزن جَرْد: حصن باليمن.

تعد جزيرة **كمران** من الجزر التي احتلها البرتغاليون سنة ١٥١٣ م، ثم حررها المماليك سنة ١٥١٥ م، ثم عاد البرتغاليون مرة ثانية وقاموا باحتلالها سنة ١٥١٧ م، بقيادة لوب سوليز، ثم احتلتها بريطانيا سنة ١٨٦٧ م، وطردتهم منها العثمانيون سنة ١٨٨٢ م، وأسسوا فيها محجراً صحياً للحجاج. وتعد كمران لأول مرة جزر البحر الأحمر، ويطلق عليها (سقطرى البحر الأحمر) جزيرة سياحية جميلة تمتاز بثراء وتنوع حيوي، وشواطئ رائعة ومواقع مثيرة للاهتمام تجعلها من إحدى أكثر المناطق جذباً للسياح،



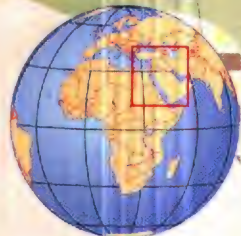
تقع جزيرة **كمران** اليمنية قبالة الساحل الغربي للصليف بمسافة ٦ كم، تبلغ مساحة الجزيرة حوالي ١٠٠ كم^٢، وهي بمثابة حزام أمني لميناء الصليف وكذلك أمن دخول وخروج السفن وتأتي الإستراتيجية من أهميتها؛ كونها تشرف على خطوط الملاحة الدولية المارة من جهتها الغربية.

معركة مرج دابق ٩٢٢هـ / ١٥١٦م

كان السلطان العثماني **سليم الأول** اتجه لتوحيد الأمصار الإسلامية لتكون تابعة للدولة العثمانية، وخاصة بعد أن تنامي الوجود الصليبي في المنطقة و**سقوط الأندلس**، التي لم تحاول الدول الإسلامية الموجودة في ذلك الوقت إنقاذها، وأيضاً **ظهور البرتغاليين** الذين احتلوا بعض القواعد في **اليمن وعمان** بعد اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح، وعملوا على أن تكون هذه القواعد لمواصلة زحفهم إلى المدينة النبوية؛ حتى ينبشوا قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويساووا المسلمين على القدس الشريف بالجثمان الطاهر^(١).

وكذلك **ظهور الصفويين الشيعية** في إيران الذين بدؤوا يتحرشون بالعثمانيين من جهة الشرق، ويحاولون التوسع، كما يعملون على **نشر المذهب الشيعي** القائم على معاداة الصحابة، والطعن في رموزهم (الذين أثنى الله عليهم في كتابه الحكيم)، فقد دخل الشاه إسماعيل الصفوي ديار بكر، وجعل عاصمته **تبريز** القريبة، وطلب من المماليك التحالف معهم ضد العثمانيين للوقوف في وجه توسعهم. كما ساعد الأمير أحمد ضد والده السلطان بايزيد الثاني، ثم ضد أخيه السلطان سليم، فلما تمكن السلطان من أخيه كان لا بد من ضرب من كان يعاونه. ومحاولتها مهاجمة الدولة العثمانية من ناحية الشرق، وقيامهم بعقد حلف مع البرتغاليين أعداء الإسلام على المسلمين السُّنة عموماً وعلى العثمانيين خصوصاً، لذا اتجه السلطان سليم من أدرنة على رأس جيش عظيم باتجاه الصفويين، وحيد الشيعة في شرقي الدولة، لأنهم سيكونون أنصاراً للصفويين، ثم تقدم **نحو تبريز عاصمة الصفويين** الذين أرادوا خديعته بالتراجع المخطط، حتى إذا أنهك الجيش العثماني انقضوا عليه، وبقي السلطان في تقدمه حتى التقى بالجيش الصفوي في **(جالديران)** جنوب مدينة قارص في شرقي الأناضول، وكانت معركة عنيفة بين الطرفين في الثاني من رجب عام ٩٢٠هـ، انتصر فيها العثمانيون، وفر من الميدان الشاه إسماعيل الصفوي، وبعد عشرة أيام دخل السلطان تبريز، واستولى على الخزائن، ونقلها إلى أستانبول، وتبع الشاه، ولكن لم يتمكن من القبض عليه، وأقبل فصل الشتاء ببرده في تلك المرتفعات فاشتد الأمر على الجنود العثمانيين، وبدأ تذرهم، فترك السلطان المنطقة، وسار نحو مدينة أماسيا حتى انتهى فصل الشتاء، رجع السلطان إلى أذربيجان ففتح بعض القلاع، و**دخل إمارة ذي القادر**، وترك الجيوش العثمانية تنفذ المهمة التي أعطاها لها، وعاد إلى أستانبول، وكانت الجيوش العثمانية قد دخلت أورفة (الرها)، والركة، وماردين، والموصل.

١ - د. عثمان علي عطا، معركة مرج دابق.



السلطنة المملوكية

الدولة الصفوية

وأيضاً بسبب **الضعف الشديد الذي أصاب دولة المماليك** في مصر والشام بحيث أصبحت غير قادرة على صد هجمات البرتغاليين من الجنوب، وهجمات الأسيان من ناحية الغرب. كما كان السلطان سليم الأول شديد الغضب على السلطان الغوري ودولته في مصر؛ بسبب مساعدتها للصفويين في أثناء قتالهم مع العثمانيين، وأيضاً لضعف المماليك في التصدي لتهديدات البرتغاليين للأمة الإسلامية.

ونظراً لوجود نزاعات بين العثمانيين والمماليك على إمارة دلفادر (**ذي القادر**) التي قاعدتها مرعش، (انظر موقعها على الخارطة في الصفحة المقابلة) على الحدود الفاصلة بين الدولتين. فقد قرر السلطان **سليم الأول** شن الحرب على المماليك الذين تحالفوا مع الصفويين ضد العثمانيين، والذين يختلف معهم بشأن إمارة ذي القادر على الحدود بين الطرفين، كما أن المماليك وقفوا مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم الأول، فقد كان لهذا الموقف السلبي من الدولة المملوكية في وقفها المعنوي مع الشاه إسماعيل الصفوي، الأثر الأكبر الذي شجعه على هذه الحرب.

ومن أجل تهدئة الوضع بين الطرفين حاول السلطان المملوكي قنصوه الغوري استخدام وسائله الدبلوماسية، فأرسل إليه سفيراً ليمتص غضبه، ولكن سليم الأول طرد السفير، وتوجه بجيوشه سريعاً إلى الشام، وعندما علم السلطان الغوري بذلك لم يجد مفرّاً من إعداد العدة لمواجهة، فأعد جيوشه وتوجه للقاء العثمانيين.

وقد نجح السلطان سليم الأول في استمالة ولاية بلاد الشام المماليك إلى جانبه، ووعدهم ببقائهم في إماراتهم إذا ما تم له النصر على السلطان الغوري، ثم سار بجيشه لملاقاة المماليك عند "مرج دابق" بالقرب من حلب في (٢٥ رجب ٩٢٢هـ / ٢٤ أغسطس ١٥١٦م)، واحتدم القتال العنيف بينهم، وأبدى المماليك في بداية هذه المعركة ضروباً من الشجاعة والبسالة، وقاموا بهجوم خاطف زلزل العثمانيين، وأنزل بهم خسائر فادحة.

ولكن سرعان ما دبّ الخلاف بين فرق المماليك المحاربة، وانحاز بعضها إلى الجيش العثماني بقيادة الأمير المملوكي "**خايربك**"؛ فتسلل ولاية الشام بجيوشهم وانضموا للعثمانيين، فضعف أمر المماليك وهزموا هزيمة منكرة وتمزقت قواتهم، وسرت إشاعة في جيش المماليك أن الغوري سقط قتيلاً، فخارت عزائمهم ووهنت قواتهم، وفرّوا لا يلوون على شيء، ولم تغلح محاولات الغوري في تجميع جيشه بندااته وصيحته في جنوده بالثبات والصمود، وسقط عن فرسه جثة هامة من هول الهزيمة، وتحقق للعثمانيين النصر الذي كان بداية لأن يستكمل سليم الأول فتوحاته في الشام، وأن يستولي على مدنه واحدة بعد أخرى، بعدها سلّم معظمها له بالأمان دون قتال.

معركة مرج دابق في ٢٥ رجب ٩٢٢هـ / ٢٤ أغسطس ١٥١٦م

بحر بنطس (الأسود)

أستنبول

سار السلطان سليم بجيشه

نحو بلاد الشام، واستعد للسلطان الأشرف قنصوه الغوري، واتجه نحو الأناضول، والتقى الطرفان في **مرج دابق** شمال غربي مدينة حلب، وكان السلطان العثماني قد اتصل بولاية الشام ومناهم، أو التقوا به، وتقدموا إليه، وعندما التحم الجيشان يوم ٢٥ رجب عام ٩٢٢هـ، انفصل ولاية الشام بمن معهم وانضمو إلى العثمانيين فانتصروا، وهزم المماليك رغم شجاعة السلطان الأشرف والجهد الذي قدمه، وثباته في المعركة حتى قتل.

٢

دخل السلطان سليم حلب، وحماء.

و**حمص**، و**دمشق** دون مقاومة، بل بالترحيب في أغلب الأحيان، وأبقى ولاية الشام على ولاياتهم حسبما وعدهم، بل زاد في مناطق نفوذ بعضهم حسبما بذلوا في ميدان مرج دابق، واتجه إلى مصر، بعد أن قابل العلماء وأكرمهم، وأمر بترميم **مسجد بني أمية بدمشق**، وقد عين جانبرد الغزالي على دمشق، وفخر الدين المعني على جبل لبنان، وهو من الدروز، وقد ساعد السلطان سليم، ووقف إلى جانبه بعد أن ترك المماليك ليحصل على الولاية، وهو من ألد أعداء العثمانيين.

مرج دابق

حلب

حماء

حمص

بلاد الشام

دمشق

بيروت
البحر الشمالي (البحر المتوسط)

بيت المقدس

غزة

الريديانية

القاهرة

مصر

نهر النيل

بحر القلزم (البحر الأحمر)

مسار الجيش المملوكي

نطاق فتوحات السلطان العثماني سليم الأول في بلاد الشام.

٣

كان المماليك في مصر

قد اختاروا سلطاناً جديداً هو خليفة قنصوه الغوري، ويدعى **(طومان باي)**، وقد أرسل إليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح مقابل الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر، غير أن طومان باي رفض ذلك، واستعد للقتال، وكان السلطان **سليم** ييكي في مسجد الصخرة **ببيت المقدس** بكاء حاراً، وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر، وتحرك نحو مصر وقطع صحراء فلسطين، والتقى الطرفان عند حدود بلاد الشام فهزم المماليك، ودخل العثمانيون غزة.

٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ كم

معركة الريدانية سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧م

بعد الانتصارات التي حققها السلطان العثماني **سليم الأول** على أرض الشام، وقبل التوجه لمصر أرسل رسولا إلى الزعيم الجديد للمماليك **طومان باي** يطلب منه الخضوع له، والطاعة للدولة العثمانية، وذكر اسمه بالخطبة، وعرض عليه أن تكون مصر له بدءاً من غزة، ويكون هو والياً عليها من قبل السلطان العثماني، على أن يرسل له الخراج السنوي لمصر، وحذره من الوقوع فيما وقع فيه سلفه قتصوه الغوري. لكن طومان باي رفض العرض، وقتل الرسل بتأثير من أتباعه الجراكسة مما يعني إعلان الحرب على العثمانيين^(١).

بعد مقتل رسل السلطان سليم الأول، قرر التوجه بجيشه صوب مصر بجيش مقداره مئة وخمسون ألف مقاتل، وصحبه كثير من المدافع، واجتاز الصحراء مع جيشه ووصل العريش بتاريخ ١٧ ذي الحجة ٩٢٢هـ الموافق ١١ يناير ١٥١٧م، فقطع صحراء فلسطين، وقد نزلت الأمطار على أماكن سير الحملة مما يسرت على الجيش العثماني قطع الصحراء الناعمة الرمال، وذلك بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة مما يسهل اجتيازها، ووصل الصالحية مع جيشه بتاريخ ٩٢٢هـ بعد أن عبر الصحراء في خمسة أيام وفي أثناء عبور الجيش العثماني للصحراء تعرض إلى **غارات البدو**، وكان السلطان المملوكي يحث البدو على القيام بهذا العمل، وكان يدفع مقابل كل رأس تركي وزنه ذهباً، وقد اشتدت غارات البدو لدرجة خاف الوزير الأعظم من حدوث معركة كبيرة، وقد كادت أن تكلف حياته هو الآخر. **بداية المعركة:** جمع طومان باي ٤٠ ألف جندي نصفهم من أهالي مصر، والنصف الآخر من العسكر المماليك، وفي قول آخر كان عدد جيشه ٣٠ ألف مقاتل. وقد استقدم ٢٠٠ مدفع مع مدفعيين من الفرنجة، ووضعها في **الريدانية** والهدف منها هو مباغطة العثمانيين عند مرورهم والانقضاض عليهم، وحفرت الخنادق، وأقيمت الدشم (الأماكن الخاصة للآليات) لمئة مدفع، وكذلك الحواجز المضادة للخيول على غرار ما فعله سليم الأول في معركة مرج دابق، ولكن استخبارات العثمانيين تمكنت من اكتشاف خطة الجيش المصري^(١).

تمكن والي **حلب المملوكي (خاير بك)** الذي دخل بخدمة العثمانيين من تأمين خيانة صديقه القديم جانبردي والذي كان على خلاف مع السلطان طومان باي، وهو الذي أشار على السلطان سليم بالالتفاف على جيش المماليك. وقد علم طومان باي بالخيانة بعد فوات الأوان، وتردد بمعاقبته خوفاً من أن يدب الخلل في صفوف الجند.

١ - د. فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية.

معركة الريدانية في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢هـ / ٢٢ كانون الثاني ١٥١٧ م

في ٨

محرم ۹۲۳ھ دخـل

العثمانيون **القاهرة**. وانطلق
طومان باي إلى جهات الجيزة يقاتل
العثمانيين، غير أنه سقط أسيراً
بأيديهم، وشنق في ٢١ ربيع
الأول ٩٢٢هـ.

بركة الحج

• المرج

● عین شمس

المطرية •

● سبيل ابن عبد الحكم

• بركة الحاج •

القوات العثمانية

قال

ابن إياس في كتابه

(بدائع الزهور فی وقائع الدهور):

وصلت طلائع عسكر ابن عثمان عند

بركة (الحاج) بضواحي القاهرة،

فاضطربت أحوال العسكر المصرية، وأغلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر.. وأغلقت الأسواق، وزعق النفير، وصار السلطان **طومان باي** راكباً بنفسه وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم، ونادى للعسكر بالخروج للقتال، وأقبل جند ابن عثمان كالجراد المنتشر، فتلاقى الجيشان في **أوائل الريدانية**، فكان بين الفريقين معركة

هولة وقتل من العثمانية ما لا يحصى
(عددهم). ويستطرد ابن إياس فيقول:

(ثم دبت الحياة فى العثمانية،

فَقَتَلُوا مِنْ عَسْكَرِ مَصْرَ مَا

لا يحصى

100 500 1000

نهر النيل

الخليج الناصري

بولاق

قطرة باب البعد

قنطرة قديدار

قطرة السباع

الريـدانية

باب النصر •

باب زويلة

القوات المملوكية

جبل المقطم

مصر القديمة

الجزيرة الوسطى

الدروضة

قام السلطان العثماني بعملية تموهية بعيد اكتشافه للخطة المصرية، بأن أظهر نفسه سائراً نحو العادلية، ولكنه التف وبسرعة حول **جبل المقطم**، ورمى بكل ثقله على المماليك **بالريدانية**، وكانت تلك حيلة جانبردي الغزالي الذي أبلغ خاير بك بذلك، فوَقعت المواجهة بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢هـ الموافق ٢٢ يناير ١٥١٧م.

قال ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور): وصلت طلائع عسكر ابن عثمان عند بركة (الحاج) بضواحي القاهرة، فاضطربت أحوال العسكر المصرية، وأغلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر.. وأغلقت الأسواق، وزعق النفير، وصار السلطان طومان باي راكباً بنفسه، وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم، ونادى للعسكر بالخروج للقتال، وأقبل جند ابن عثمان كالجراد المنتشر، فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية، فكان بين الفريقين معركة مهولة وقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم). ويستطرد ابن إياس فيقول: (ثم دبت الحياة في العثمانية، فقتلوا من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم).

استمرت **المعركة الضارية بين العثمانيين والمماليك** ما بين ٧-٨ ساعات، وانتهت بهزيمة المماليك، وفقد العثمانيون خيرة الرجال منهم سنان باشا الخادم، وقد قتل بيد طومان باي الذي قاد مجموعة فدائية بنفسه، واقتحم معسكر سليم الأول، وقبض على وزيره وقتله بيده، ظناً منه أنه سليم الأول.

وأيضاً فقد من القادة العثمانيين وأمراء الجيش بسبب الشجاعة المنقطعة للمماليك، ولكنهم لم يستطيعوا مواجهة الجيش العثماني لمدة طويلة؛ فقد خسر المماليك حوالي ٢٥ ألف قتيل، **وفرطومان باي من المعركة، ودخل العثمانيون العاصمة المصرية** وقد استغرق منهم الكثير من الوقت والرجال، حتى استكملوا سيطرتهم بالكامل على القاهرة^(١).

بعد هذا النصر المؤزر بقي السلطان العثماني سليم في القاهرة ما يقرب من شهر وزع خلالها الأعطيات، وحضر الاحتفالات، ويقال: إنه قد تنازل له الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله عن الخلافة، وسلمه مفاتيح الحرمين الشريفين، فأصبح السلطان العثماني منذ ذلك اليوم خليفة للمسلمين، وصارت مصر نيابة عثمانية بعد أن كانت سلطنة مملوكية، ولكن الواقع التاريخي يقول: إن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب (خليفة الله في طول الأرض وعرضها) منذ عام ٩٢٠هـ ١٥١٤م، أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان.

في يوم الأحد الموافق (٢١ من شهر ربيع الأول ٩٢٣ هـ = ١٥ من إبريل ١٥١٧ م) أخرج **طومان باي** من سجنه، وسار وسط حرس عدته ٤٠٠ جندي إلى باب **"زويلة"**، حيث نصبت له مشنقة، فتقدم لها هادئ النفس ثابت الجنان، والناس من حوله يملئون المكان، حيث لقي حتفه وسقط ميتاً؛ فصرخ الناس صرخة مدوية تفيض حزناً وألماً، وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام، ثم دفنت في قبة السلطان الغوري، وبموته انتهت دولة المماليك، وسقطت الخلافة العباسية، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

باب زويلة

باب زويلة : هو أحد بوابات أسوار القاهرة التي لم يتبق منها إلا باب النصر والفتوح شمالاً، وقام بتشبيدها القائد العبيدي بدر الدين الجمالي في ٤٨٥ هـ. وهذا الباب هو أحد الحصون الدفاعية لمدينة القاهرة، وكان يستخدم سابقاً كميدان عام لإعدام المذنبين وتعليق رؤوسهم فوقه. وهو ما تم إعدام السلطان المملوكي طومان باي عليه بعد هزازه من معركة الريدانية.



الباب الثالث



النظم والمنجزات الحضارية

٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

برهن حكم سلاطين المماليك في مصر وبلاد الشام والحجاز، على أن الإسلام دين مفتوح للجميع، والأكرم عند الله هو الأتقى، وليس حكراً على جنس، أو عرق، أو طبقة، أو جغرافية، أو لون، وأن الحضارة الإسلامية جاءت نسيجاً من جميع العروق، والأجناس، والطبقات، والمواقع الجغرافية. **فالحضارة الإسلامية** متحصنة بالوحدة والتوحيد لله، ومتسمة بالكمال والشمول والذوق والعفة، ومستعيلة بالألفة والخير، وتسمو بما يقودها إلى الله - سبحانه وتعالى - التزام بطاعته وأخذ بشريعته، ذلك أن الإشكاليات التاريخية المستهدفة لإنسانية الإنسان وحقوقه؛ إنما تركزت حول التمييز بشتى أشكاله، وتسلب الإنسان على الإنسان، وإكراه الإنسان على ما لم يقتنع به. فالقيم التي معيارها وشعارها: « لا إكراه »، مرشحة لورثة الحضارة والإنسانية، واسترداد إنسانية الإنسان في كل مواقعها، وهذا ما أكده المماليك إبان حكمهم فسحبوا الأضواء من معاصريهم.

لقد واجهت الحضارة الإسلامية في أواخر العصر العباسي وبدايات العصر المملوكي؛ هجمات موجعة وتخريبية على **أيدي المغول والصليبيين**؛ (الذين مكثوا زهاء قرنين من الزمن يسرقون ويقتلون وينهبون باسم النصرانية)، قاموا خلالها بسلب حضارة الشرق المجيدة، ونهب خيراته، وهذا ما يفسر نشاط الترجمة لدى الأوروبيين النصارى في القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين. وقد كان لهجماتهم الفاشمة أبلغ التدمير في المجتمع الإسلامي وحضارته وعواصمه الثقافية، لكن المماليك برغم الظروف العصبية التي ألمت بهم فقد جاهدوا وكافحوا ونافحوا للذب عنها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

لقد قامت مجموعة النظم الحضارية الإسلامية في العصر المملوكي على أصرة العقيدة القائمة على الإرادة الحرة والاختيار الحر للإنسان، وبذلك أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس البشرية وكفاءاتها وطاقاتها بحيث أخرجت حضارة إنسانية رائعة تحوي خلاصة الطاقات البشرية في زمانها مجتمعة، ولم تكن هذه الحضارة الإسلامية الضخمة يوماً ما عربية وإنما كانت دائماً إسلامية، ولم تكن قومية ولكنها كانت عقيدية صرفة. فجاءت هذه النظرة الإسلامية الواسعة التي تقبل الحق من أي مصدر كان حينما انتصرت أخيراً على النفمة الشعبية الحاكمة الضيقة، وغلب تيار الفقهاء والمحدثين، وأخذوا بالنظرة الواقعية برغم أنهم مقتنعون بأن (الأئمة من قريش)، كما جاء في الحديث الصحيح، فتولى قيادة المسلمين رجال من أمثال: عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وسلاطين المماليك كالظاهر بيبرس، ومحمد بن قلاوون، وبرسباي، وقايتباي؛ الذين تصدوا للهجمات المغولية والصليبية، ورجال قادوا الفتوحات لنشر الإسلام، من أمثال: محمود الغزنوي ومحمد الفاتح، وهؤلاء كلهم يمثلون الحضارة الإسلامية في أوسع معانيها دون تعصب وانغلاق، ومثلهم الأعلى في ذلك سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم وآله، وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

نظام الحكم والإدارة

أولاً: منصب السلطنة ... سار المماليك في تعيين سلاطينهم على مبدأ الاختيار بين الأمراء الأقوياء، لا على مبدأ الوراثة، فلم يكن للابن الأكبر للسلطان حق في التولية بعد أبيه، فهناك مجالس الشورى السياسية، مثل: مجالس تولية الخلفاء العباسيين في مصر، وكيفية اختيار الخليفة، والمجالس التي قامت باختيار السلاطين وتوليتهم، والمجالس التي قامت بعزل بعض السلاطين، وأسباب ذلك، وكيفية اختيار السلاطين. و(مجالس الشورى الإدارية والاقتصادية)، والمجالس الإدارية التي تنحصر في مجالس اختيار الولاة والموظفين، ومجالس اختيار قضاة المذاهب الأربعة وتعيينهم، ومجالس محاسبة الموظفين، الذين ثارت حولهم الشكوك، وتورطوا في اختلاس الأموال. ثم (مجالس الشورى الدينية)، مثل: مجالس الدعاوى، والمجالس التي كانت تعقد لمناقشة المنازعات بين الأفراد حول العقارات أو الأوقاف، ومجالس الفتاوى الدينية التي عقدها سلاطين المماليك للاسترشاد بها في بعض الموضوعات المهمة، ومنها - أيضاً - مجالس استئناف أحكام القضاة، ومجالس شورى المظالم التي كان **يعقدها السلاطين** لمناقشة الشكاوى التي يرفعها إليهم أفراد الشعب ضد الأمراء والموظفين. وكذلك مجالس الشورى الخاصة، ومجالس المناظرات الدينية، ومجالس تعيين مدرسي المدارس الدينية، ومناقشة مدى صلاحيتهم لهذه الوظيفة.

وتعود قصة اختيار أول حاكم لهذه الدولة عند وفاة السلطان الصالح أيوب في المنصورة، وكانت الحرب قائمة ضد الصليبيين بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا عند غزوهم دمياط وكانوا متجهين إلى القاهرة، فجلب المماليك ابنه توران شاه من حصن «كيفا» كي يقود الحرب ويستلم الحكم، وبعد انتهاء معركة المنصورة وأسر لويس التاسع ارتقت شجر الدر سدة الحكم - بعد أن أخفت وفاة زوجها أول الأمر حتى لا يرتبك الناس - وبرغم ذلك لم تعترف الخلافة العباسية بها، وكذلك الأيوبيون في دمشق فقد أربك المماليك في مصر، وأقلقهم فراحو يفكرون في وسائل توفيقية ترضي الأيوبيين والخليفة العباسي وتمنحهم شرعية لحكم البلاد، فقرر المماليك تزويج شجر الدر من أيك، ثم تنازل له عن العرش، فيرضى الخليفة العباسي بجلوس رجل على تخت السلطنة، ثم البحث عن رمز أيوبي يشارك أيك الحكم أسماً فيهدأ خاطر الأيوبيين ويرضوا عن الوضع الجديد.

تزوجت شجر الدر من أيك، وتنازلت له عن العرش بعد أن حكمت مصر ثمانين يوماً بإرادة صلبة وحذق متناه في ظروف عسكرية وسياسية غاية في التعقيد والخطورة، بسبب غزو العدو الصليبي للأراضي المصرية وموت زوجها سلطان البلاد الصالح أيوب، بينما الحرب ضد الصليبيين دائرة على الأرض الواقعة بين دمياط والمنصورة. نصب أيك سلطاناً، واتخذ لقب الملك المعز.

ثانياً: الجهاز الإداري .. ويتكون من عدد من المناصب أهمها:

١ - الوزارة: تجيء في المرتبة الثانية بعد مرتبة السلطان، إلا إذا وجدت وظيفة (النائب) أو (نائب السلطنة)، فعندئذ يكون الوزير في المرتبة الثالثة بعد السلطان ونائبه. وعند تعيين الوزير يقام حفل كبير، يقرأ فيه التقليد للرتبة، وترسل الأخبار إلى جميع أنحاء البلاد بتولية الوزير.

وبياشر الوزير عمله في مكان يعرف بـ (المجلس العالي) ويسمى أيضاً (دار الوزارة) ومقرها القلعة، حيث يقيم السلطان، فيكون الوزير قريباً فيستشيريه في تعيين أمراء الممالك في المناصب، وفي تعيين الوظائف الديوانية والدينية، وتوزيع الإقطاعات، وتدير الشؤون المالية. لكن الملاحظ أن رتبة الوزير في العصر المملوكي قد تضاءل شأنها كثيراً عما كانت عليه من قبل، حتى إن بعض الوزراء اقتصرت مهامهم على الحضور الشرفي في الموكب الرسمية وحفلات القصر، أو عند النظر في المظالم، بل إن بعض السلاطين المماليك سعوا إلى السلطة المطلقة، فألغوا رتبة الوزارة نهائياً، واكتفوا بكبار الكتاب دون تعيين وزير.

٢ - ديوان الكتاب: ويتم تعيين كبار الكتاب بمراسيم سلطانية، ويتصل بهم السلطان عن طريق موظف يدعى (مقدم الخاص).

ويقوم كبار الكتاب بدورهم بتعيين طبقة من الكتاب الصغار. ويراعى في اختيار الكتاب أن يكونوا من بين الأسر التي عمل أفرادها من قبل في دواوين الدولة، وأن يكون الكاتب متمكناً من ناصية اللغة العربية وله إلمام باللغة التركية؛ لأجل التفاهم مع الأمراء المماليك الذين كان معظمهم يتكلم التركية. ويجرى على الكتاب أرزاق شهرية (مالية وعينية)، وتمتاز طبقة الكتاب بملابس خاصة تميزها عن غيرها من موظفي الدولة، إذ كان لكل طبقة من الموظفين أزياء خاصة بهم.

٣ - ديوان الإنشاء: يشرف على الديوان أحد رجال القلم، ويتلقب بـ (صاحب ديوان الإنشاء)، ويسمى أحياناً بـ (كاتب السر) لأنه يكتب أسرار الدولة، وخصص لهذا الديوان مكان في القلعة عرف بـ (قاعة الإنشاء)، ويقع تحت نظره عدد من الكتاب الذين يرافقون السلطان مع رئيسهم، ولا سيما عند النظر في المظالم.

ويعد ديوان الإنشاء من أهم الأعمال الديوانية عند المماليك، لأنه يُعنى بعدد من الأعمال المهمة، مثل: المكاتبات التي تصدر من السلطان (وهي المراسيم السلطانية أو المناشير).

ويدخل في اختصاص رئيس ديوان الإنشاء؛ البريد. لأنه يحمل مكاتبات السلطان ورسائله إلى الأمراء والقادة، وتنقل هذه الرسائل عبر (خيل البريد) أو **(حمام الرسائل)** حيث أنشأ المماليك للخيل، ووسمت خيل البريد بعلامة مميزة، فلا يسمح لأحد بركوبها إلا بأذن من السلطان، كما أوجدت مراكز عبر الطرق لاستراحة الخيل، وهي مزودة بخيول جديدة وجميع ما يحتاج إليه المسافرون من زاد وعلف. وأنشأ المماليك **أبراجاً للحمام** تشبه مراكز بريد الخيل، ويراعى أن تكون الرسائل التي يحملها الحمام من ورق خفيف، وأن توضع تحت جناح الحمام لحفظها من المطر، وأن لا يقتصر فيها على كتابة المضمون فقط، وحرصاً على وصول الرسالة فإنها تكتب من صورتين وترسلان مع حمامتين. ويصبغ الحمام بلون أزرق كلون السماء لئلا يرى في النهار، أو يطلى بالسواد لكي لا يراه العدو ليلاً.

٤ - ناظر المال: ويسمى أيضاً (صاحب المال) و (ناظر المال) ويطلق على وظيفته (ديوان النظر)، وهو يشارك الوزير في تدبير الشؤون المالية للدولة، وعندما لا يكون هناك وزير؛ يصبح منصب ناظر المال من أهم المناصب، ويطلق عليه مثل ألقاب الوزير ك (الصاحب) وعلى منصبه (الصحة الشريفة). ويليهِ في الأهمية موظفان ماليان كبيران، يسمى أحدهما (مستوفي الصحة) ويسمى الآخر (مستوفي الدولة)، ومهامهما ضبط الموارد المالية في كافة أنحاء البلاد.

٥ - دار السكة (دار الضرب): هي الدار التي تصنع فيها العملة النقدية، ويعمل فيها عدد من الموظفين، يسمون (معلمي دار الضرب) ويسمى رئيسهم (ناظر دار الضرب). وتتكون العملة في العصر المملوكي من الدينار الذهبي، والدرهم الفضي، والفلوس النحاسية، وينقش على أحد جانبي العملة عبارات دينية تبدأ بالبسملة فالشهادتين، وينقش على وجهها الآخر اسم السلطان وسنة سك العملة ومكانها.

٦ - نظام الولايات: قسم المماليك أرض مصر إلى أربع عشرة ولاية، يشرف على كل منها (والي)، وجميع الولاة من الأمراء المماليك، ويتم تعيينهم بمرسوم من السلطان، ويساعد الوالي في عمله نواب للقضاء، يتبعون في عملهم قاضي القضاة المقيم في القاهرة، كما يساعده ناظر للمال وناظر للبريد وخفراء.

وقسم المماليك بلاد الشام إلى ست نيابات، يرأسها جميعاً نائب الشام، ومقره في دمشق، وأحياناً في حلب، وتحت نظره هيئة إدارية كاملة من قضاة ووزراء وحجاب وكتاب إنشاء وموظفين للمال. ونائب الشام يشرف على (نواب السلطنة) وهم من كبار الأمراء المماليك الذين جرى تعيينهم في نيابات الشام الست، وهناك نواب أقل درجة من هؤلاء، يعينون في قلاع الشام العديدة، ويسمى الواحد منهم (نائب القلعة).



٧ - القضاء: اعتاد المماليك على تعيين أربعة قضاة في القاهرة وفق المذاهب الإسلامية الأربعة، ويسمى كل واحد منهم (قاضي القضاة)، حيث يجري تعيينه في احتفال مهيب، وقد اتسعت سلطة قاضي القضاة فكان يعين قضاة في الأقاليم، ويتولى الخطابة في الجامع الأعظم، ويجلس لتعليم العلوم الشرعية، إلى جانب كونه حلقة وصل بين السلطان والرعية؛ إذ يستشير السلطان في بعض مهامه العليا. ولكل قاضي قضاة أعوان ينوبون عنه يطلق عليهم (النواب من الحكام).

ويجلس القاضي للفصل بين المتخاصمين في المسجد، أو في موضع واسع وسط البلد يعرف بـ (مجلس الحكم)، ويساعده في أداء مهامه حاجب يقف على الباب، وكاتب يسجل الأحكام، و (جلواز) يحمل بيده سوطاً لحفظ النظام، وترجمان بسبب كثرة المماليك من الترك إضافة إلى وجود التجار الأجانب. ويستلم مرتبات مالية ثابتة تسمى (معلوم) إضافة إلى بعض المخصصات من المؤن الغذائية.

٨ - النظر في المظالم: هو الفصل في المشكلات المستعصية على القضاة العاديين، فحينئذ ترفع مباشرة إلى صاحب السلطة العليا فينظر فيها، ويعقد النظر في المظالم في دار العدل بالقلعة (مقر السلطان)، ويباشر السلطان المملوكي النظر فيه بنفسه يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، ويحضر معه الوزير وناظر المال وناظر الجيش والقضاة الأربعة وكتاب الإنشاء.

٩ - الحسبة: توسع المماليك في تعيين المحتسبين مثلما توسعوا في تعيين القضاة، وكان لكل محتسب نواب لمساعدته في عمله، وقد أدى المحتسبون دوراً أخلاقياً في المجتمع؛ فيمنعون التزاحم في الطرقات، ويشرفون على نظافة الماء، وسقاية المارة، ويبادرون إلى مكافحة الغش في الأسواق، ويراقبون الآداب العامة.

١٠ - الشرطة: ومهمتها حفظ الأمن في المدينة ليلاً ونهاراً، وتنفيذ العقوبات الشرعية على الجناة، ويساعد والي الشرطة في عمله عدد من الموظفين هم: الأعوان والخفراء والعسس والسجانون والمشاعلية.

١١ - الجيش: خصص المماليك ديواناً للإشراف على الجيش يسمى (نظارة الجيش)، ويعنى بتسجيل أسماء الجنود وأعدادهم ونفقاتهم وأسماء قادتهم.

ويقوم السلطان بتوزيع الإقطاعات على الجيش، ويشرف ناظر الجيش على عدد من الكتاب العاملين معه ويسمى (كاتب الجيش)، ويتكون نظر الجيش من قسمين: أولهما؛ يعرف بـ (ديوان الجيش المصري) وهو خاص بجيش مصر، والثاني يعرف بـ (ديوان الجيش الشامي) لجيش الشام، ويشرف على كل منهما موظف كبير في الديوان يدعى بـ (مستوفي الجيش) ويختص بمصادر الإنفاق على الجيش. ويسمى قائد الجيش عند المماليك (أتابك العسكر)، ويليه في الرتبة (الأمراء)، أما الأمراء العاملون فهم على درجات

الجيش زمن السلاطين المماليك:

توصف دولة سلاطين المماليك بأنها دولة إقطاعية حربية، يبدأ الفرد فيها مملوكاً يشتريه أحد الأمراء ويدربه على فنون القتال، ليصبح فيما بعد مع كفاءة ما في مرتبة الأمراء، ثم ما يلبث هذا الأمير أن يقتني ممالك آخرين ويعمل على تنشئتهم عسكرياً وهكذا دواليك.

وكانت العادة أن يتقاضى المملوك في بداية عهده راتباً يطلق عليه لفظ "جامكيه"، ثم ينتقل حين يصبح فارساً ليحصل على إقطاع، ثم يتدرج في المراتب ليصبح "أمير خمسة" ومن أمير خمسة إلى "أمير عشرة" ومن أمير عشرة إلى "أمير طبلخان" - أمير طبلخان هو الأمير الذي ترافقه النوبة أي مجموعة من العسكر معهم طبل ومزمار يعزفون - ومن أمير طبلخان إلى "أمير مئة"، ويسمى أيضاً "أمير مقدم ألف".

وكلما ازدادت مرتبته ازداد إقطاعه، وكان السلطان يمنح الإقطاع بنفسه مهما قلّ أو كثر، ويأخذ المملوك بذلك ورقة كان يطلق عليها اسم "المثال".

وكان ديوان الجيش هو المعنى بسجلات الإقطاع والمتولي أمور الجيش، ويقف على رأسه "ناظر" يساعده مجموعة من كبار الموظفين، أبرزهم "صاحب الديوان" ويسمى أيضاً "نائب الناظر" ثم يليه "مستوف الجيش" - وهو المسؤول المالي في الديوان - مع مجموعة كبيرة من الكتاب والشهود.

- فرق الجيش المملوكي:

يتألف الجيش المملوكي من ثلاث فرق رئيسة هي:

١- **الفرقة الأولى:** هي طائفة المماليك السلطانية، وهم مماليك السلاطين الحاكمين، ويكونون في العادة أكثر المماليك إقطاعاً ونفوذاً وجاهاً ومن هذه الفرقة يؤمّر الأمراء.

٢- **الفرقة الثانية:** هي طائفة مماليك الأمراء إذ كان لكل أمير مجموعة من المماليك ترافقه في حله وترحاله وتكون معه في ميادين القتال.

٣- **الفرقة الثالثة:** هي فرقة أجناد الحلقة، وهم مماليك السلاطين والأمراء السابقين، وهم جند الدولة الثابتين، ويشرف على كل ألف منهم "أمير مئة".

- ولقد توافر في الجيش المملوكي إمكانات ضخمة، وتميز هذا الجيش بحسن نظامه وانضباطه ودقة تدريبه، وهذا ما ساعده على الوقوف بوجه الصليبيين والمغول، علاوة على ذلك قام هذا الجيش بغزو البلاد في شرقي دولته وغربها.

- وكانت العادة أن يعود السلطان إلى مجلس الجيش قبل أن يقوم بأي حرب، وكان هذا المجلس يضم كبار الأمراء والخليفة والقضاة الأربعة، وإذا ما تقرررت حملة أو حرب يجمع الجيش ويقسم على الولاء والطاعة فتفتح "السلح خانة" (دار السلاح) وتوزع الأسلحة.

- وكان الجيش في العادة يقسم في الحرب إلى مجموعات عدة تتألف من مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقلب (تطبيق نظام الكراديس).

- وكانت الطبول تدق وكذلك المزامير (الزمرور)، وكان لكل فرقة من فرق الجيش أعلام ورايات.

- ومما يجدر التنويه به أن جيش المماليك كان يهتم اهتماماً بالغاً بالفرسان وخيولهم إلى حد فاق الوصف.

أ. أحمد حردان: الشامل للتاريخ والفن الإسلامي (الجيش والبحرية زمن السلاطين المماليك).

فمنهم (الأمراء المقدمون أو مقدمو ألوف) أي تحت قيادتهم ألوف من الجنود، ومنهم (أمراء الطبلخاناه)، وهم من يتولى دق الطبول وغيرها من الآلات في المواكب الرسمية أو حين التوجه في أمر مهم.

١٢ - الأسطول: خصص الممالك جزءاً من ميزانيتهم للنفقة على إعداد قوة بحرية مجهزة بما تحتاجه من المقاتلين وآلات الحرب، فشكّلوا أسطولاً من السفن المختلفة الأحجام، وقد نجح الأسطول المملوكي في طرد الصليبيين من ثغور الشام البحرية، وامتدت سيطرتهم إلى جزيرة قبرص. لكن الاهتمام بتطوير الأسطول تضاءل في أواخر عصر الممالك، حتى تفوق البرتغاليون عليهم في معركة ديو البحرية.

مستند تاريخي

ذكر غرق البطسة الإسلامية

قال ابن شداد: « وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد ولما كان السادس عشر، وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمسير والرجال والأبطال المقاتلة، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً فأغرقها الأنكثار في عدة **شوان** قيل كان فيها أربعون قلعة، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوا قتالاً عظيماً، وقتل من العدو عليها خلق عظيم، وأحرقوا للعدو **شانياً كبيراً** فيه خلق عظيم؛ فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب؛ فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، وأنهم لا بد وأن يقتلوا، قال: والله لا نقتل إلا عن عزم، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها، ولم يزاولوا كذلك حتى فتحوها عن جانب أبواباً؛ فامتلات ماء فغرق جميع ما فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك، ولم يظفر العدو منها بشيء، وكان اسم المقدم المذكور يعقوب من رجال حلب، وتلقف العدو بعض من كان فيها، فأخذوه إلى **الشواني** من البحر وخلصوه من الغرق، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً، والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله، والصبر على بلائه، والله لا يضيع أجر المحسنين ». النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

البحرية زمن السلاطين المماليك:

وصفت دولة سلاطين المماليك بأنها دولة البرين (البر المصري و البر الشامي) والبحرين (البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر) ، ولما قامت دولة السلاطين المماليك بعيد حملة " لويس التاسع " وهي حملة بحرية إلا أن المماليك حققوا انتصارات رائعة على الجيش الصليبي وملكه.

فكان من الطبيعي أن يهتموا بالبحرية أهمية بالغة، فبدأ " بيبرس " ببناء السفن التي كانت تعرف يومها بـ " الشواني " وذلك في ميناء الاسكندرية و " دمياط " ، وكان " الظاهر بيبرس " ينزل بنفسه كلما سئحت له الفرصة لزيارة " دار الصناعة " - مكان صناعة السفن ومستلزماتها من مدافع وتسمى (ترسانة) في اللغات الأجنبية - ولقد بلغ عدد السفن في عهد " بيبرس " (٤٠) من نوع " الشواني " عدا " الحرايق " (جمع حراقة) و " الطرائد " (جمع طراة) . وفي الحملة البحرية التي أرسلت إلى " قبرص " خسرت البحرية المملوكية (١١ مركباً) من نوع " الشواني " في ربح عاتية أجبرت الأسطول المملوكي إلى الرجوع دون أن يكمل مهمته، وليبني بدلاً عن السفن التي غرقت ضعف عددها، وقد استمر السلاطين المماليك يهتمون بالبحرية حتى استطاع " برسباي " غزو جزيرة " قبرص " وضمها إلى دولته، وكذلك " رودس " مرات عدة لمحاربة بقايا الصليبيين.

أما أبرز ما يميز الأسطول المملوكي في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية جنوب الجزيرة العربية وعلى شواطئ الهند وتهديدهم للبلاد الإسلامية وتجارها، مما جعل السلطان " قنصوه الغوري " يجد في إعادة بناء بحرية متطورة ومزودة بالمدافع وقادرة على المناورة. وقد تم للبحرية المملوكية الانتصار على البرتغاليين في " جاول " على شواطئ الهند، لكنها منيت بهزيمة منكرة في " ديو " (عام ١٥٠٩ م) على سواحل الهند، وهذه الهزيمة كانت عاملاً من عوامل سقوط دولة المماليك على يد العثمانيين.

- أما أهم أنواع السفن الحربية التي عرفت زمن السلاطين المماليك:

١- **الشواني:** مفردها " شيني " ، وهي كبيرة الحجم ذات أبراج وقلاع تستعمل للدفاع والهجوم و بحارتها بحدود (١٥٠) ومزودة (١٠٠) مجداف.

٢- **الحرايق (الحراقات):** مفردها " حراقة " ، وهي أصغر من الشيني، وكانت تتميز برشاقتها ورميها النيران.

٣- **الطرادات:** مفردها طراد أو طراة، وهي سفينة سريعة الكرو الفر، وتستخدم لحمل الخيول ، حيث تحمل ما يتراوح بين أربعين وثمانين فرساً.

٤- **الأغرية:** مفردها غراب، وسميت بذلك لأن رأسها يشبه الغراب، وهي سفينة كبيرة عدد المجاديف فيها يبلغ (١٨٠ مجدافاً) وتستعمل لنقل الجند ، والغراب إجمالاً مزوداً بجسر من خشب يستعمل للهبوط إلى سفينة أخرى ويتم القتال فيه كما في البر.

٥- **البطس:** جمع بطسة، وهي سفينة كبيرة ذات أشعة كثيرة (٤٠ شراعاً) تستعمل لحمل الجند، وتصل حمولتها إلى (٧٠٠ مقاتل) فضلاً عن بحارتها والأسلحة والذخيرة والفلال والميرة التي تحملها، ولها أسطح عالية وطبقات متعددة .

٦- **المسطحات:** ومفردها مسطح ، وهي من أكبر سفن الأسطول العربي الإسلامي، وهي ضخمة الحجم تشبه البطسة، وكانت تسير خلف السفن، ومهمتها الإبحار خلف السفن الأخرى خشية أن تصادف منطقة ضحلة أو قليلة العمق فعندئذ تتدارك المسطحات ذلك الأمر؛ لأن غاطسها قليل العمق في الماء. أ. أحمد حردان: المرجع السابق.

أ. أحمد حردان: الشامل للتاريخ والفن الإسلامي (الجيش و البحرية زمن السلاطين المماليك).

الأوقاف في العصر المملوكي^(١)

تأملات في الوقف

الوقف (لغة): يعني الحبس أو المنع. و(اصطلاحاً): حبس العين عن تملكها لأحد من العباد، والتصدق بالمنفعة على مصرف مباح.

ويشمل الوقف (الأصول الثابتة) كالعقارات والمزارع وغيرها، ويشمل (الأصول المنقولة) التي تبقى عينها بعد الاستفادة منها كالألات الصناعية والأسلحة، أما التي تذهب عينها بالاستفادة منها فتعد صدقة كالنقود والطعام وغيرها.

ويختلف الوقف عن الصدقة في أن الصدقة ينتهي عطاؤها بانفاقها، أما الوقف فيستمر العين المحبوس في الإنفاق في أوجه الخير حتى بعد الوفاة.

والوقف في **عصر المماليك** اتسع مداه وكثر كثرة ملحوظة، واتسع نطاقه وأنشئ له ثلاثة دواوين للإدارة والإشراف عليه مثل:

١. ديوان لأحباس المساجد.
٢. ديوان لأحباس الحرمين الشريفين وجهات البر المختلفة.
٣. ديوان للأوقاف الأهلية.

في عصر الدولة المملوكية انتشرت الأوقاف انتشاراً عظيماً، حتى شملت أراضي كثيرة في مصر والشام، وقد اعتنى المماليك بالأوقاف وأكثروا منها، ونتيجة لذلك خففت الأوقاف على الدولة عبئاً كبيراً من مرتبات أئمة المساجد، والمصالح الخاصة بتلك المساجد، والعناية بها، وأصبحت الأوقاف رافداً يمد بيت المال في الدولة المملوكية عند الحاجة إليه، حتى إن الدولة أخذت أموال الأوقاف على سبيل القرض في عام (٦٤٩ هـ) نظراً للحاجة إليها.

كذلك اهتم **سلاطين المماليك بالوقف على الحرمين الشريفين** اهتماماً كبيراً، ويدل على ذلك ما أنفقوه وأوقفوه على هذه البقاع المقدسة، أو ما يتصل بهما من خدمات، أو أماكن، وكذلك تسهيل الطرق الموصلة إليهما، وما يحتاجانه من خدمات وحماية.

وتتمثل تلك الأوقاف في قرى ومنشآت في كل من مصر والشام، خصصت للصرف والإنفاق على الحرمين، وما له صلة بهما.

وقد ذكر هذا في بعض المصادر التاريخية المعاصرة للدولة المملوكية، وقد دلت على تلك الأماكن الموقوفة وثائق وقفية مهمة، يُحتفظ بها في دور المخطوطات المهمة بذلك، وتشتمل تلك الوثائق في مجموعة من الحجج الشرعية التي أوقفها السلاطين والأمراء وغيرهم للصرف على تلك الأماكن المقدسة.

ويحدثنا التاريخ كذلك أن الأوقاف في العصر المملوكي في مصر قد ازدهرت وتنوعت وعمت كل شيء تقريباً، وعظم ريعها، مما جعلها مطعماً للحكام في ذلك الوقت، وساعد الحكام على الاستيلاء عليها وحلها ضعاف النفوس من بعض العلماء والقضاة، حيث أفتوا الحكام بحل أوقاف السلاطين السابقين، وأحياناً كان الحكام ينفذون رغباتهم دون الرجوع إلى الفقهاء والقضاة.

وقد ذكر المقرئ في خطه: أن الناصر محمد بن قلاوون حاول أن يستولي على النصف من أحباس المساجد التي بلغت (١٣٠) ألف فدان، ولكنه قبض قبل أن يتم له شيء مما أراد. يقول أبو زهرة: كان هذا يجري في القرن السابع والثامن وما يليه، وبذلك صارت الأوقاف نهباً مقسوماً.

ومع ذلك فقد وجد من العلماء الربانيين من أنكروا هذا الفعل، وسجل لهم التاريخ بماء من الذهب، مواقف مشهورة للتصدي لهذا العدوان، ومن أمثال هؤلاء شيخ الإسلام **العز بن عبد السلام**، والإمام **النووي** رحمهما الله تعالى.

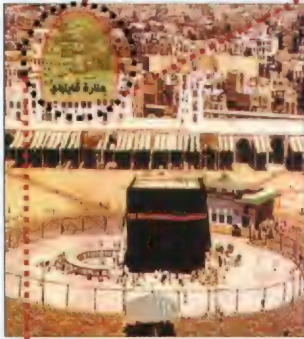
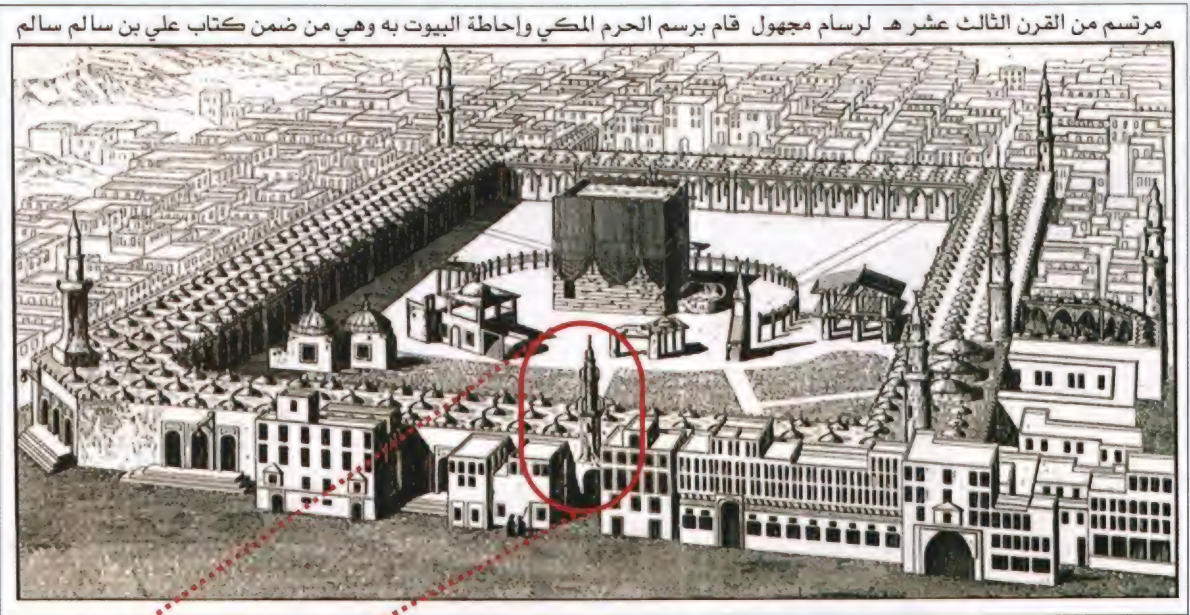
ومن هذه المواقف: أن الظاهر بيبرس اضطر إلى فرض ضرائب كثيرة في مصر والشام بسبب الحروب مع التتار، وقد سلك طرقاً في الاستيلاء على الأراضي كلها والأوقاف من بينها، وقد جرت مساجلات بينه وبين العلماء، وذلك أنه جاء إلى كل مالك لعقار، وطلب منه أن يقدم المستند الدال على ملكيته، فإن كان المستند مثبتاً تركه، وإن لم يجد مستنداً، وذلك هو السائد، قام الملك بالاستيلاء عليه. ولكن الإمام النووي تصدى له وخاطبه بقوله: إن ذلك هو غاية الجهل والعناد، وأنه لا يحل عند أحد من علماء المسلمين، ومن في يده شيء فهو ملكه، لا يحل لأحد الاعتراض عليه، ولا يكلف إثباته، فاليد دليل الملك ظاهراً. وما زال النووي يعظه حتى كف الظاهر عن رغبته في امتلاك أراضي مصر. وقد سجل السيوطي في كتابه حسن المحاضرة طائفة كبيرة من المكاتبات التي جرت في هذا المقام بين العلماء وبين الظاهر بيبرس.

وشهد القرن الثامن الهجري أنواعاً متنوعة من ظلم الحكام وتعديهم على الأوقاف وغصبها، حتى ما كان منها على الحرمين الشريفين، ويتم ذلك عن طريق بعض القضاة الجشعين.

وكما سجل التاريخ المواقف الحميدة للعلماء الذين تصدوا للحكام، سجل كذلك المواقف السيئة لبعض قضاة ذلك العصر، فقد سجل على قاضي القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفي ظلمه في الحكم بما يرضي شره الأمير جمال الدين، في اغتصاب الأوقاف. وكذلك سجل على قاضي القضاة شرف الدين الحراني ظلمه في إصدار حكمه إرضاء لشره الملك الناصر محمد بن قلاوون.

يقول المقرئ: وكان هذا الحكم مما شنع عليه فيه، ثم اختلفت الأيدي في الاستيلاء على هذه الدار، واقتدى القضاة بعضهم ببعض في الحكم باستبدالها، وكان الاستبدال هو طريق التحايل على الأوقاف، بأن يشهد الشهود بأن هذا القصر يضر بالجار والمار، وأنه مستحق للإزالة والهدم، فيحكم قاضي القضاة باستبداله، وأكثر من تولي كبر ذلك من الولاة: جمال الدين يوسف، والذي عاونه في تحقيق شرهه قاضي القضاة: كمال الدين عمر بن العديم الحنفي، فتظاهرا معاً على نهب الأوقاف، وصار كل من يريد بيع وقف، أو شراء وقف، سعى بهذه الطريقة عند القاضي المذكور بجاء أو مال فيحكم له بما يريد.

وبذلك صارت الأوقاف نهباً مقسوماً باسم الاستبدال للحكام، يعينهم في ذلك فسقة بعض القضاة والشهود، جرى ذلك في القرن السابع والثامن، وكان لهذا الجور، أثره في الفقهاء الذين عاصروا ذلك الأمر وأشباهه، فلا عجب أن رأينا بعض الفقهاء يتشدد في موضوع الاستبدال أيما تشدد، حتى إنهم اشترطوا أن يكون القاضي الذي يحكم بالاستبدال عالماً عادلاً، وهو الذي يعبر عنه بقاضي الجنة وحاول العلماء الاحتياط، ولكن ذهب احتياطهم صرخة في واد؛ لأن الأوقاف كغيرها من الأموال لا تحمي بالشروط وإنما تحمي بالعدالة، والعلم في القضاة، والنزاهة في الولاة. أ. هـ .



منارة قايتباي

في عام ٨٨٢ هـ قام السلطان المملوكي قايتباي، ببناء منارة من الجهة الشرقية بين باب النبي صلى الله عليه وسلم وباب السلام، كما أنشأ باباً سماه باسمه، وهو نافذ من المسجد الحرام إلى شارع المسعى وكتب عليه **اسم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي**، كما قام بعمل ٧٢ غرفة صغيرة، ومجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام، ومكتباً ومنارة، وصير المجمع المذكور مدرسة، وقرر فيه أربعة مدرسين على المذاهب الإسلامية الأربعة، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم، وجعل مقرها المدرسة، وبنى دوراً عدة في جهة شارع المسعى تجني كل عام ٢٠٠٠ ذهبية.

أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي

« ونسج على منوال من سبق السلطان الأشرف برسبائي الذي أكثر من أوقافه على الحرمين الشريفين، إلى حد أنه وقف بلاداً بأكملها في هذا الصدد، وجاء في حجة وقف برسبائي، المؤرخة في ١٦ من جمادى الآخرة سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م، أن الأعيان الموقوفة هي: "مجموعة أراضٍ ناحية الحمرا بالأعمال الجيزية، وأراضٍ ناحية أبورجوان بالجيزة" ومن حيث أوجه الصرف نصّت هذه الوثيقة على أن: "يصرف لقارئ بالحرم المكي ٢٤ ديناراً أشرفياً سنوياً، و٢٤ ديناراً أشرفياً سنوياً لقارئ بالحرم النبوي".

كما اهتم الواقفون بشؤون الحرمين الشريفين، ويدل على ذلك حجج وقفهم التي عينت قراء لتلاوة المصحف الشريف في رحابهما، لما للقرآن الكريم من فضل عظيم على الواقف والقارئ، كما اشترط الواقفون في المقرئين شروطاً منها أن يكونوا "ذوي أصوات حسنة، ونغمات مستحسنة، وطريقة في التلاوة جيدة، جاهرين بالأصوات، عارفين بالقراءة مع الجماعات".

وكان القراء في الغالب ينقسمون إلى قسمين: قراء المصحف، وكانوا عادة بين الاثنين والثلاثة يقرأون القرآن في المصحف بالتناوب فيما بينهم، بحيث يقرأ القرآن في كل يوم من قبيل الظهر إلى صلاة الظهر، ومن قبيل العصر إلى صلاة العصر، أما القارئ الثالث فيقرأ في نهار الجمعة، وفي بعض الأحيان يكتفي الواقف بقارئين، أحدهما يتولى القراءة في أيام الأسبوع ماعدا الجمعة، والثاني يتولى القراءة يوم الجمعة، ويدل على ذلك ما جاء في وثيقة السلطان الأشرف قنصوه الغوري، المؤرخة في ٢٦ من محرم سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، والأعيان الموقوفة بها هي أماكن بجهات متعددة بمصر المحروسة.

وأوجه الصرف فيها هي: "تعيين من يتولى وظيفة قراءة مصحف شريف على أن يقرأ تجاه البيت الشريف في الحرم الشريف في كل يوم ما تيسر له قراءته من القرآن العظيم في أي وقت تيسر من الليل والنهار، ويختم قراءته بسورة الإخلاص، والمعوذتين، وفاتحة الكتاب العزيز، وفواتيح سورة البقرة، وخواتيمها، ويذكر الله تعالى، ويصلي على النبي - صلى الله عليه وسلم - ويدعو بذلك ويهدي ثواب قراءته وأذكاره وصلواته لسيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه أجمعين، ثم إلى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ثم إلى الآل، والصحابة، والتابعين، والعلماء، والصالحين، ثم لمولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الأشرف أبي النصر قنصوه الغوري وأولاده وذريته والمسلمين ويصرف ما جملته من الذهب الموصوف عشرة دنانير على ذلك وعلى أن يقرأ في كل يوم في مصحف شريف ما تيسر له قراءته من القرآن العظيم في الحرم الشريف، والروضة الشريفة تجاه الحجرة الشريفة، ويصرف لذلك عشرة دنانير". أحمد هاشم بدر شيني، أوقاف

الأسبلة في العصر المملوكي^(١)

أصبح إنشاء الأسبلة ظاهرة معمارية واضحة في العصر المملوكي بشكل عام، وفي مدينة القاهرة بشكل خاص، حيث ارتبطت بحاجة تزويد المارة في شوارعها بماء النيل العذب. وقد أنشئت هذه الأسبلة إما ملحقة بالمنشآت الأخرى كالمساجد والمدارس والخنقاوات وغيرها أو مستقلة بذاتها، وتوزعت على جميع أنحاء المدينة وشوارعها الرئيسية والثانوية، وارتبطت تخطيطها بهذه الشوارع إلى حد كبير، وكانت مصدراً مهماً يرد إليه الناس للشرب.

وأكثر سلاطين وأمراء المماليك من إنشاء هذه الأسبلة في المدينة ابتغاء وجه الله الكريم، ورغبة في تطبيق سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم، فقد روي عن عثمان أنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة؛ فيجعل دلوها فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة "فاشتريتها من صلب مالي وجعلتها للمسلمين".

وربما ارتبطت هذه الرغبة وتأكيدا في إنشاء هذه الأسبلة بطبيعة المماليك، الذين طالما رغبوا في أن يظهروا أمام الأمة بأنهم أهل خير ومعروف، وأنهم يعملون على خدمة الدين وأهله، وربما كان ذلك لإضفاء نوع من الشرعية على حكمهم، وهو أمر جعلهم يحاولون بشتى الوسائل إثبات ذلك، ومكنتهم الظروف من ذلك بعدما سقطت بغداد وحملوا لواء الجهاد الإسلامي، وهدفوا بعد أن استقرت الأمور إلى تأكيد اهتمامهم بالدين وتعاليمه، فأنشئوا الكثير من المنشآت الدينية كالمساجد والمدارس والخنقاوات ومكاتب الأيتام "الكتاتيب" التي وفرت نوعاً من الحياة الراغبة لطبقة مثقفة، فاحتوتهم في صالحها، وكانت الأسبلة وحدات معمارية من بين هذه المنشآت الخيرية، التي أكثروا من بنائها تحقيقاً لهذا الهدف، وإن كان الدافع الحقيقي وراء إنشاء هذه المنشآت دافع آخر ارتبط بنظام الإدارة في العصر المملوكي ذلك النظام الذي يحرم الأمير من إقطاعه فور خروجه من الوظيفة التي يشغلها ليستغله من يشغل الوظيفة. فالإقطاع بمثابة "الراتب" لهذه الوظيفة أو تلك، ومن ثم وجد المماليك في نظام الوقف سبيلاً لتأمين مستقبلهم، فأنشئوا الكثير من المنشآت الدينية والخيرية، وأوقفوا عليها الكثير من الأوقاف، التي يفوق ريعها المصارف المخصصة لهذه المنشآت الموقوفة وليوقفوا الفائض وهو كثير - كما أثبتت دراسة وثائق الوقف - على أبنائهم وذريتهم من بعدهم تأميناً لمستقبلهم. وأياً ما كان السبب وراء كثرة هذه المنشآت الموقوفة التي فاقت الحد، فإن الأسبلة كانت إحدى نوعيات هذه المنشآت الموقوفة.

١- د محمد عبد الستار عثمان، أسبلة القاهرة المملوكية، النسخة رقمية.

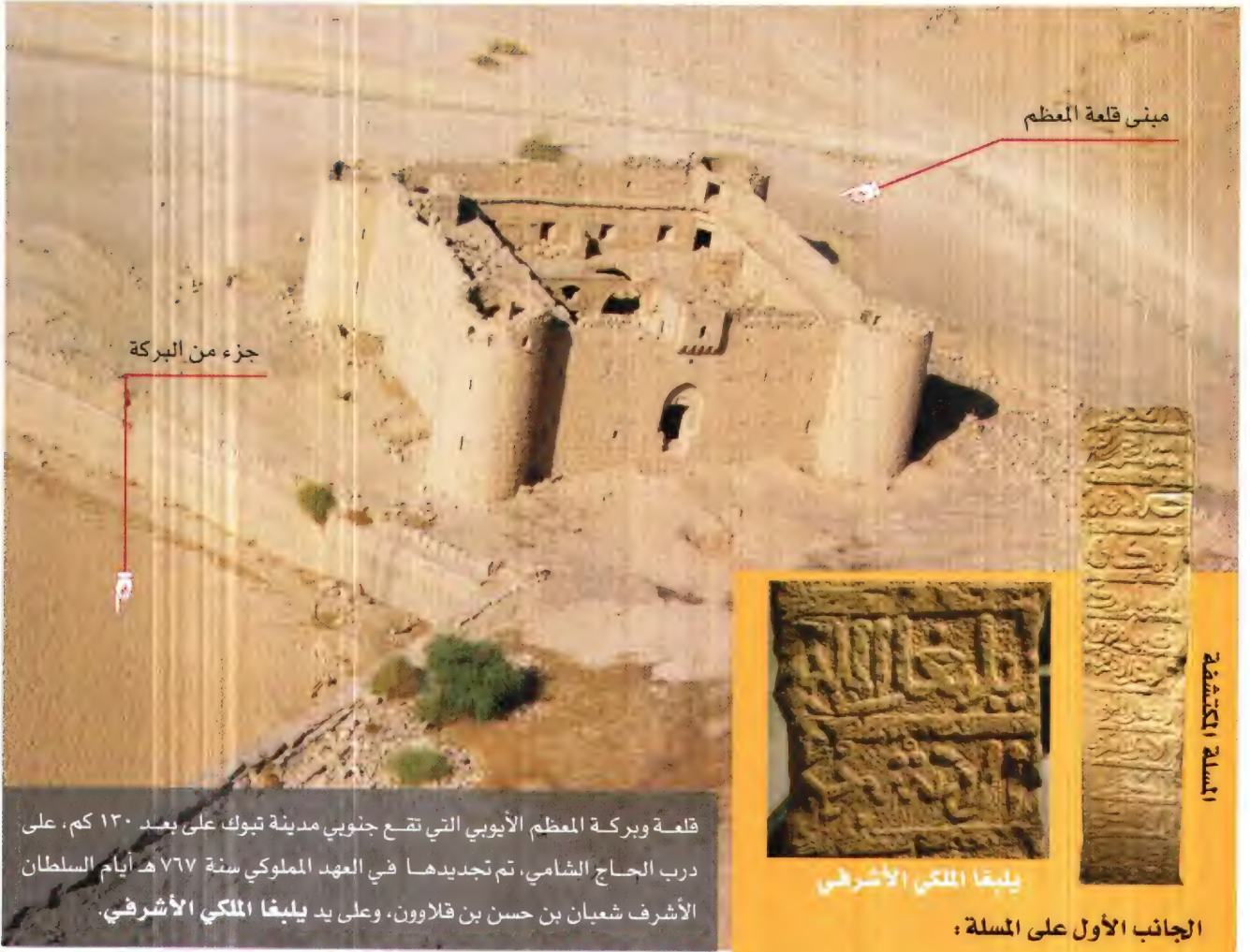


جدارية تحمل اسم السلطان المملوكي قايتباي، الصورة من داخل متحف القاهرة

أول بناء للأسبلة في مصر في **العصر المملوكي** كان ابتداء من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي -، وكان معظمها من أعمال الأمراء والسلاطين ونسائهم؛ كأنها كفارة عن الذنوب والآثام، كما بنى الأغنياء تلك الأسبلة صدقة جارية لأنفسهم، أو لأبنائهم، أو لأحد أقاربهم المتوفين. وتحتها صهريج ملئ بالماء تستخدم للشرب، وكان يسمح للمارة من كل الجنسيات والممل من النصارى واليهود والأجانب كذلك باستعمالها ولا ينقطع الماء عنها أبداً.



يقع **سبيل قايتباي** مقابل باب المطهرة في الجزء الغربي من المسجد الأقصى، وله قبة جميلة مزخرفة بزخارف نباتية، وقد بُني فوق مسطبة واسعة هي مسطبة قايتباي في طرفها الشمالي الغربي وتحتة بئر كبيرة عامرة بالمياه. والسبيل بناء عظيم، مرتفع وجميل، دخلت فيه فنون العمارة، وزانتة زخرفتها، وجملته الحجارة الملونة الداخلة في بنائه، فأتى بقدر عليّ وأهمية بالغة، **حتى قيل إنه النموذج الوحيد والفريد من نوعه في فلسطين مما يعرف بالأسبلة القايثبائية (المملوكية)**. بناه الملك الأشرف أبو النصر إينال (٨٦٠ هـ)، وجده بعد تهدمه الملك الأشرف قايتباي (٨٨٧ هـ) وعرف باسمه، وأعاد تجديده السلطان العثماني عبد المجيد الثاني (١٣٣٠ هـ). والسبيل عامر في أيامنا، يستفاد من مياهه الثلجة، عن طريق ثلاثة وضعته داخله، تعمل طيلة ساعات النهار في فصول السنة الثلاثة عدا الشتاء. وقد وصلت حفريات الصهاينة المغتصبين تحت ساحات المسجد الأقصى المبارك؛ إلى البئر الواقعة تحت هذا السبيل عبر نفق يمتد ما بين بابي السلسلة والقطنان القريبين منه.



قلعة وبركة المعظم الأيوبي التي تقع جنوبي مدينة تبوك على بعد ١٣٠ كم، على درب الحاج الشامي، تم تجديدها في العهد المملوكي سنة ٧٦٧ هـ أيام السلطان الأشرف شعبان بن حسن بن قلاوون، وعلى يد يلبغا الملكي الأشرفي.



يلبغا الملكي الأشرفي



المسلة المكتشفة

الجانب الأول على المسلة :

لعمار الحرمين.. بسم الله الرحمن الرحيم.. جدد هذا المكان المبارك في أيام مولانا المقر الأشرف العالي المولي الأميري الكريمي السيفي الاتاكي نظام الملك الشريف.

الجانب الثاني :

وأتابك العساكر المنصورة الاسلامية يلبغا الملكي الأشرفي أعز الله أنصاره.

الجانب الثالث :

وكان العمل فيه من ماله أبتغاء لوجه الله تعالى بتاريخ نهار الحد (الخبر) سابع من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين وسبع مئة كتبه محمد ابن العباس الكركي. وفي مسلة مجاورة جاء فيها:

أنه من عمل المعلم أبوبكر بن عيسى بن عبد الله وأحمد ابن محمد عمرو الصفد (٩) النحاس.

تنويه: نقلت الأخطاء الكتابية كما هي على النقش



قلعة الأزلم جنوبي مدينة ضباء السعودية، شيدت في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ثم أعيد بناؤها في عهد السلطان قنصوه الغوري سنة ٩١٦ هـ.

العمارة في العصر المملوكي

العمارة الإسلامية: هي الخصائص البنائية التي استعملها المسلمون لتكون هوية لهم، وقد نشأت تلك العمارة بفضل الإسلام، وذلك في المناطق التي دخلها كشبه الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام ومصر والمغرب العربي وتركيا وإيران والسند وبلاد ما وراء النهر وأرض السودان وغيرها، بالإضافة إلى المناطق التي حكمها لمدد طويلة مثل الأندلس (أسبانيا حالياً) والهند. وتأثرت خصائص العمارة الإسلامية وصفاتها بشكل كبير بالدين الإسلامي والنهضة العلمية التي تبعتها. وتختلف من منطقة إلى أخرى تبعاً للطقس وللإرث المعماري والحضاري السابق في المنطقة، حيث ينتشر الصحن المفتوح في الشام والعراق والجزيرة العربية، بينما يختفى في تركيا نتيجة للأجواء الباردة وفي اليمن بسبب الإرث المعماري. وكذلك نرى تطور الشكل والوظيفة عبر الزمن وبتغير الظروف السياسية والمعيشية والثقافية للسكان^(١).

وفي هذا **العصر المملوكي** الذي طال عهده، تنافس سلاطين المماليك في إنشاء الجوامع والمدارس، وإقامة الأضرحة والأسبلة وبناء القصور والوكالات وتجلت عظمة العصر المملوكي فيما أبدعوه من روائع المنشآت التي تبدو للناظر شامخة في غير تبرج، وتزهو بنفسها في غير خيلاء، في جمال غير متكلف يستثير إعجاب كل من يراه وينتزع ثناءه انتزاعاً. وفي هذا العصر استقر فن العمارة المملوكي وأصبح ذا طابع خاص به. له مقوماته وتقاليده، يتوارثها المعماريون والفنيون، تظهر واضحة في تخطيط المساجد وتصميم الجهات، وفي المداخل الشاهقة بمقرنصاتها الجميلة. وتمشي مع هذا الاستقرار رقي دائم في صناعة الجص، وتنوع في زخارفه، يثبت ذلك ما نشاهده في أبنية النصف الثاني من القرن السابع الهجري - القرن الثالث عشر الميلادي - إلا أن الرخام انتزع من الجص مركز الصدارة، فصارت المحاريب وأسفال الجدران الداخلية مكتسية بالرخام المتعدد الألوان، متفرد بتصميمات بديعة، يزيد في بهائها دقة الصناعة وتجانس الألوان، وتبع كل ذلك تطور في أشغال النجارة وإبداع في تكوين زخارفها، فسايرت أعمال التطعيم بالسن والآبنوس والزرنيشان جنباً لجنب مع الأويمة الدقيقة في المنابر والأبواب والشبابيك، وخطت أعمال الخراطة خطوات واسعة، كما تنوعت تصميمات الأسقف الخشبية، وزاد في روعتها ما حوته من نقوش جميلة مموهة بالذهب. هذا وتتجلى دقة صناعة التعدين في الأبواب المصفحة بالنحاس، فتظهر فيها براعة الحفر والتفريغ في النحاس إلى دقة التكفيت فيه. وللعصر المملوكي أن يزهو على غيره من العصور بقبابه ومآذنه، فقد أخذت القباب تبنى بالحجر بدلاً من الطوب، وأصبحت قواعدها تأخذ أشكالاً مختلفة، كما ظهر القاشاني مغلفاً ببعض رقابها. أما أسطحها الخارجية فقد تدرجت زخرفتها من تضييع إلى خطوط متعرجة ودالات متداخلة، ثم بلغت في عصر المماليك الجراكة

شأواً عظيماً، فازدانت بأشكال هندسية وأخرى زخرفية. وسائرت المنارات القباب فنراها تعلو في الفضاء في تيه وإعجاب، تطل على ما حولها في رشاقة ودلال، يسترعي الانتباه طابعها الخاص - وإن كان بعضها قد خرج عنه - ويبهز الرائي رونقها وزخرفها، فالبعض كسيت خوذته العليا بالقاشاني كما في خانقاه بيبرس الجاشنكير وجامع الناصر محمد بالقلعة، والبعض الآخر حليت دورته الوسطى بتلابيس من الرخام كما يشاهد في منارة مسجد برقوق ومنارة مسجد القاضي يحيى، هذا وقد تنوعت زخرفها وكثرت في أواخر عصر المماليك الجراكسة. وأنشئت في العصر المملوكي المدارس ذات التخطيط المتعامد، التي تتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة إيوانات متقابلة، وألحق بها أضرحة لمنشئها، كما ألحق ببعضها الأسبله والكتاتيب وفي أواخر عصر المماليك الجراكسة، أخذت هذه المدارس تبنى بأحجام صغيرة بالنسبة لمثيلاتها المنشأة في عصر المماليك البحرية، وصارت أطحنها تغطى بأسقف خشبية بولغ في نقشها وزخرفتها. وقد أنشئت هذه المدارس في الأصل لتكون أماكن تدرس فيها المذاهب الإسلامية الأربعة (الحنفي - المالكي - الشافعي - الحنبلي) إلى جانب إقامة الشعائر الدينية فكانت بذلك تجمع بين الغرضين^(١).

اختصت الفنون في العصر

المملوكي بفن العمارة المتميز، حيث بلغ هذا

الفن شأواً عظيماً؛ حيث أضحت بعض المساجد الشهيرة

تخلد ذكرى السلاطين في مصر وبلاد الشام، ولا تزال هذه المساجد

شاهدة على ذلك حتى يومنا هذا؛ لتعبر بكل قوة واجتدار عن براعة المماليك

وحذاقتهم في فن العمارة الهندسية، ومن أشهر المساجد مسجد السلطان

حسن، والسلطان قايتباي...، حيث تبرز هذه المساجد ما حفلت به من نقوش

وزخارف، وما اشتملت عليه من تحف فنية، وتصاميم إبداعية، والواقع أن ما

أدركه فن البناء من تقدم، امتد أيضاً إلى بقية الفنون الإسلامية في هذا

العصر، فازدهرت وارتقت أيما ارتقاء، وغصت قصور المماليك وبيوتهم

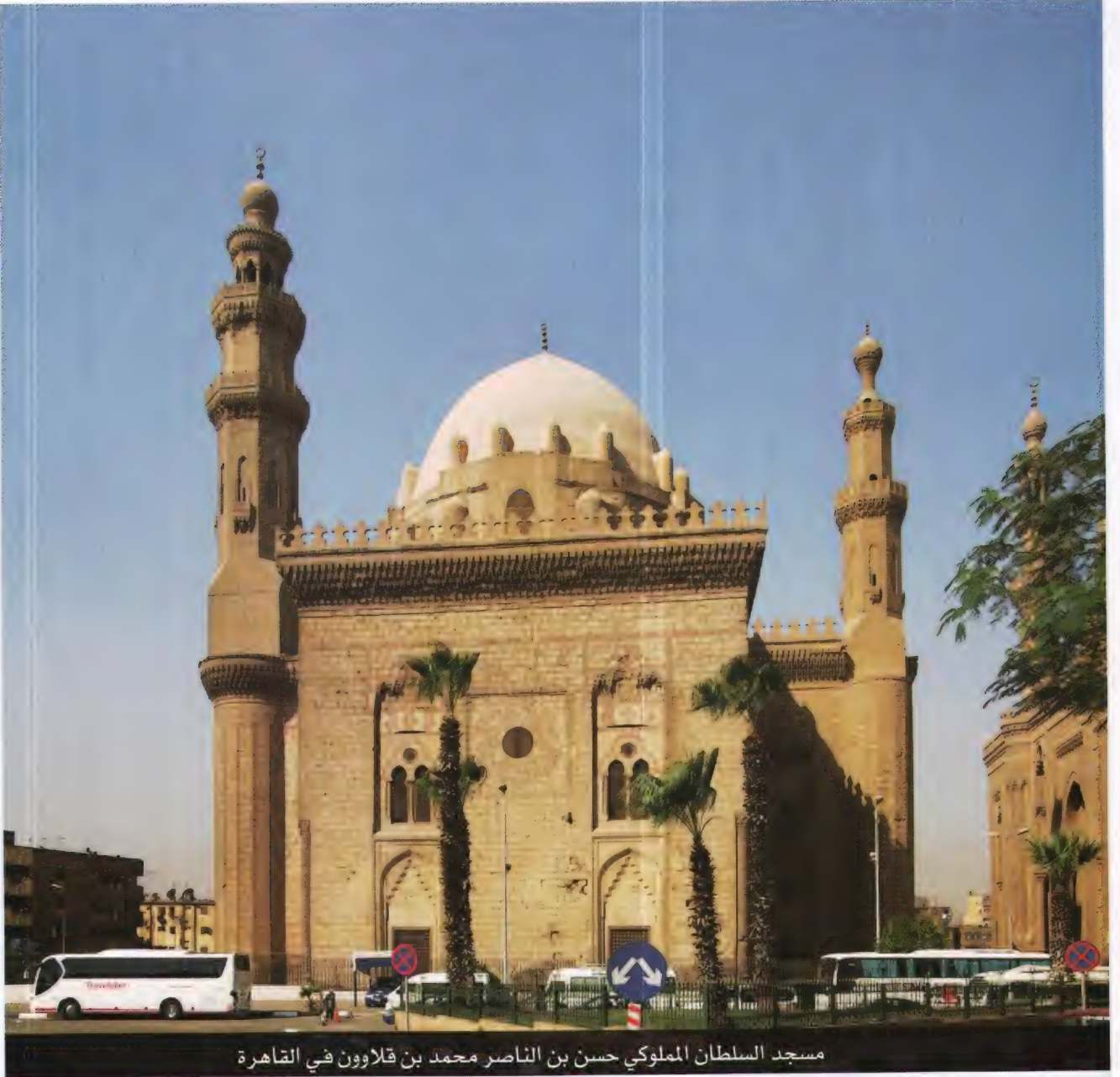
بالتحف الثمينة، من خشبية وزخرفية وزجاجية وبلورية وعاجية

ونحاسية، وفرشت بالطنافس والأبسطة والرياش

الثمينة، ولعل ما تزخر به متاحف مصر وبلاد

الشام خير شاهد على ذلك.

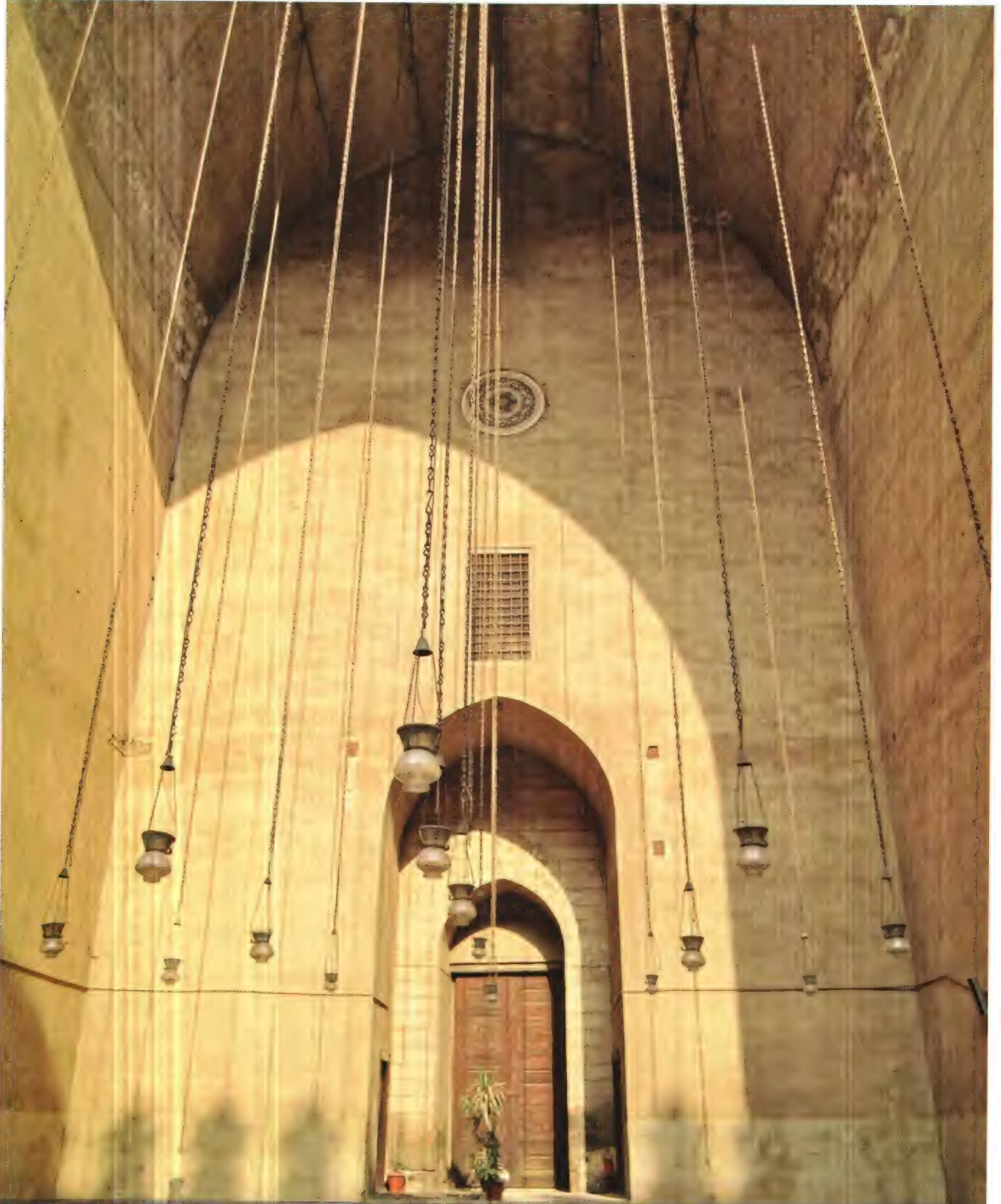




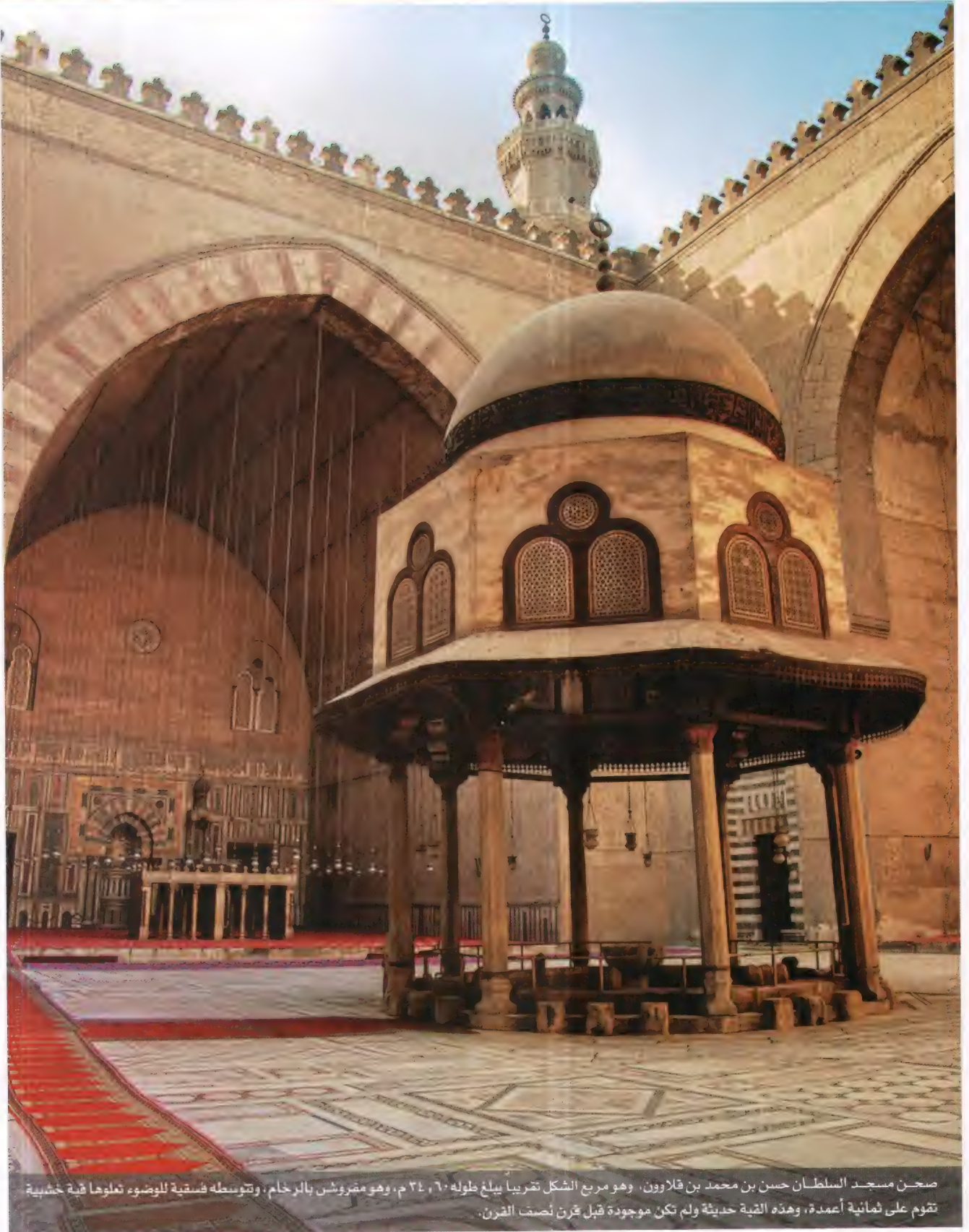
مسجد السلطان المملوكي حسن بن الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة

يعد مسجد ومدرسة السلطان من روائع البناء في العصر المملوكي، وقد تم إنشاء هذا المسجد العظيم للسلطان حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون الذي ولي الحكم سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م)، بعد أخيه الملك المظفر حاجي وعمره ثلاث عشرة سنة، ولم يكن له في أمر الملك شيئاً لصغر سنه؛ بل كان الأمر بيد أمرائه، وما لبث أن بلغ رشده، فصفت له الدنيا، واستبد بالملك إلى أن اعتقل سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م)، وظل في معتقله مشغلاً بالعلم حتى أعيد إلى السلطنة مرة أخرى في سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م)، وظل مترعباً في دست الحكم إلى أن قتل سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م).

وكان البدء في بناء مسجده العظيم سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م)، واستمر العمل فيه ثلاث سنوات بغير انقطاع، ومات السلطان قبل أن يتم بناءه؛ فأكمّله من بعده أحد أمرائه - بشير الجمدار - سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م).



يُعد مسجد السلطان حسن: بحق من أعظم المساجد المملوكية، وأجلها شأنًا، فقد جمع بين ضخامة البناء وجلال الهندسة، وتوافرت فيه دقة الصناعة وتنوع الزخارف، كما تجمعت فيه شتى الفنون والصناعات، فنرى دقة الحفر في الحجر ممثلة في زخارف المدخل ومقرنصاته



صحن مسجد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، وهو مربع الشكل تقريباً يبلغ طوله ٦٠، ٣٤ م، وهو مقروشن بالرخام، وتتوسطه فسقية للوضوء تعلوها قبة خشبية تقوم على ثمانية أعمدة، وهذه القبة حديثة ولم تكن موجودة قبل قرن نصف القرن.



من خلال الصورة تتضح براعة صناعة الرخام ممثلة في وزرتي القبة، وإيوان القبة، ومحرابيهما الرخامين، والمنبر ودكة المبلغ، وكسوة مداخل المدارس الأربعة المشرفة على الصحن، ومزززات أعتاب أبوابها، كما نشاهد دقة صناعة النجارة العربية وتطعيمها مجسمة في سورة الكرسي الموجود بالقبة.



مقرنصات في قبة سقف المسجد



باب مصفح من النحاس عمل بشكل هندسي يازع

الجامع المعلق بدمشق: نموذج من الأوابد

المملوكية بني سنة ٨٦٢ هـ / ١٤٥٨ م، وهو معبر أيضاً عن الطريقة التي كان يستخدمها المماليك في هندسة البناء.

يقع الجامع بين باب الفرج والفراديس في منطقة العمارة خارج سور دمشق. وسمي بالمعلق لأنه مرتفع عن الأرض قليلاً، ولأنه معلق بشكل أو بآخر إذ يقع على نهر بردى.



فن المقرنصات: عنصر مهم من عناصر

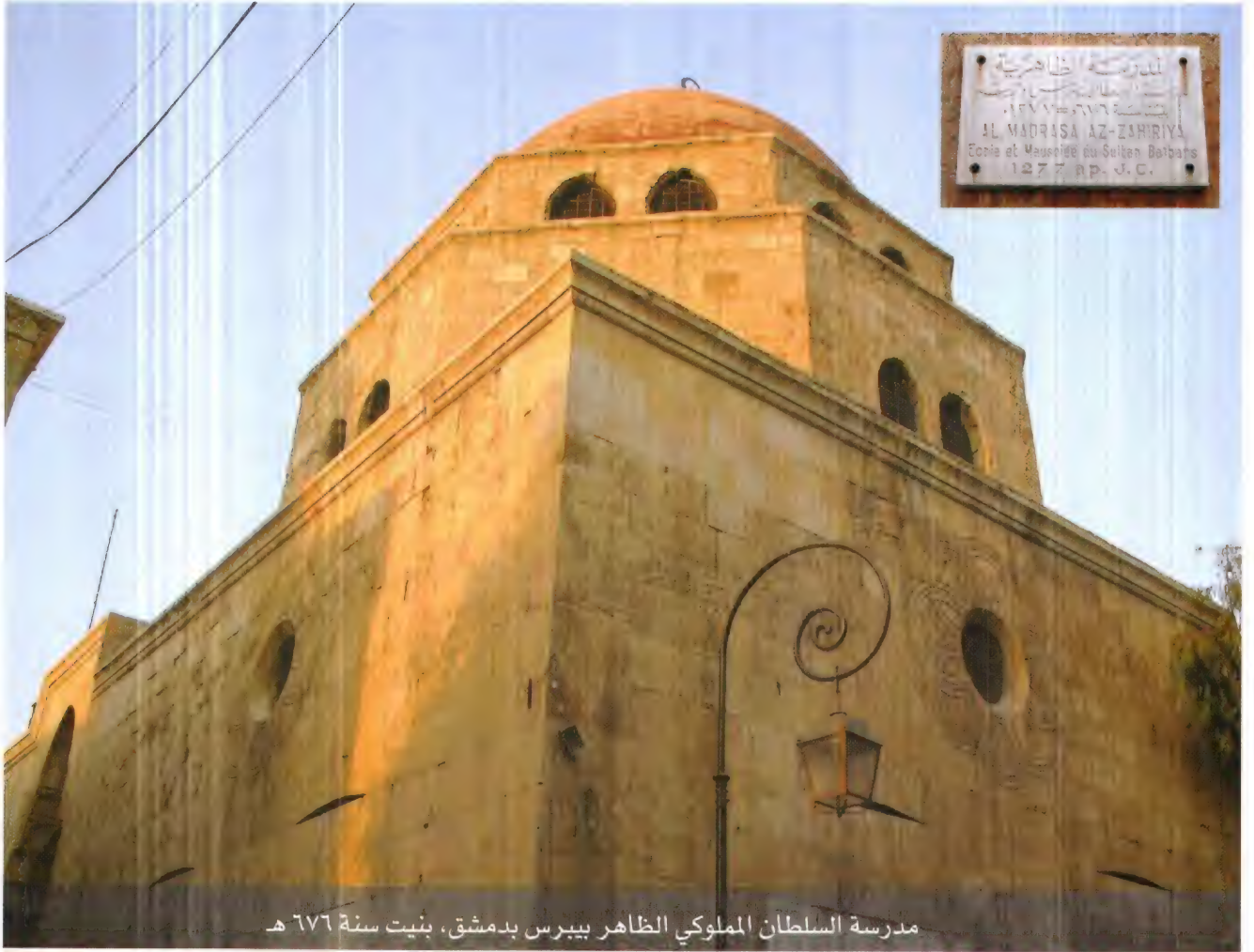
الفن المعماري والزخرفي الإسلامي، تأتي أهميته من الجمالية الخاصة في هندسته وتشكيلاته الفراغية ثلاثية الأبعاد، كمنحوتات تجريدية تحاكي الطبيعة بمنهجية فكرية إسلامية جمالية، وتؤدي أيضاً دوراً إنشائياً في الانتقال والتحول من شكل هندسي إلى آخر، ومن سطح إلى آخر أيضاً، وهو حرف بالغ الأهمية في أبجدية الفن الإسلامي.



المدرسة الشاذلكية بدمشق نسبة إلى

منشئها الأمير سيف الدين شاذي بك الدوادار، نائب الشام جلبنان المؤيدي في شهر رجب عام ٨٥٧ هـ الموافق ١٤٥٣ م.





مدرسة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس بدمشق، بنيت سنة ٦٧٦ هـ

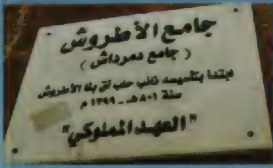


مقرنص بشكل هندسي جميل فوق مدخل المدرسة الظاهرية بدمشق.

تقع **المدرسة الظاهرية** في حي العمارة بدمشق القديمة بين بابي الفرج والفراديس، في موقع متوسط بين الجامع الأموي وقلعة دمشق وسوق الحميدية وبيوت المعيشة، فضلاً عن الحمام الملاصق لها من جهتها الشمالية، الذي يعرف بحمام السلطان الظاهر، ولعل هذا الموقع ساهم إلى حد كبير في تحديد أهميتها، حيث تتفرع منها وإليها كل الأزقة المؤدية إلى كافة نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، ومما يؤكد هذه المكانة أيضاً هو فخامة البناء واحتوائه على الكثير من عناصر الفن العربي المعماري، المستوحاة بمجملها من ذات المكانة التي يحتلها المسجد الجامع بصفته الدليل الموضوعي على قوة العصر ونفوذه.

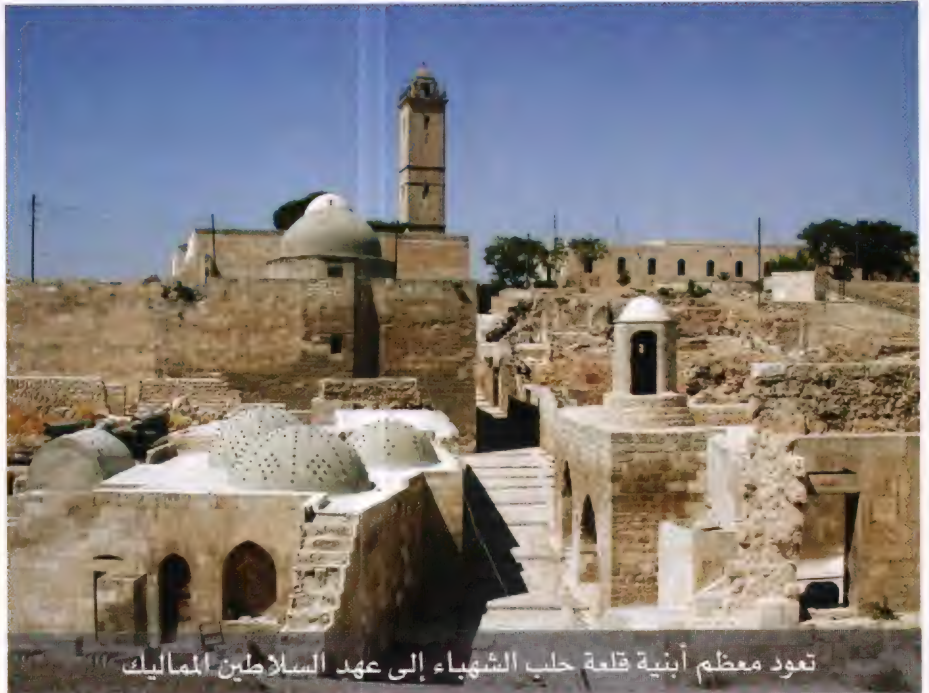
يعود ببناء

هذا الجامع إلى العصر المملوكي، حيث تذكر كتب التاريخ: أن عمودين داخل الجامع من عجائب الدنيا، سواء من ناحية بنائهما أم من نوعية الرخام؟ وفي الجامع منبر مصنوع من الرخام الأبيض ومجراه من الرخام الأصفر، والشبابيك مصنوعة من النحاس الأصفر، أما جدار الجامع الخارجي الغربي فهو فائق الصنع، والباب الموجود فيه مؤرخ في عام (٨١١ هـ / ١٤٠٨ م) بينما يعود الباب الشمالي إلى عام (٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) وترتفع المئذنة المثمنة الشكل إلى يسار الباب الرئيس.



جامع الأطروش في حلب بناء قام بتشبيده نائب حلب المملوكي الشهير (أقينا الأطروش)، ومات قبل تمام هذا البناء فأكملة نائبه (دمرداش الناصري).

حظيت قلعة حلب في العهد المملوكي، بتجديد عمارتها، على يد الأشرف خليل بن قلاوون، ثم جدد بعض أجزائها السلطان الملك الناصر بن برقوق. وكانت آخر الترميمات المملوكية قد حدثت أيام السلطان قنصوه الغوري آخر السلاطين المماليك، والجدير بالذكر أن الترميمات المملوكية أبقت على شيء من مظاهر القلعة الجميلة.



تعود معظم أبنية قلعة حلب الشهباء إلى عهد السلاطين المماليك



صندوق خشبي أمر بصنعه السلطان المملوكي الظاهر بيبرس - رحمه الله - سنة ٦٦١ هـ، لضريح سيف الله المسلول (خالد بن الوليد) رضي الله عنه. متحف دمشق



آنية مزججة مزينة بالذهب والمينا، عليها كتابات عربية، المصدر مصر أو بلاد الشام (القرن الرابع عشر الميلادي)



قطعة من

الفخار الأزرق والأبيض

تحت تأثير الخزف الصيني على

شكل كمثرى، سوريا بدايات القرن

الخامس عشر

الميلادي.

جرة

مقعرة الشكل

من الجانبين عليها

رسومات حيوانية من القرن

الرابع عشر الميلادي،

سوريا.

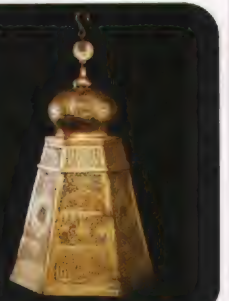




صنع الفنانون المبدعون في عصر المماليك من الزجاج (القوارير، والأباريق، والكؤوس، والمصاييح، والزجاجات)، وكانت صناعته منتشرة في مصر وبلاد الشام؛ خصوصاً في حلب ودمشق، ولكن أجمل ما صنع منه في ذلك العصر المشكاوات، وتعد بحق فخر عصر المماليك في صناعة الزجاج، وبفضل من -الله تعالى- هناك العديد من هذه المصنوعات محفوظة بالمتاحف الإسلامية والعالمية.

تتوزع المشكاوات على العديد من متاحف العالم، نذكر منها: قاعة الفن المملوكي في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ومعظم معروضات هذه القاعة، التي يتجاوز عددها الخمسين، موجودة في داخل خزائن، وفي المتحف الوطني بدمشق مشكاة تعود إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، ويحتوي متحف المتروبوليتان على أربع مشكاوات. ولعل الذي يسترعي الانتباه، من هذا العرض التاريخي، أنه، باستثناء نيف وثلثين مشكاة وصلتنا من عصر المماليك الجراكسة. نجد أن جميع المشكاوات الأخرى التي وصلتنا ترجع إلى عصر المماليك البحرية، بخاصة عهد آل قلاوون، ما يبرز لنا مدى عنايتهم الفائقة، واهتمامهم البالغ في هذه الصناعة، غازی نعيم، جريدة الدستور، المشكاوات اكتسبت المساجد شخصية فريدة.

حظيت المشكاة التي مؤهت بالمينا والذهب بمنزلة رفيعة لدى سلاطين المماليك وأمرائهم الذين سجلوا على بدنّها، بطريقة الرسم وعناصر الزخرفة الإسلامية، المعلومات والأحداث التاريخية والاجتماعية، بالإضافة إلى اسم الصانع وصاحبها، والتوقيع، واسم المكان. وكان أكثر أسماء السلاطين وروداً على المشكاوات اسم السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، ثم والده السلطان محمد بن قلاوون....



مصباح النحاس الأصفر السداسي الشكل مع زخرفة مخرمة، محفور ومطعم بالفضة: مصر - القرن الرابع عشر الميلادي.



علبة نحاسية أسطوانية الشكل، لحفظ المواد العطرية، عليها نقوش جميلة وكتابات (منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) مصر وبلاد الشام.



سيف السلطان المملوكي الأشرف شعبان

حركة التأليف والتصنيف في عصر المماليك

ظهور الموسوعات العلمية

ازدهرت الحركة العلمية في العصر المملوكي، وأصبحت مصر - قاعدة حكم المماليك - مركزاً لهذه الحركة المزدهرة، وذلك نتيجة لما أصاب العراق من خراب وتدمير على يد المغول، وسقوط مدن الأندلس - في القرن السابع الهجري - بأيدي الممالك النصرانية الأسبانية، فضلاً عما لحق بالشام من أضرار فادحة على يد الصليبيين والمغول معاً.

ومن ملامح الازدهار العلمي؛ عظم الثروة العلمية التي وصلت من ذلك العصر في معظم ألوان المعرفة كالعلوم الشرعية والأدب والتاريخ والجغرافيا والمعارف العامة.

وأبرز ما يميز الحياة العلمية في عصر المماليك هو الإقبال على تأليف الموسوعات العلمية في شتى فنون المعرفة الشائعة في العصر.

لقد اتسم هذا العصر بعصر الإبداع الإنتاجي، حيث تجلت إبداعات العلماء في أسمى معانيها في شتى العلوم، ومختلف الفنون.

ففي ميدان العلوم الشرعية: كثرت المؤلفات والمصنفات في علوم القرآن، والحديث، والتفسير، والفقه، والأصول، وغيرها، وفي مقدمة هؤلاء الأعلام؛ المصلح الكبير الإمام أحمد بن تيمية الحراني ت (٦٥٢ هـ)، التي تربو مؤلفاته على الثلاثمائة مؤلف، فقد ترك الشيخ للأمة تراثاً ضخماً ثميناً، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معيناً صافياً. وقد توافرت لدى الأمة منه الآن المجلدات الكثيرة، من المؤلفات والرسائل والفتاوى والمسائل وغير ذلك من المطبوع، مثل: الإكليل في المتشابه والتأويل، والتبيان في نزول القرآن، والرسالة الاكملية، والرسالة العرشية، والقاعدة المراكشية، ورسالة إلى أهل البحرين في رؤية الكفار ربهم، ورسالة إيضاح الدلالة في عموم الرسالة، ورسالة في أمراض القلوب وشفائها، وما بقي من مؤلفاته مجهولاً ومكنوزاً في عالم المخطوطات فكثير.

كذلك من أعلام هذه الساحة تلميذه الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية ت (٧٢٨ هـ)، حيث ذكر الشيخ د. بكر أبو زيد له ٩٨ مؤلفاً، منها: الصواعق المرسلية، وزاد المعاد في هدي خير العباد، ومفتاح دار السعادة، ومنثور ولاية العلم والإرادة، ومدارج السالكين. ومن الأعلام أيضاً الإمام شمس الدين الذهبي ت (٧٤٨ هـ)، ومن أبرز مصنفاته: سير أعلام النبلاء ٢٥ مجلداً، وتذكرة الحفاظ، وطبقات القراء، وطبقات الحفاظ « مجلدان »، وميزان الاعتدال في نقد الرجال « ثلاث مجلدات »، والمثبت في الأسماء والأنساب، ونبأ الرجال، واختصار سنن البيهقي. ومن أعلام العلوم الشرعية أيضاً ابن حجر العسقلاني ت (٨٥٢ هـ)، فله مؤلفات وتصانيف كثيرة زادت على مئة وخمسين مصنفاً في مجموعة من العلوم المهمة، أشهرها وأهمها:

فتح الباري شرح صحيح البخاري (أربعة عشر مجلداً)، حيث مكث ابن حجر في تأليفه خمساً وعشرين سنة، ولما أتم التأليف عمل مأدبة ودعا إليها أهل قلعة دمشق وكان يوماً عظيماً. ويعد هذا الكتاب أفضل شرح وأعمه نفعاً لصحيح البخاري، وتأتي أهمية كتاب ابن حجر من كونه شرحاً لأصح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث، وقد تضمن ذلك الشرح ذكر أحاديث أخرى وعلق ابن حجر على أسانيدها، وناقشها، حتى كان بحق (ديوان السنة النبوية)، وكذلك لما تضمنه من فقه وأصول ولغة ومناقشة للمذاهب والآراء في شتى المعارف الإسلامية. وقد اشتهر هذا الكتاب في عهد صاحبه حتى قبل أن يتمه، وبلغ شهرته أن الملك شاه رخ بن تيمور ملك الشرق (الدولة التيمورية) بعث بكتاب إلى **السلطان المملوكي برسبائي** يطلب منه هدايا من جملتها (فتح الباري)، فجهز له ابن حجر ثلاث مجلدات من أوائله ومن مؤلفاته: الإصابة في تمييز الصحابة، وهو كتاب تراجم، ترجم فيه ابن حجر للصحابة؛ فكان من أهم المصادر في معرفة الصحابة، وتهذيب التهذيب، ومختصره كتاب تقريب التهذيب، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ذكر فيه أحاديث لم يخرجها أصحاب المسانيد الثمانية، والدراية في تخريج أحاديث الهداية، ويعد من كتب التخريج البديعة، وقد خرج فيه الأحاديث الواردة في كتاب الهداية وهو مرجع فقهي، وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة. والحقيقة أن ما ألفه هؤلاء العلماء في مجال العلوم الشرعية ظل نبراساً استفادت منه الأجيال اللاحقة حتى يومنا هذا.

وفي ميدان اللغة وعلومها: ظهرت مؤلفات وموسوعات كثيرة، من أبرز هذه المؤلفات والموسوعات في كتب النحو والصرف مثل: (ألفية ابن مالك) ت (٦٧٢هـ)، وهذه الألفية هي أشهر مؤلفات ابن مالك حتى كادت تغطي شهرتها على سائر مؤلفاته، وقد كتب الله لها القبول والانتشار، وهي منظومة شعرية من بحر "الرجز"، تقع في نحو ألف بيت، وتتناول قواعد النحو والصرف ومسائلهما من خلال النظم بقصد تقريبهما، وتذليل مباحثهما، وقد بدأها بذكر الكلام وما يتألف منه، ثم المعرب والمبني من الكلام، ثم المبتدأ والخبر، ثم تتابعت أبواب النحو بعد ذلك، ثم تناول أبواب الصرف، وختم الألفية بفصل في الإعلال بالحذف، وفصل في الإدغام. ولابن مالك إلى جانب الألفية (التسهيل) و(الكافية الشافية). ومن الموسوعات أيضاً (لسان العرب) لابن منظور ت (٧١١هـ)، ويقع هذا المؤلف الضخم في عشرين مجلداً، جمع فيها أمهات كتب اللغة، فكاد يغني عنها جميعاً. وتميز ابن منظور باختصار وتلخيص عدد هائل من كتب الأدب المطولة، قال عنه ابن حجر: «كان مغرم باختصار كتب الأدب المطولة»، ويقول الصفدي: «لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولاً إلا وقد اختصره، وأخبرني ولده قطب الدين أنه ترك بخطه خمسمائة مجلد». ومن أشهر الكتب الموسوعية في ميدان اللغة وعلومها في عصر المماليك أيضاً (القاموس المحيط) للفيروزآبادي ت (٨١٧هـ).

ومن المؤلفات الضخمة في ساحة اللغة وعلومها (المزهر في اللغة)؛ لجلال الدين السيوطي ت (٩١١ هـ)، ذكر ابن إياس في "تاريخ مصر" أن مصنفات السيوطي بلغت ست مائة مصنف. وقد ألف في طيف واسع من المواضيع تشمل التفسير والفقه والحديث والأصول والنحو والبلاغة والتاريخ والتصوف والأدب وغيرها. ومن هذه المصنفات: الإتيان في علوم القرآن، شرح سنن ابن ماجه، وإسعاف المبطل برجال الموطن، الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء، والأشباه والنظائر (في النحو)، وغيرها من المصنفات العديدة. وكذلك من المؤلفات الرائعة في ميدان النحو والصرف في العصر المملوكي (مغني اللبيب) و(قطر الندى) و(شذور الذهب) لابن هشام ت (٧٦١ هـ).

أما في ميدان البلاغة: فمن أشهر المؤلفات في علوم البلاغة يأتي (تلخيص المفتاح) للخطيب أبي عبد الله القزويني ت (٧٣٩ هـ)، و(الإيضاح) للمؤلف نفسه. ويأتي كذلك كتاب (حسن التوسل في صناعة الترسل) لشهاب الدين محمود الحلبي ت (٧٢٥ هـ)، وقد كان أديباً كبيراً، استمر في دواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عاماً، وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره، و(عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) للبهاء السبكي. ثم تأتي البديعيات، ويأتي أشهر هذه البديعيات (بديعية صفي الدين الحلبي)، وبديعة ابن حجة الحموي.

أما في مجال التاريخ والتراجم والسير: فلقد اتسع التأليف فيه اتساعاً كبيراً؛ خصوصاً في التراجم، ويتجلى لنا هذا في كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لابن خلكان ت (٦٨١ هـ)، ويأتي كذلك كتاب (البداية والنهاية) للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ت (٧٧٤ هـ) وهو الفقيه، والمفتي، والمحدث، والمفسر (صاحب التفسير الشهير للقرآن الكريم). ويأتي في ميدان التاريخ أيضاً كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) لابن خلدون ت (٨٠٨ هـ)، وهو مؤسس علم الاجتماع. ومن العلماء في هذا الميدان شيخ المؤرخين المصريين "أحمد بن علي المقرئ" المعروف باسم "تقي الدين المقرئ" ت (٨٤٥ هـ). صاحب كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، وكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك)، وأبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي الشبكاوي الظاهري ت (٨٧٤ هـ)، مؤرخ مصري، كان أبوه من كبار أمراء المماليك في عهد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق، وابنه الناصر فرج بن برقوق، اشتهر كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة). وكتاب السخاوي ت (٩٠٢ هـ) هو مؤرخ كبير وعالم حديث وتفسير وأدب شهير من أعلام مؤرخي عصر المماليك. ولد وعاش في القاهرة، ومات بالمدينة النبوية سافر في البلدان سافراً طويلاً، وصنف أكثر من مائتي كتاب؛ أشهرها (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع) ترجم لنفسه فيه في ثلاثين صفحة.

أما في ميدان الجغرافيا والرحلات: فقد كان له نصيبه من المؤلفات أيضاً، فهناك كتاب (عجائب المخلوقات) لأبي عبد الله بن زكريا القزويني ت (٦٨٢ هـ)، و (تقويم البلدان) لأبي الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، والذي يطلق عليه ملك أو صاحب حماة في سوريا، عماد الدين، الملك العالم، الملك المؤيد، مؤرخ جغرافي ت (٧٣٢ هـ)، وأبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحيى بن أحمد العمري ت (٧٤٩ هـ)، صاحب كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، وقد عني العمري بدراسة الجغرافية السياسية، ودرس تواريخ الأمم وعجائبها، ودرس الفلك، وتجول في البلاد من الشام إلى الحجاز والأناضول وغيرها من بلاد الأرض، و (رحلة ابن بطوطة)، ذائعة الصيت لمحمد بن عبد الله بن محمد الطنجي المعروف بابن بطوطة ت (٧٧٩ هـ) وهو رحالة ومؤرخ وقاضٍ وفقه مغربي، لقب بأمير الرحالين المسلمين.

وفي الجملة فقد كثرت الموسوعات خلال هذا العصر المملوكي، إذ كان يغلب على التأليف في الأدب الخلط بين الأدب والأخلاق، وبين الأدب والعلوم المختلفة، كالتاريخ، والنبات، ولهذا عُرِفَت هذه المؤلفات في الأدب بالموسوعات، ومن أشهرها كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) للمؤرخ الكبير شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري، وتشتمل موسوعته على خمسة فنون: السماء والأثار العلوية والأرض والأثار السفلية وهو قسم جغرافي فلكي عام. والإنسان وما يتعلق به. والحيوان النبات، والتاريخ، هذه الأقسام الأربعة تشغل عشرة مجلدات. أما القسم الخامس وهو التاريخ، فيشغل واحداً وعشرين مجلداً، حيث سرد فيه تاريخ الإنسانية بدءاً من أبى البشر آدم مروراً بالأنبياء حتى سيد الرسل محمد ومراحل التاريخ الإسلامى المتعددة. ويأتي في هذه الساحة (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء) لأحمد القلقشندي ت (٨٢١ هـ)، وهي أضخم موسوعة وصلتنا في أدب الإنشاء ومراسلات الملوك. تقع مطبوعتها في زهاء سبعة آلاف صفحة وفي (١٤) مجلداً. وكتاب (المستطرف في كل فنٍ مستظرف) للإبشيهي ت (٨٥٠ هـ)، وكتاب (خزانة الأدب) لابن حجة الحموي، أضف إلى ذلك ما شاع في العصر المملوكي من قصص؛ لشغل الجمهور بما يخفف عنهم أعباء الحياة، وأهم هذه القصص، تكملة ألف ليلة وليلة، وسيرة عنترة، وسيف بن ذي يزن، وأبو زيد الهلالي، والظاهر بيبرس، وهي في معظمها تدور حول قصص البطولة وأخبار المغامرات. ولم يقف مد التأليف ونشاطه عند هذه العلوم، وإنما امتد إلى الكيمياء، والطب، والصناعات، وعلم الحيوان ككتاب (المختار من الأغذية) لابن النفيس، و (حياة الحيوان) للدميري، و (كشف الكروب في معرفة الحروب) لعماد الدين اليوسفي. خلاصة القول: لقد زهت حركة التأليف في عصر المماليك زهواً رائعاً.



مصحف نادر، كل صفحة تحمل خمسة أسطر من الآيات الحكيمة، محفوظ داخل غلاف من الجلد لحفظه من التلف، وهذا المصحف بحجم أصغر من المتعارف عليه، مصر - العصر المملوكي - القرن الثالث عشر الميلادي.

إسطرلاب رباعي من النحاس الصافي، صنع بواسطة محمد ابن أحمد بن سليمان مليتا، لسليمان بن محمد في دمشق سنة ٧٣٠ هـ، وكان يستخدم هذا الإسطرلاب لقياس ارتفاع النجوم عند خط معين، وكذلك لتحديد الوقت الخاص بالصلاة.



وَاطْعَنَهُ فَإِنْ بَطَلَ فَأَخْرَجَ مِنْهُ وَدُورَ عَلَيْهِ فَإِنْ دَخَلَ
عَلَيْكَ وَطَعَنَكَ فَبَطَلَ وَأَخْرُصْ أَنْ لَا يَصِلَ طَعْنُهُ إِلَيْكَ
وَلَا تُطْمَعُ فِي الطَّعْنِ وَكُنْ حَرِيصًا عَلَى تَبْطِيلِ طَعْنِهِ
وَأَنْظُرْ كَيْفَ تَفْعَلُ وَهُوَ لَا يُحِصُّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْعَقِبِ
بَعْدَ مَا جَرَأَ يَنْتَكُمُ ذَلِكَ فَافْهَمُوا

بَابُ الْأَدْمَانِ بِالرَّمْحِ وَالْعَمَلِ بِهِ



وَهُوَ أَنَّكَ تَسْتَعْمِلُ رَفْعَهُ غَلِيظَةً مِنْ سَهْطٍ أَوْ غَيْرِهِ حَتَّى
تَحْوِي الطَّعْنَ وَيَكُونُ طَوَالَهُ الرِّجْلُ وَتَعْمَلُ فِيهَا

ألف ابن المقرئ كتابه على غير مثال سابق، حيث سلك: "هذه الطريق التي أخذ منها البكارة، وشرع لأهل العلم والفضل منهاجاً يقتفون مناره"، جمع فيه خمسة علوم، إذا قرئ على سياق السطور فهو **علم الفقه**، وإذا قرئ على أول سطر منه قراءة عمودية كان **علم العروض**، وإذا قرئ ثاني سطر عمودي منه كان **علم التاريخ**، وإذا قرئ ثالث سطر عمودي منه فهو **علم النحو**، وإذا قرئ رابع سطر عمودي منه كان **علم القوافي**!

فجعل ثلاثة علوم منه تتقاطع فلا يختل معنى كل علم بهذا التقاطع، وهي الفقه، والتاريخ، والنحو، وأما علم العروض فقد بدأ بكل سطر منه بالحرف الذي يبدأ به السطر في علم الفقه، والترم في علم القوافي بأن يبدأ كل سطر منه بالحرف الذي ينتهي به السطر في علم الفقه

لقد شحذ هذا التأليف أذهان العلماء بعد ابن المقرئ، فذكر الحنبلي في تاريخه در الحبب في ترجمة أحمد الشغري (ت ٨٨١ هـ) أنه وضع تأليفاً جمع فيه خمسة علوم على مثال "عنوان الشرف"، وذكر حاجي خليفة في "كشف الظنون" ١١٧٦/٢: بأن ابن كميل الدمياطي المتوفى سنة ٨٧٨ هـ صنف كتاباً على نحو "عنوان الشرف" بزيادة علمين.. مقدمة "عنوان الشرف".

إبداع آخر لابن المقرئ، وهي عبارة عن قصيدة شعرية عجيبة، نظمها إسماعيل بن أبي بكر المقرئ. رحمه الله. والعجيب فيها: أنك عندما تقرأها من اليمين إلى اليسار تكون مدحاً، وعندما تقرأها من اليسار إلى اليمين تكون ذماً:

الذم

رَبِّ لَهِمْ حُطَّتْ فَمَا رُفِعَتْ حُرِّمُوا فَمَا نَالُوا الَّذِي طَلِبُوا
عَطِبَ بِهِمْ أَوْدَى فَمَا سَلِمُوا خُلِقَ لَهُمْ تَمَتُّ وَمَا وَهَبُوا
كَسَبُوا فَمَا شِيمَ لَهُمْ حُمِدَتْ كَسَدُوا فَمَا نَرْضَى الَّذِي جَلَبُوا

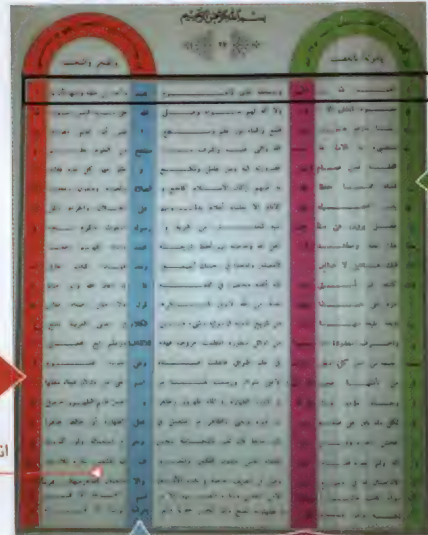
المدح

مَطْلَبُوا الَّذِي نَالُوا فَمَا حُرِّمُوا رُفِعَتْ فَمَا حُطَّتْ لَهُمْ رُبِّ
وَهَبُوا وَمَا تَمَّتْ لَهُمْ خُلِقَ سَلِمُوا فَمَا أَوْدَى بِهِمْ عَطِبَ
جَلَبُوا الَّذِي نَرْضَى فَمَا كَسَدُوا حُمِدَتْ لَهُمْ شِيمَ فَمَا كَسَبُوا

الصفحة الأولى من كتاب عنوان الشرف الواهي بعد طباعته



أصل الكتاب وهو مخطوط



قراءة الكتاب بالطريقة العرضية تعطي المادة الفقهية

قراءة العمود الأول (الأخضر) علم العروض

قراءة هذا العمود (الزراعي) والأخير يتناول علم القوافي

انظر الصفحة بحجمها الطبيعي في الصفحة المقابلة

قراءة هذا العمود (الزراعي) الثالث يتناول علم النحو بأسلوبه المعروف

قراءة هذا العمود (الثاني) يتناول تاريخ دولة بني رسول في اليمن والتي عاصرت أواخر العصر العباسي وجزءاً كبيراً من العصر المملوكي



هو شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله الشاوري الشرجي اليمني المعروف بابن المقرئ. ولد ابن المقرئ سنة ٧٥٤ هـ في أبيات حسين في منطقة الشرجة من سواحل اليمن، ثم هاجر إلى الأبواب الأشرفية عام ٧٨٢ هـ في حادثة السن بعد أن أخذ شيئاً من العلم في الشرع والأدب، ثم أقبل على العلم فقرأ عدة فتون وبرز فيها جميعها وفاق أهل عصره وطار صيته وصار إماماً في الفقه والعربية، قال الخزرجي: "وقد قرأ علي ديوان المتنبي فاستفدت بفهمه وذكاؤه أكثر مما استفاد مني..". وما زال يتدرج ويترقى حتى أدناه الملك الأشرف إسماعيل، ثم أصبح مكرماً عند ولده من بعده، إلى أن توفاه الله سنة ٨٢٧ هـ رحمه الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



والهجر والتجنب

يامولعاً بالغضب

الحمد لله ولي الحمد	ومستحقه الذي لا يقـ	ومحمد	ه أحد من خلقه واشهد أن لا
معبود للخلق إلا الله	ولا اله لهم سواه وصلى	الله	عل سيد البشر رسول
ربنا مارفع منار حق	فلمع واضاء نور علم وسـ	اطع	علم أن العلم مصباح
تتضيء به الامة قد	الله واثى عليه واشرف ما	استفتح	من العلوم علم
الفقه فمن صام وصل	فضرورته اليه ومن عامل ونكـ	ح	طلق فهو كل عليه فلا بد
العباد ممما حفظ الله	به عليهم اركان الاسلام كالحج و	الصلاة	والصيام ومنقول ومعقول
ييسر تخصـ	الانام الا بعلماء اعلام يداـ	على	الحلال والحرام وكل
فضل يروى عن ستة عمد	نبه المختار من البرية و	رسوله	المبعوث باكرم سـ
هذا نعت وصفته وآله	أهل الله وخاصته بهم تحفظ شريعة	محمد	وسته اللهم اجعلنا
الك هادين لا ضالين و	لامضلين وادخلنا في رحمتك اجمعين	وبعد	فهذا كتاب جليل
كتبته لم أسبق به	اليه ألفته مختصرا في الفقـ	فا	ن اعان الله وتم حيث
امره على هذا فهذه	نعمة من الله لا يوفي شـ	قول	ولا عمل رصعته بمعاني
بديعة بليغة منها	من تاريخ الدولة الرسولية وشيء من	الكلام	في معاني العربية يديع
واحرف معدودة اذا	من اوائل نسطوره انتظمت عروضاً فهذه	ثلاثة اشياء وعلم رابع يحصل	ل
جميعه من اخر كل سطر	في علم القوافي فانفتحت هـ	وهي	خمة علم
م تأملها عجب اختراعها	لاعلى منوال ورسمت لها مر	اسم	على غير مثال فجاء مقفا
وجاء مؤدبا وجاء مؤرخا	(كتاب الطهارة) الماء طهور وطاهر	و	نجس فاسم الطهوس حاصل
ل لكل ماء باق على صفته دو	ن غيره ونعني بالطاهر ما استعمل في	فعل	الطهارة أو خالط طاهرا
افحش تغيره وليس له	اليه حاجة فان تغير بالنجاسة تنجس	وحر	م استعماله ولو كثر وان
نا ناله ولم يغيره فعند	العلماء نجس مادون القلتين والمعرو	ف	ن الشمس يكره للانسان
ال استعمال له في جميع	وقيل في الصيف خاصة (باب الآلية)	والا	استعمال للطاهر منها ليس محرماً
س سواء كانت خشباً أو	الامن القدين ويكره التضييب بهما الا ير	اسم	الحاجة اذا قل
ل لكنسه وان كان	ما فطهارته تصح وان تنجس بعضها ولم	يعرف	توضاً بما قـ

المصطلحات التركية الدارجة في العصر المملوكي ومعانيها باللغة العربية

أجناد الحلقة	جنود من الدرجة الثانية. كان عددهم غفير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم. بلغ عددهم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ١١ ألفاً. ربما سمو بذلك لأنهم كانوا يحيطون بالسلطان أو بالأعداء. تألفوا من القرانيص والسيفية والمتعممين والعربان والعامه.
أمير	مقدم الفرسان. ولكل أمير طبقة تبعاً لعدد فرسانه.
أمير آخور	رئيس الإصطبل السلطاني والمشرف على خيله.
أمير خمسة	أمير تحت إمرته خمسة فرسان. أمير من الطبقة الرابعة وهي أقل درجات الإمارة وتوازي درجة كبار الأجناد.
أمير عشيرة	أمير تحت إمرته عشرة فرسان وأحياناً عشرين. أمير من الطبقة الثالثة. منهم يكون صغار الولاة، وأرباب الوظائف.
أمير طبلخاناه	أي أمير تدق الطبول والأبواق على أبوابه. وهو أمير تحت إمرته غالباً أربعون فارساً. أمير من الطبقة الثانية. منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة.
أمير مئين	مقدمو الألوفا. أمير تحت إمرته مائة أو ألف فارس، ممن دونه من الأمراء. وهو أمير من الطبقة الأولى وهي أعلى مراتب الإمارة. منهم يكون النواب وأكابر أرباب الوظائف.

أمير مجلس

مشرف وحارس على كرسي وسرير السلطان.

أمير علم

أمير من أمراء العشرات كان يشرف على الطبلخاناه.

أمير سلاح

حامل سلاح السلطان. وهو مقدم السلاح دارية من المماليك السلطانية، والمشرف على السلاح خاناه السلطانية.

أمير شكار

مشرف على الجوارح السلطانية من الطيور والصيد. كان من أمراء العشرات.

أمير العربان

رؤساء بيوت القبائل من أصول عربية التي وردت على مصر وأقامت بها، ومنها بنو شداد وبنو عجيل وكانوا يسكنون بالقصر الخراب بقوص، وأولاد بني جحيش، وكانت منازلهم في دروة سرمام، وأولاد زعازع، وأولاد قريش (ليست قريش مكة المعروفة)، وبنو عمر بجرجا، وأولاد غريب بدهروط وغيرها. من أشهر أمراء العربان خثعم بن نمي بالوجه البحري.

أتابك

تعني الأب الأمير، وهو أمير الجيوش أي القائد العام للجيش. وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة. ويدعى أيضاً أتابك العساكر لما تكن له من صلاحيات أمر ونهي.

استدار

وتكتب كثيراً أستاذ بضم الألف وهو خطأ. الأستاذ كان يشرف على كل بيوت السلطان من مطابخ وحاشية وجاشنكرية ونفقات وكسوة.

استدار

أيضاً أستاذار الصحبة وهو خطأ، والصواب هو المشرف على المطبخ السلطاني والطعام وخدمة السماط. عادة أمير عشرة.

الصحبة

إسكندر الزمان	من ألقاب السلطان.
أهوار	جمع هُري، مخازن للفلال والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطاً للطوارئ الاقتصادية، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة.
سكرجة	صحن صغير يوضع على المائدة، وفيه فاتحات الشهيية من الطعام.
الصاحب	من ألقاب الوزراء، و" الصاحبى " نسبة إليه للمبالغة.
الكافل	من ألقاب نائب السلطنة.
إقطاع	دخل الأمير أو المملوك من خراج أرض أو بلدة.
أعلام	عدة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب الملك واسمه وتسمى العصاية، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صفار تسمى السناجق.
بابا	اسم كان يطلق على غلمان الطشت خانا، وكانت من ضمن وظائفه الأشراف على قباض اللحم.
البحرية	طائفة من الجنود يبيتون بالقلعة وحول دهايز السلطان في السفر لحراسة السلطان. أول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم هو السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب.

الساعة الرملية. بنكان معرب إما من الكلمة الفارسية قالب: نسعيق أو من أصل يوناني.	بنكان الرمل
أيضاً مارستان. مستشفى وكان الطب يدرّس به كذلك.	بيمارستان
بريد يرسل عن طريق الحمام الزاجل. نظمه وتوسع في استخدامه السلطان الظاهر بيبرس.	بريد جوي
الخزانة العامة.	بيت المال
فئة من التجار كانت بيدها تجارة البهار الوارد من الهند.	تجار الكارمية
عرش السلطان.	التخت
بجيم معطشة ومكسورة.	الجتير
أجر المملوك أو منحته الشهرية، كانت تعطى من غلة الوقف.	جامكية
متذوق مأكّل ومشرب السلطان أو الأمير للتأكد من خلوه من السم.	جاشنكير
راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر.	جاليش
راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر أيضاً.	جاویش

جمع جنب، الخيول التي كانت تتبع السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها.	جنائب
من ألقاب كاتب السر.	حافظ الأسرار
نوع من السفن الحربية الخفيفة كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية.	حراقة
مخزن تجاري يبيع نوع معين من البضائع.	خان
من ألقاب السلطان المملوكي التي يعتز بها، وتضفي عليه الطابع الشرعي في الحكم.	خادم الحرمين الشريفين
تكتب كثيراً «خازندار» وهو خطأ (القلقشندي). وخزندار هو مشرف على خزائن أموال السلطان من نقد وقماش وغير ذلك.	خزندار
أقرب المماليك السلطانية إلى السلطان. وهم الحرس الشخصي للسلطان. وكانوا يسوقون المحمل الشريف أيام الحج، أو مماليك ينتمون إلى فئة واحدة من مماليك السلطان الخاصة؛ تلتف حول أحد كبار الأمراء.	خاصكية
من ألقاب أولاد السلطان الناصر قلاوون.	خليل أمير المؤمنين

زوجة السلطان.

خند

ممالك ينتمون إلى نفس الأمير أو السلطان.

خشداشية

من ألقاب أكابر التجار الأعاجم، وهو لفظ فارسي معناه " السيد ". و " الخواجي " نسبة إليه للمبالغة.

خواجا

راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه.

العصابة

رسم توقيع السلطان الذي يضعه على مستندات السلطنة ورسائله.

علامة سلطانية

غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب. كانت يحملها " الركاب دارية " بين يدي السلطان في المواكب.

الغاشية

من ألقاب الوزراء.

الملاذي

حالة الطوارئ العامة في البلاد، وتعلن عند نشوب حرب، أو حدوث هجوم خارجي.

التقدير

من ألقاب أكابر كتاب الإنشاء مثل: كاتب السر.

رأس البلغاء

المشرف على الممالك السلطانية. وجرت العادة أن يقوم بالوظيفة أربعة أمراء : مقدم ألف، وثلاثة طبلخاناه، ممن تحت إمرة كل منهم على الأقل أربعون فارساً.

رأس نوبة

راختوان	جمعها رختوانية. خادم منوط بحفظ الأثاث والعناية به في قصر السلطان. كان من الرختوانية من يخدم في الطشت خاناه.
ركاب دار	حامل الغاشية بين يدي السلطان في المواكب وقت الاحتفالات.
زردخاناه	بيت الزرد لما فيها من دروع وزرد. كان يحفظ فيها السلاح. وهي أيضاً السلاح خاناه.
دبندار	ضارب الطبول.
الدھليز	خيمة السلطان التي كان يقيم بها وقت السفر والمعارك. كانت مركز قيادة الجيش في المعارك.
داوادر	حامل دواة السلطان. من وظائفه إبلاغ الرسائل عن السلطان.
فندق	مكان للإقامة نظير أجر. من أشهر فنادق القاهرة في العصر المملوكي: دار التفاح، وفندق بلال، وفندق الصالح.
قابض اللحم	كانت وظيفته توزيع اللحم على الممالك السلطانية.
كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري.	لقب نائب السلطنة المقيم بمصر.

كُشاف	يشرف على الأراضي والجسور، ويسمى أيضاً كاشف التراب وكاشف الجسور. وهو أيضاً جابي الضرائب.
كوسات	صنوجات من نحاس، كانت يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. كان يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة، ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاء، ومرة قبل الفجر. وكان أيضاً يدار بها حول خيام السلطان في سفره.
كوسي	ضارب الكوسات (الصنوج النحاس).
لسان السلطنة	من ألقاب كاتب السر.
مقدم المماليك	المشرف على المماليك السلطانية. عادة يكون أمير طبلخاناه، وله نائب أمير عشرة.
ممالك كتابية	ممالك تحت التدريب يعيشون في الطباقة.
ممالك سلطانية	جنود من الطبقة الأولى. أشد ممالك السلطان قرباً، وأعظم الأجناد شأنًا، وأرفعهم قدراً، وأوفرهم إقطاعاً. كانوا فرقة واحدة مؤلفة من عدة فئات، هي: الخاصكية، والأجلاّب، والقرانيص، والسيفية.
المقصورة	راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر.
مُنفر	ضارب البوق.

حافظ الأسرار	من ألقاب كاتب السر.
مدورة السلطان	خيمة السلطان التي كان يقيم بها في أثناء أسفاره.
المظلة السلطانية	وتسمى "الجتر"، قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب؛ على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، كانت تحمل على رأس السلطان في العيدين.
مرقدار	خادم بالمطابخ السلطانية.
مهمندار	مستقبل الرسل الواردين وشيوخ العربان وغيرهم. (مهمن بالفارسية تعني الضيف).
مهتار	مشرف على بيت من البيوت السلطانية، كبير على طائفة من غلمان الحواصل؛ كالطشت خاناه، والفراش خاناه. وكان يلقب بالحاج وحتى إن لم يكن قد حج البيت.
نائب السلطنة	نائب السلطان المباشر المقيم بالقاهرة، يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم التقاليد والتواقيع والمناشير، ويستخدم الجند من غير مشاورة السلطان. ويحمل لقب كافل الممالك الشريفة الإسلامية الأمير الأمري تميزاً له عن نواب السلطان في توابع السلطنة بالشام وغيرها.
نائب الإسكندرية	نائب عن السلطان بالإسكندرية وكان بها كرسي سلطنة. وهو من الأمراء المقدمين يركب في المواكب ومعه أجناد الحلقة.

نائب الوجه
القبلي

أعلى من نائب الوجه البحري. مقر نيابته كانت في أسيوط. ويحكم على جميع بلاد الوجه القبلي.

نائب الوجه
البحري

من الأمراء المقدمين في رتبة مقدم العسكر بغزة. مقر نيابته كانت في دمنهور.

ناظر
البيمارستان

يشرف على البيمارستان المنصوري (المستشفى). وكانت مرتبته عالية. عادة يكون من أكابر أمراء مصر.

نقيب الجيوش

المشرف على تزيين الجنود في عروضهم، ومعه يمشي النقباء. وهو الذي يحضر الأمير أو الجندي إلى السلطان أو النائب أو الحاجب في حالة طلبه.

السناجق

رايات صفر صفار.

شاد الدواوين

مساعد الوزير والمشرف على استخلاص الأموال. عادة يكون أمير عشرة.

شاد العمائر

المشرف على العمائر السلطانية من قصور ومنازل وأسوار وغيرها؛ مما يطلب السلطان. عادة يكون أمير عشرة.

شاد الشراب
خاناه

المشرف على الشراب خاناه السلطانية وما بها من مشروبات وفواكه.

شعار السلطنة

تنظيم معين لموكب السلطان، كسير مهاليكه وأمراءه معه، ورفع رايات وسناجق سلطانية ونحو ذلك.

بيت الطبل. مخزن الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات. كان يشرف عليها أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم. وهي عبارة عن طبول متعددة معها أبواق وزمر كانت تدق كل ليلة في قلعة الجبل بعد صلاة المغرب. وتصحب في أسفار السلطان والحروب.	طبلخاناه
محل إقامة السلطان وكانت فوق جبل المقطم بالقاهرة.	قلعة الجبل
ممالك تحولوا إلى خدمة أمير آخر أو سلطان جديد.	قراصنة
محل إقامة الممالك المستجدين بقلعة الجبل.	طباقي
بيت الطشت. فيها يكون الطشت الذي تغسل فيه الأيدي، والطشت الذي يغسل فيه القماش. وفيها يكون ملبس السلطان، ونعل البيت، ومقاعده والسجادات التي يُصلى عليها.	الطشت خاناه
يحكم في القاهرة وضواحيها، وهو أكبر ولاية مصر. ويدعى أيضاً باسم والي الشرطة ووالي الحرب. عادة ما يكون أمير طبلخاناه.	وآلي القاهرة
يحكم في مصر (المدينة). وهو أمير عشرة.	وآلي الفسطاط
يحكم في القرافة، وهي مدافن القاهرة والفسطاط، بمراجعة والي مصر (المدينة) وهو أمير عشرة. في مدة لاحقة أضيفت القرافة إلى مصر (المدينة) وصارت ولاية واحدة.	وآلي القرافة

يشرف على أكبر أبواب قلعة الجبل بالقاهرة (باب المدرج). أمير طبلخاناه.	والي القلعة
يشرف على باب القلعة (كانت هناك قلعة بناها الظاهر بيبرس وهدمها المنصور قلاوون).	والي باب القلعة
من أجل أرباب الدولة وأرفعهم رتبة. ولكن اختصاصاته لا تتجاوز الأمور المالية وبعض الأمور الإدارية. أبطلت الوزارة في عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون. وصار يقوم بعمل الوزير ناظر المال، وشاد الدواوين، وناظر الخاص.	وزير





المعاصر

١٠

المعاصر

المصادر والمراجع .. أولاً، المصادر

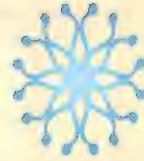
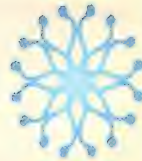
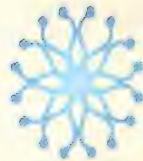
١. القرآن الكريم.
٢. كتب السنة النبوية.
٣. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم: تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، النسخة الرقمية.
٤. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
٥. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ت ٧٤٨ هـ: - سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط. الرابعة ١٤٠٦ هـ. - كتاب العبر في خبر من غير، القاهرة ١٩٨٤ م.
٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر).
٧. إسماعيل بن أبي بكر المقرئ: عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافي، مكتبة أسامة - تعز - اليمن.
٨. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٣٠٦ م): "المقدمة"، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ م.
٩. أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مكتبة مشكاة الإسلام.
١٠. محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - مطابع دار السراج، ط. ٢ - ١٩٨٠ م.
١١. ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢ م).
١٢. شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، ط. ٢، ١٩٠٩ م.
١٣. أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، (ت ٦٣٦ هـ): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان.
١٤. أبو عبيد عبد الله البكري الأندلسي: معجم ما استعجم، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ م.
١٥. الحسن بن بن عمر الحلبي: تذكرة النبي في أيام المنصور وبينه (دار الكتب، القاهرة ١٩٧٦ م).
١٦. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد: نهاية الأرب في فنون الأدب. النسخة الرقمية، المرجع الأكبر، مكتبة العريس، بيروت - لبنان.
١٧. محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي الداراني الدمشقي: فوات الوفيات.
١٨. أبو الفدا، عماد الدين أيوب الشافعي: المختصر في أخبار البشر.
١٩. محمد بن مكرم بن منظور، ت ٧١١ هـ: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.
٢٠. الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ت - ٧٧٤ هـ: البداية والنهاية، مكتبة الرياض الحديثة.
٢١. شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت - ٧٢٨ هـ: منهاج السنة النبوية.
٢٢. أحمد بن علي المقرئ ت ٨٤٥ هـ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٧٥ م.
٢٣. أحمد بن علي المقرئ ت ٨٤٥ هـ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف باسم خطط المقرئ أو الخطط المقرئية).
٢٤. العمري، ابن فضل الله ت ٧٣٤ هـ: مسالك الأبصار في مسالك الأمصار.
٢٥. ابن أبيك، أبي بكر بن عبد الله الدوادار: كنز الدرر وجامع الغرر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٠ م.
٢٦. الخزرجي، علي بن حسن (القرن الثامن الهجري): العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، جزءان.
٢٧. ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي ت ٧٧٩ هـ: رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).
٢٨. عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٩٧٧ م.
٢٩. السيوطي: عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد سابق الدين الخضير الأسيوطي، ت ٩١١ هـ: تاريخ الخلفاء.
٣٠. اليونيني، موسى بن محمد اليونيني (المتوفى: ٧٢٦ هـ): ذيل مرآة الزمان.
٣١. شهاب الدين أبو القاسم، المقدسي المعروف بأبي شامة: الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية.
٣٢. ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض ط ٢، ١٩٧٦ م.
٣٣. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. دار الثقافة، بيروت ١٩٨٦ م.
٣٤. أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ط. المثق، بغداد.
٣٥. ابن عربشاه، أبو العباس شهاب الدين أحمد الدمشقي: عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦ م.
٣٦. القلقشندي، أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. النسخة الرقمية، المرجع الأكبر، مكتبة العريس، بيروت - لبنان.
٣٧. القرمانلي، أبو العباس أحمد جليي القرمانلي: أخبار الدول وآثار الأول. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

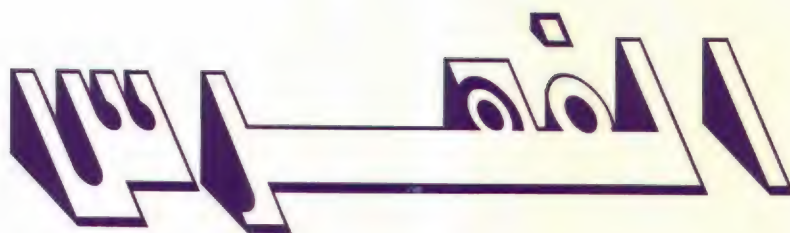
المصادر والمراجع .. ثانياً، المراجع (أ)

١. د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المغول العظام والإليخانين، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.
٢. د. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.
٣. د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.
٤. الشيخ محمود شاكر، سلسلة التاريخ الإسلامي، (العهد المملوكي)، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤١١ هـ، بيروت - لبنان.
٥. د. محمد عبد الحميد الرفاعي، حكم السلطنة شجرة الدر، موقع الألوكة.
٦. د. راجب السرجاني (موقع قصة الإسلام).
٧. د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام (دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٦).
٨. د. شفيق جاسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة.
٩. سامي بن عبد الله المغلوث، أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة العبيكان، الرياض.
١٠. سامي بن عبد الله المغلوث، أطلس تاريخ الدولة العباسية، مكتبة العبيكان، الرياض.
١١. د. أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، د. ت. الطباعة.
١٢. د. أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف بمصر، ط ١ (١٨٣٩).
١٣. د. طارق السويدان، الأندلس «التاريخ المصور»، ط ١، ١٤٢٦ هـ، مؤسسة الإبداع الفكري - الكويت.
١٤. د. فتحية النبراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ٢، جدة - المملكة العربية السعودية.
١٥. د. عماد الدين خليل، مجلة الأمة، العدد التاسع، رمضان ١٤٠١ هـ.
١٦. د. جاد محمد رمضان، كيف نجا المسلمون من عاصفة المغول والتتار المدمرة؟ مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٦.
١٨. موسوعة المعرفة (مجموعة باحثين ورد ذكرهم تحت مواضيعهم المختارة)، دمشق - سوريا.
١٩. مؤسسة أعمال الموسوعة، (الموسوعة العربية العالمية)، ط ٢، ١٤١٩ هـ.
٢٠. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، الندوة العالمية للشباب الإسلامي.
٢١. أحمد تمام، مجموعة من المقالات الإسلامية التاريخية، موقع إسلام أون لاين.
٢٢. د. أحمد حطيط، تاريخ لبنان الوسيط، دراسة في مرحلة الصراع المملوكي - الصليبي.
٢٣. د. محمد بن عبد الله الشوير، تأثيرات الهدن بين المسلمين والصليبيين (٤٩٠ - ٦٩٠ هـ)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة.
٢٤. د. السيد الباز العريني، المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩ م.
٢٥. د. السيد الباز العريني، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩ م.
٢٦. أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية.
٢٧. د. راجب السرجاني، موقع قصة الإسلام على الشبكة العنكبوتية.
٢٨. منذر الحايك، العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع.
٢٩. د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسي والاجتماعي)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٤٢٧ هـ.
٣٠. د. شفيق جاسر أحمد محمود، محاولات التحالف بين المغول والصليبيين ضد المسلمين في القرنين السابع والثامن الهجريين وآثارها - مجلة الجامعة الإسلامية، العددان ٧٥-٧٦.
٣١. الفروسية الجزء الأول (فنون الفروسية في تاريخ المشرق والمغرب) عربي وحرره وعلق عليه د. شهاب الصراف، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض.
٣٢. الشيخ/ أبو بكر الجزائري، نماذج من الدعاة الصالحين، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ٥٧.
٣٣. د. علي بن صالح المحميد، الإمارات الحدودية شمال الشام ودورها السياسي في العصر المملوكي (إمارة دلفادر إنموذجاً ٧٣٨-٩٢٨ هـ / ١٣٣٨-١٥٢١ م).
٣٤. المواقع الإسلامية الإلكترونية (موقع الألوكة، موقع التاريخ الإسلامي، موقع الأسرة، موقع موسوعة المعرفة).
٣٥. يوسف عطا الطريفي، العصر العباسي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط ٢ (٢٠٠٩).
٣٥. د. حسن أحمد محمود، تاريخ المغرب والأندلس، دار الفكر العربي، ط ١ (١٩٩٩).

المصادر والمراجع .. ثانياً، المراجع (ب)

٢٦. مخطوطة كتاب (أعلام الشراكسة - الجزء الثاني)، فيصل حبوطوش خوت أبزاخ، عمان - الأردن - ٢٠٠٨ م.
٢٧. .
٢٨. نقولا زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، - بيروت - لبنان.
٢٩. د. فاروق عثمان أباطة، تحول طرق التجارة العالمية عن عالم البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح وأثره في العلاقات التجارية بين الإسكندرية والبندقية في مطلع العصر العثماني (٩٢٦ - ١٥١٧ م).
٣٠. د. محمد عبد الحميد الرفاعي، حكم السلطنة شجرة الدر. موقع الألوكة.
٣١. طارق نافع الحمداني، المجلة العربية للعلوم الإنسانية.
٣٢. د. عثمان علي عطا، معركة مرج دابق .
٣٣. العمارة الإسلامية بمصر وتطورها، ملتقى المهندسين العرب .
٣٤. أحمد هاشم بدرشيني، أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي.
٣٥. د. أحمد بن صالح العبد السلام، تاريخ الوقف عند المسلمين وغيرهم.
٣٦. د. أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، د . ت . الطباعة.
٣٧. د. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، دولة المماليك، المكتب الجامعي الحديث.
٣٨. د. فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية.
٣٩. جوزيف نسيم جوزيف، العدوان الصليبي على مصر، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١ م.
٤٠. د. محمد عبد العظيم الخولي، الأزهر الشريف والسودانيون في العصر المملوكي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
٤١. د. محمد بن أحمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الإسلام فيها، مكتبة الأقبسى، عمان - الأردن، ط ٢، ١٤٠٦ هـ .
٤٢. د. مفيد الزيدي، موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي)، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان . الأردن.





٥

مقدمة الأطلس

٩

المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٨٢ م

الباب الأول

١٦٧

المماليك البرجية ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٢٨٢ - ١٥١٧ م

الباب الثاني

٢٦١

النظم والمنجزات الحضارية ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

الباب الثالث

٣١٥

المصادر والمراجع

٣١٩

الفهرس



تم بحمد الله وتمت

سيرة ذاتية



سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث

- من مواليد مدينة المبرز بمحافظة الأحساء سنة ١٣٨٢ هـ.
- بكالوريوس تربية: تخصص رئيس تاريخ، وفرعي جغرافيا.
- إمام وخطيب جامع المغلوث بمدينة المبرز منذ عام ١٤١٩ هـ وحتى إعداد هذه السيرة في ١١ / ١١ / ١٤٣٣ هـ ، حفظ القرآن الكريم في سن مبكر.
- شارك في لجنة إعداد وثيقة المشروع الشامل لتطوير المناهج سنة ١٤٢٣ هـ.
- كُلفَ كعضو لفريق تأليف العلوم الاجتماعية للمشروع الشامل لتطوير المناهج بوزارة التربية والتعليم، وعين مشرفاً على الدعم الفني والتصميم التعليمي للمشروع.
- عضو فريق تأليف الأطالس التعليمية بدارة الملك عبد العزيز، وممثل الجانب التاريخي عن وزارة التربية والتعليم في المشروع.
- عضو فريق تأليف الأطالس المدرسية بمكتبة العبيكان بالرياض.
- كُلفَ من قبل وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف بإعداد (وثيقة أطلس تاريخ الدعوة الإسلامية) عام ١٤٢٩ هـ.
- كُلفَ من قبل الهيئة العامة للسياحة والآثار بإعداد (وثيقة تضمين المفاهيم السياحية والأثرية في المنتج التعليمي لمناهج التعليم بالمشروع الشامل لتطوير المناهج) عام ١٤٣٠ هـ، حسب مذكرة التفاهم بين الهيئة العامة للسياحة والآثار ووزارة التربية والتعليم .
- كُلفَ من قبل وزير التربية والتعليم بإعداد ورقة وزارة التربية والتعليم للمؤتمر الدولي للتراث العمراني بالدول الإسلامية، وتم تقديمها في المؤتمر سنة ١٤٣١ هـ.
- كُلفَ مديراً «مشروع الأطلس المصور للتربية السياحية» والذي تم الانتهاء منه في ١٥ / ٨ / ١٤٣٢ هـ.
- كُلفَ في ١ / ٢ / ١٤٣٢ هـ من قبل صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز أمير منطقة حائل بإعداد



أطلس النقوش والكتابات الأثرية بمنطقة حائل، وتم تفريفه للعمل بإدارة التربية والتعليم بمنطقة حائل لإنجاز وثيقة المشروع.

- حصل على العديد من الشهادات العلمية والتربوية في مجالي تأليف وتصميم الكتاب المدرسي.
- لديه اهتمام في علم السكة والنميات.

أهم مؤلفاته المطبوعة :

- ١- أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، طبع ونشر مكتبة العبيكان، ١١ طبعة. وترجم إلى عدة لغات عالمية كان آخرها اللغة الإندونيسية وبدعم من صاحب السمو الملكي الأمير / سلمان بن عبد العزيز - سلمه الله - أمير منطقة الرياض آنذاك. ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع حالياً. وتم ترشيح هذا الكتاب من قبل معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد لرابطة العام الإسلامي لجائزة عالمية (مقال منشور بالمجلة العربية ١٤٢١ هـ)، ومن قبل الأديب عبد الله الشباط لجائزة دول مجلس التعاون الخليجي، للعمل الإبداعي (مقال منشور في جريدة اليوم)، علماً أن هذا الأطلس قد تم تحويله إلى برنامج تلفزيوني لقناة دولة الكويت، من ٣٠ حلقة في رمضان سنة ١٤٢٧ هـ وتم استضافة المؤلف في بعض حلقاته بتقديم الشيخ عبد العزيز العويد.
- ٢- الأطلس التاريخي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم (٧ طبعات)، طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض، وحقق هذا الكتاب وسابقه (الأكثر مبيعاً والأوسع انتشاراً) خمسة مواسم متتالية، وقد قام تلفزيون دولة الكويت بتحويله هو الآخر لبرنامج تلفزيوني من ٣٠ حلقة في رمضان سنة ١٤٢٨ هـ. فهو أول أطلس مستقل يستعرض سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عبر الزمان والمكان، وذلك من خلال تسليط الضوء على مواقع أحداث السيرة النبوية. وتم ترجمته إلى لغات عالمية هو الآخر.
- ٣- أطلس الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، (أربع طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض.
- ٤- أطلس الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، (ثلاث طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض. وقد تم ترجمته إلى اللغة الفارسية .
- ٥- أطلس الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، (ثلاث طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض.
- ٦- أطلس الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (ثلاث طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض. وقد تم ترجمته إلى اللغة التركية.
- ٧- أطلس الأديان، (ثلاث طبعات) طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض في ٧٥١ صفحة من القطع الكبير. ويتناول هذا الأطلس: التعريف بالأديان (تاريخ - عقائد - انتشار) عبر خرائط تفصيلية على مسرح الحدث الخاص بالديانة، مع تدعيم كل معتقد بالصور والنصوص الموثقة، وتم استعراض الكتاب عبر وسائل الإعلام المختلفة.

- ٨- أطلس حروب الردّة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض، ١٤٢٩ هـ.
- ٩- أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض.
- ١٠- أهم الأحداث التاريخية في عهد الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - ، دار الوراق (ثلاث طبعات).
- ١١- غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم (خارطة جدارية) مقاس كبير، وخارطة أخرى لحروب الردّة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكلاهما طبع ونشر مكتبة العبيكان بالرياض.
- ١٢- غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيلة تربوية معرفية، طبع ونشر الشركة العالمية للدعاية والإعلان بالرياض.
- ١٣- الفهد رائد التعليم الأول؛ بمناسبة عشرين عاماً على تولي خادم الحرمين الشريفين مقاليد الحكم، وزارة التربية والتعليم. بتقديم معالي وزير التربية والتعليم السابق الدكتور / محمد الأحمد الرشيد.
- ١٤- المملكة العربية السعودية؛ قيادة وريادة، برنامج حاسوبي بالوسائط المتعددة.
- ١٥- أطلس الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ط . الأولى ١٤٣١ هـ ، مكتبة العبيكان .
- ١٦- أطلس الحج والعمرة " تاريخاً وفقهاً " مكتبة العبيكان، ط . الأولى ذو القعدة ١٤٣١ هـ.
- ١٧- أطلس تاريخ الدولة الأموية " مكتبة العبيكان، ١٤٣٢ هـ.
- ١٨- أطلس تاريخ الدولة العباسية، مكتبة العبيكان للطباعة والنشر، ١٤٣٣ هـ.

أهم مؤلفاته المترجمة :

- ١- أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا، (ثلاث طبعات).
- ٢- الأطلس التاريخي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا، (ثلاث طبعات) باللغة الإندونيسية.
- ٣- الأطلس التاريخي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، دار نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم للطباعة والنشر بتركيا، باللغة تركية (ثلاث طبعات).
- ٤- أطلس الدين الإسلامي (وهو مقتطع من أطلس الأديان) دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا، طبعان.
- ٥- أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا.
- ٦- أطلس الأديان، دار الماهرة للطباعة والنشر بإندونيسيا، (طبعان).

- ٧- أطلس الخليفة علي بن أبي طالب باللغة التركية (دار يوسف أوزبك للطباعة والنشر بتركيا) باللغة التركية (طبعتان) .
- ٨- أطلس الحج والعمرة " تأريخاً وفقهاً " بالإنجليزية والتركية.
- ٩- الأطلس الأولى للمؤلف قامت دار التوحيد بفرنسا بترجمتها إلى **اللغة الفرنسية**.
- ١٠- تم الاتفاق مؤخراً مع دار السلام بالرياض - بناء على رغبتها - بترجمة (١٢) أطلساً إلى **اللغة الأوردية** وذلك من خلال التنسيق مع مكتبة العبيكان .

مؤلفات مشتركة :

- أطلس المملكة العربية السعودية (المرحلة الابتدائية) ، طبع ونشر مكتبة العبيكان .
- أطلس المملكة العربية السعودية (المرحلة المتوسطة) ، طبع ونشر مكتبة العبيكان .
- أطلس المملكة العربية السعودية (المرحلة الثانوية) ، طبع ونشر مكتبة العبيكان .
- مناهج وزارة التربية والتعليم للمشروع الشامل للمناهج للمرحلتين (الابتدائية والمتوسطة) كتاب الطالب والنشاط والمعلم عدد (٣٦) كتاب .
- المشاركة الحالية في إعادة تأليف وتصميم كتب الطالب والنشاط والمعلم المرحلة الثانوية (نظام المقررات) عام ١٤٣١ هـ .
- المشاركة في البرامج الفضائية :
- تسجيل ١٢ حلقة من إعداده وتقديمه لقناة « صفا الكويتية » عن حروب الردة في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وقد عرضت خلال ثلاث دورات متتالية.
- تسجيل مجموعة من الحلقات الميدانية لحركة الفتح الإسلامي، للقناة نفسها .
- المشاركة في برنامج ثقافي عن (الكتاب) لتلفزيون قطر من إعداد وتقديم الدكتور / عبد الرحمن العشماوي، حيث تم تخصيص لقاء لمدة ساعة كاملة عن الحديث عن أطلس تاريخ الأنبياء والرسل مع المؤلف .
- المشاركة في بعض حلقات برنامج الميدان التربوي والذي كان يقدم عبر قناة المملكة العربية السعودية الأولى في عام ١٤٢٠ هـ، مع الإعلامي أ . ماجد الحجيلان.
- المشاركة في محاضرة عن تاريخ قبيلة طيء في الإسلام في برنامج مهرجان سلمى السياحي عام ١٤٢٩ هـ والذي نقلته قناتي الصحراء والنايالات.
- المشاركة في برنامج صباح السعودية في دورته الجديدة في شهر شوال ١٤٣٠ هـ .
- المشاركة في برنامج ساعة حوار بقناة المجد الفضائية مع مقدم البرنامج، د . فهد السنيدي، بعنوان " الحج تاريخاً " .

المشاركة عبر برنامج ثقافي عبر قناة الثقافية تقديم أ. محمد بودي.

المشاركة في برنامج ثقافي على الهواء في قناة الإخبارية، تقديم أ. خالد العقيلي، بمناسبة مؤتمر التراث العمراني الأولى في الدول الإسلامية.

المشاركة في برنامج (خير جليس) بالقناة الثقافية السعودية، تقديم د. صالح المحمود.

المشاركة في برنامج (مداد) في قناة (دليل) مع الإعلامي أ. إبراهيم السلمي.

المشاركة في قناة الإخبارية للعام ١٤٣٢ هـ عن معرض الكتاب الدولي بالرياض.

ألقى العديد من المحاضرات عن الأطالس التاريخية في بعض الجامعات السعودية، وبعض إدارات التربية والتعليم بالمملكة، والمشاركة في بعض الصوالين الثقافية.

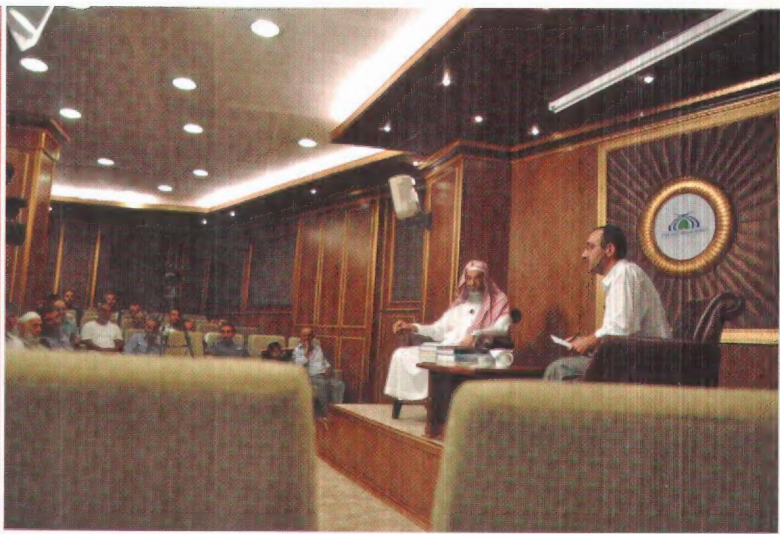
ألقى محاضرة عن تجربة الأطالس في مركز السيرة النبوية في أسطنبول نقلها التلفزيون الإسلامي التركي، وأقام المركز حفل توقيع على كتابه الأطلس التاريخي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في طبعته الثالثة باللغة التركية، وتوقيع اتفاقية لترجمته إلى اللغتين (الإغورية والصينية) مع الناشر التركي.

مؤلفات تحت الإعداد إن شاء الله تعالى:

- ١ - أطلس تاريخ المذاهب والفرق الإسلامية، وهو مكمّل لكتاب أطلس تاريخ الأديان « تاريخ - عقائد - انتشار » والذي صدر قبل سنوات.
- ٢ - أطلس تاريخ الدولة العثمانية.



إعلانات المحاضرة على أبواب مساجد أسطنبول



محاضرة المؤلف في أسطنبول عن تجربة الأطالس التاريخية